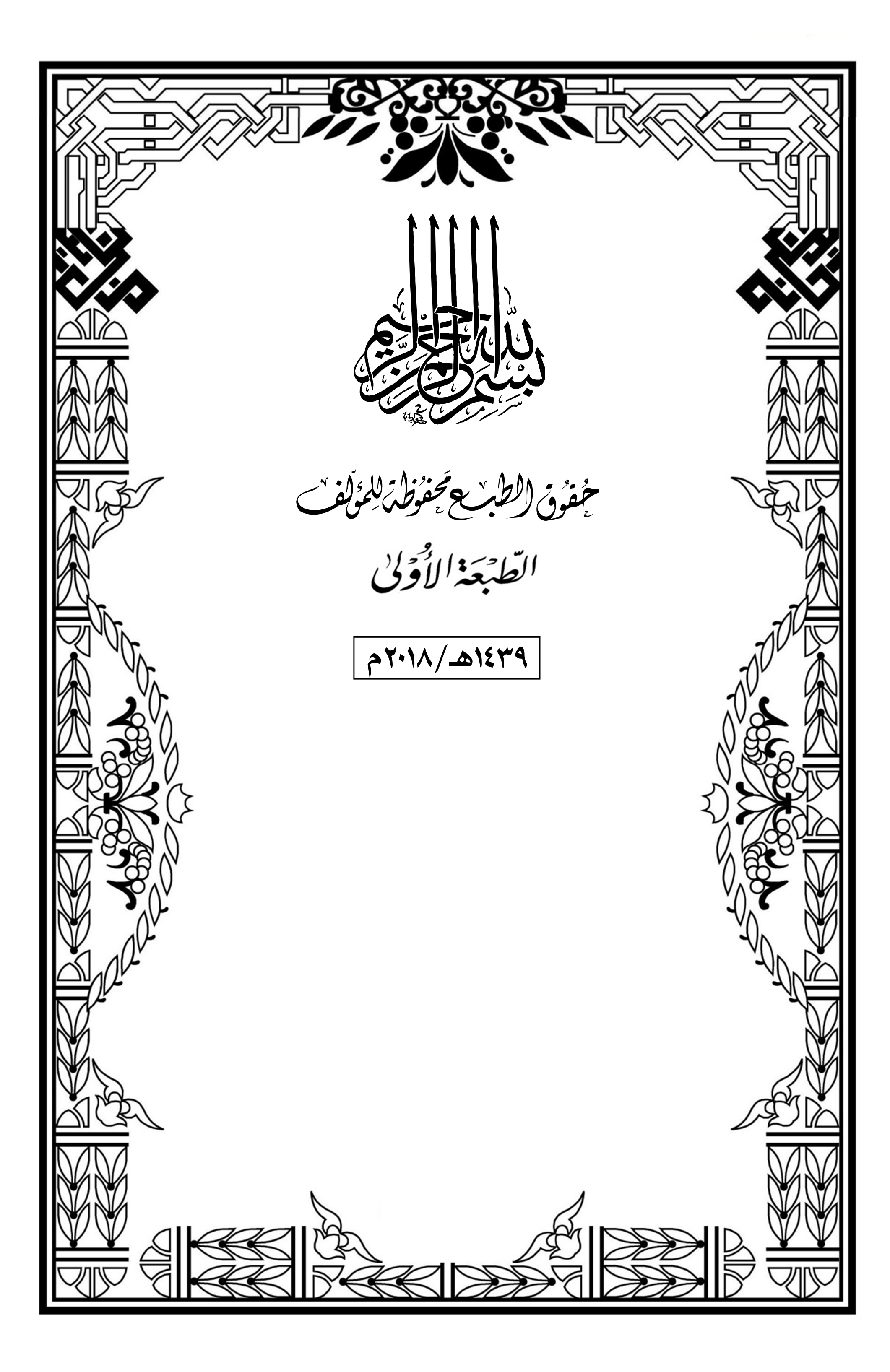


شــرح
الوسائل المفيدة
للحياة السعيدة

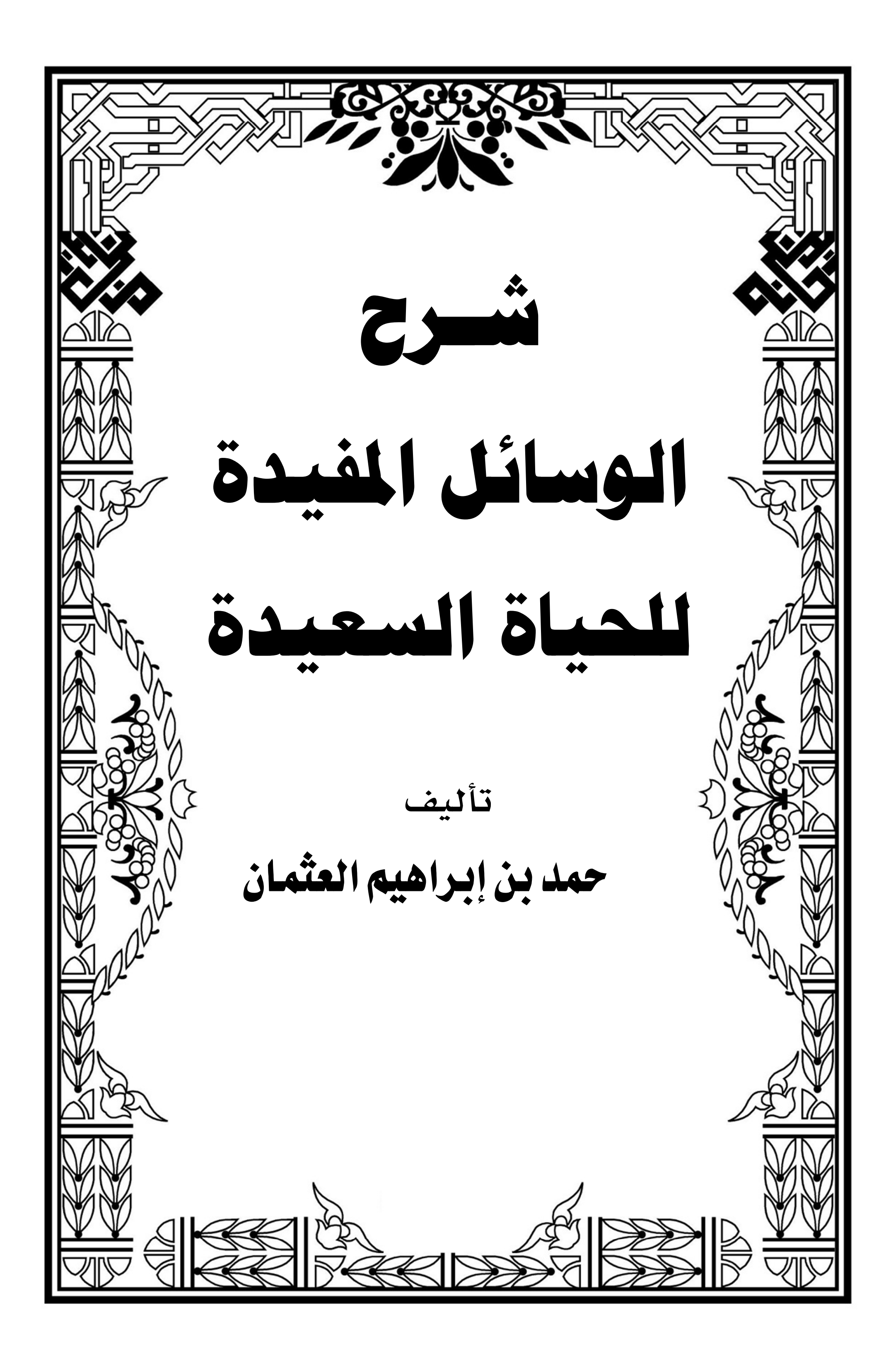


بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

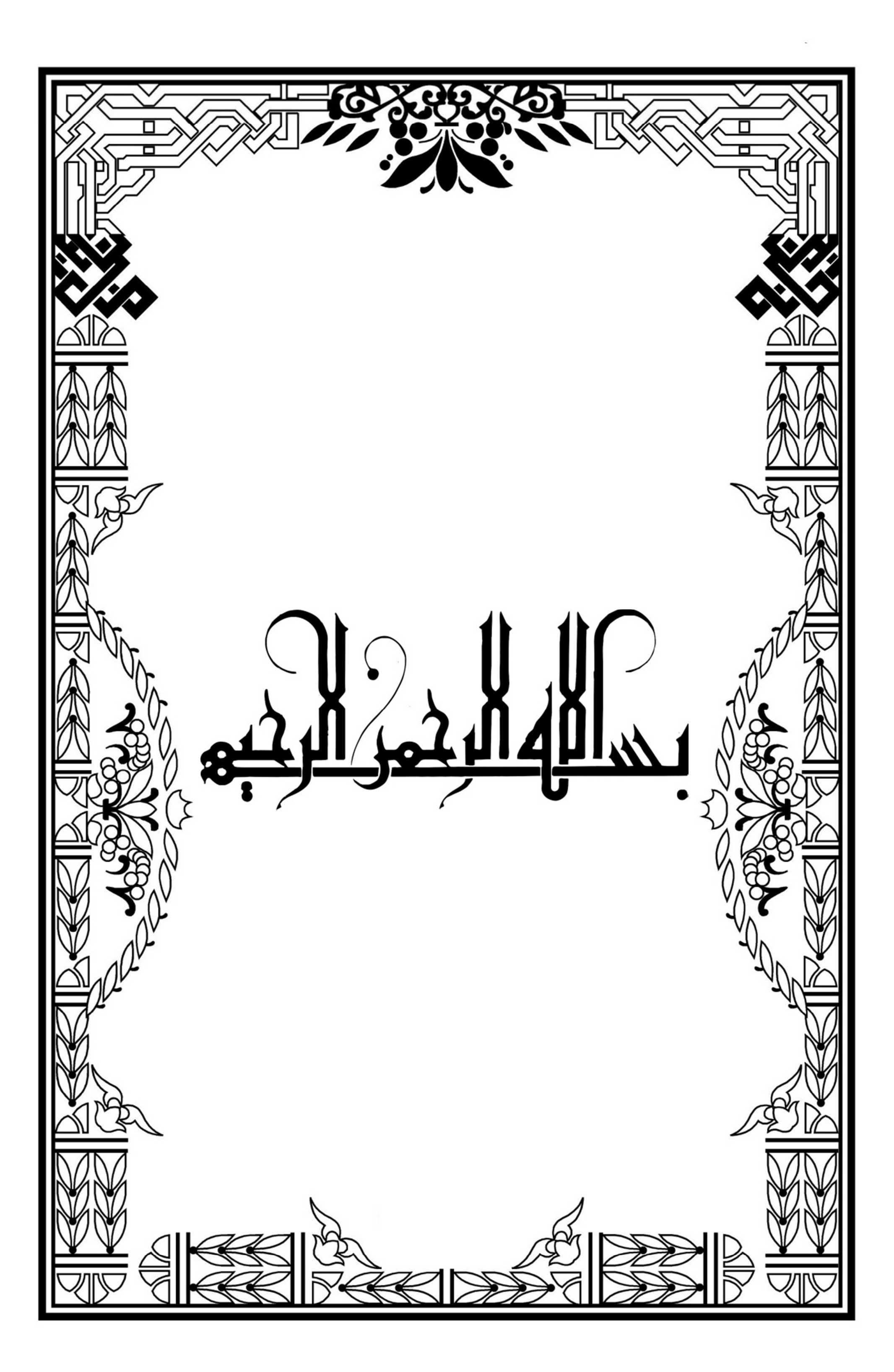
١٤٣٩هـ/٢٠١٨م



شـــرح الوسائل المفيدة للحياة السعيدة

تأليف

حمد بن إبراهيم العثمان


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبـه أستعيـن



المقدمة

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسول الله، وبعد:

عبد الرَّحمن بن ناصر السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ علَّامة متفنِّن، كتب مصنَّفات نافعة مباركة في كلِّ الفنون: في العقيدة، والأحكام، والفقه، والحديث، والتَّفسير، والأخلاق والسُّلوك.

وممَّا كتبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في علم السُّلوك والنَّفس «الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة»، وهي توجيهاتٌ لوسائل السَّعادة، وراحة البال، وسرور النَّفس، وتوجيهات للأخذ بأسباب سعادة الدُّنيا والآخرة.

وحاجة النَّاس ضروريَّة للعلم بأسباب سعادتهم؛ فإنَّ ذلك مطلب كلِّ إنسان، وضرورة كلِّ مخلوق، وشرح أسباب ذلك للنَّاس هو من إرادة الخير لهم وإعانتهم عليه.

وفقه النَّفس ومعرفة أسباب إسعادها، هو من أوضح العلوم بيانًا في شرع الله، وظهوره في نصوص الكتاب والسُّنَّة دليل علىٰ كمال الشَّرع وعنايته بكلِّ ما يصلح الإنسان ويُسعده.

والقرآن والسُّنَّة هما الأساس لتلقِّي توجيهات علم النَّفس، فالله خلق الإنسان، وهو أعلم بأحوال النُّفوس وما يُصلحها ويُسعدها، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وتوجيهات القرآن والسُّنَّة خير وسلامة وسعادة، وواقع تحقق به وعاشه المسلمون عندما أخذوا بتعليمات الوحي.

أمَّا توجيهات المخلوقين فمنها ما هو محض تنظير، ومنها ما هو فلسفة وخيال، لا يصلح واقعًا، ولا يهدي مخلوقًا، ومنها ما يضرُّ بالدِّين.

والقرآن فرقان؛ به نعرف صواب المقالات من ضلالها، فما وافقه فصواب، وما خالفه فباطل.

وطريقتي في هذا الشَّرح: أن أذكر عنوان كلِّ وسيلة ذكرها العلَّامة السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مجملةً؛ وأتناولها بالشَّرح، بحسب تيسير الله وإعانته وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين



قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أعظم الأسباب لذلك وأصلها وأسُّها هو:

١ - **الإيمان والعمل الصَّالح**؛ قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧][١].

الشَّرْح:

بدأ العلَّامة السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكر الأساس لكلِّ أنواع السَّعادات والمسرَّات؛ سعادة الرُّوح والبدن، وسَّعادة الدُّنيا والبرزخ والآخرة، وهذا من توفيق الله له، وهو دالٌّ علىٰ حسن تصنيفه واستقرائه لنصوص وعلوم القرآن والسُّنَّة.

فالإيمان بالله يوجب انشراح الصَّدر، ويحصل للقلب به طمأنينة وسعادة وفرح وسرور، وتستنير به البصيرة، فيحصل للإنسان العلوم الصَّحيحة التي تكون سببًا في العمل الصَّالح، الذي يحصل به الهداية للحقِّ ومجانبة البَّاطل، والسَّلامة من الآثام وأسباب الشَّقاء والعطب والهلاك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «السَّعادة مشروطة بشرطين: بالإيمان والعمل الصَّالح، بعلم نافع وعمل صالح، بكلم طيب وعمل صالح، وكلاهما مشروطٌ بأن يكون علىٰ موافقة الرُّسل».

---

(١) الوسائل المفيدة للحياة السعيدة (ص٨).

(٢) الصَّفدية (٢/ ٢٤٨).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «العمل الصَّالح يورث من: الفرحة، والسُّرور، واللذَّة، والبهجة، والنَّعيم، وقوَّة القلب واستبشاره وحياته وانشراحه، واغتباطه، ما هو أفضل النَّعيم وأجلّه وأطيبه وألذُّه.

وهل النَّعيم إلَّا طيب النَّفس وفرحة القلب وسروره وانشراحه واستبشاره».

وتفاصيل ما يهدي للخير ويعصم من الشَّرِّ جاءت به الشَّريعة، وإن كان مجمل ذلك تدلُّ عليه الفطرة الصَّحيحة والعقل الصَّريح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن الله أرسله ﷺ بشيرًا ونذيرًا، يبشر بثواب الله في الدنيا والآخرة لمن آمن به وأطاعه، ونذيرًا ينذر عن عذاب الله في الدنيا والآخرة لمن كذَّبه وأعرض عن طاعته، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [الحج: ٤٩-٥١].

وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٣، ١٤]، وهذا في القرآن كثير لا يُحصىٰ، بل هو لبُّ القرآن ومقصوده».

إنَّ هناء العيش وسعادته في الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ والعمل الصَّالح، وذلك

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٦٨).

(٢) تفسير القرآن (١/ ٢٣٣، ٢٣٤).

إخلاص العمل لله باتِّباع صراطه المستقيم.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢﴾ [محمد: ٢].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾؛ أي: أصلح دينهم ودنياهم، وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم؛ بتنميته وتزكيته، وأصلح جميع أحوالهم، والسبب في ذلك أنهم: ﴿ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ الذي هو الصدق واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم، الصادر ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾ الذي ربَّاهم بنعمته، ودبَّرهم بلطفه، فربَّاهم تعالىٰ بالحقِّ فاتبعوه؛ فصلحت أمورهم».

وسعادة النفس أساسها سعادة الرُّوح، وذلك لا يكون إلَّا بتوحيد الله، ومحبَّته، والرَّغبة إليه، والتألُّه له.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «السَّعادة الحقيقيَّة، وهي سعادة نفسانيَّة روحيَّة، قلبيَّة، وهي سعادة العلم النَّافع وثمرته؛ فإنَّها هي الباقية علىٰ تقلُّب الأحوال، والمصاحبة للعبد في جميع أسفاره، وفي دوره الثَّلاثة - أعني: دار الدُّنيا، ودار البرزخ، ودار القرار -، وبها يترقَّىٰ في معارج الفضل، ودرجات الكمال».

السَّعيد هو من هداه الله إلىٰ الإسلام، فاستنارت بصيرته بنور الوحي، وانشرح صدره إلىٰ ذكر الله، وقرَّت عينه بطاعة الله، وهَنَأَ عيشه بالسَّير إلىٰ الله بسلوك صراطه المستقيم، واطمأنَّت نفسه إلىٰ ثواب الله الدُّنيويِّ والأخرويِّ.

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٨٣٤).

(٢) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٢٩٧، ٢٩٨).

والكافر أظلم قلبه في جهالة كفره، وضاق صدره بالإعراض عن ربِّه، فهو في نكد وهمٍّ إعراضه عن الله، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّه – سبحانه - يَجْزِي المحسن بإحسانه جزاءين: جزاء في الدنيا، وجزاء في الآخرة، فالإحسان له جزاء مُعَجَّلٌ ولا بُدَّ، والإساءة لها جزاء مُعجَّلٌ ولا بُدَّ.

ولو لم يكن إلا ما يُجَازىٰ به المُحْسِنُ من انشراح صدوره، وانفساح قلبه، وسروره، ولذَّاته بمعاملة ربِّه عَزَّوَجَلَّ، وطاعته، وذكره، ونعيم روحه بمحبَّته وذكره، وفرحه بربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعظم ممَّا يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه.

وما يُجَازىٰ به المسيء من ضيق الصدر، وقسوة القلب، وتَشَتُّتِه، وظُلْمَته، وحزازاته، وغمِّه، وهمِّه، وحزنه، وخوفه، وهذا أمر لا يكاد من له أدنى حسٍّ وحياة يرتاب فيه، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة، ونار دنيوية، وجهنَّم حاضرة».

المنعم عليهم هم السَّعداء، الذين سلموا من شقاء الضَّالين والمغضوب عليهم؛ فسلمت لهم اعتقاداتهم عن الضَّلال، وكانت سببًا في سعادتهم بصلاح أقوالهم وأعمالهم.

---

(١) الوبل الصيِّب (ص١٠٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قال تعالىٰ في حقِّ السعداء ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد:٢١] ، فبيَّن أنَّ الجنَّة أُعدت للذين آمنوا بالله ورسله، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

فبيَّن أنَّ من اتبع الهدىٰ الذي جاء من عنده، وهو ما جاءت به الرسل، فإنَّه لا يضلُّ ولا يشقىٰ، بل يكون من المهتدين المفلحين، كما قال تعالىٰ في نعتهم: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ [البقرة: ٢-٥]، ولهذا قال في الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فأهل الغضب والضَّلال هم أهل الشقاء والضلال، وهم الذين قيل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾ [القمر:٤٧] ، وهم ضدُّ أهل الهدىٰ والفلاح.

فأهل الهدىٰ الذي يتضمَّن العلم والسعادة هم المتبعون للكتاب المنزل».

النَّاس صنفان، فمنهم شقيٌّ وسعيد، والأشقياء هم الذين تولَّوا الشَّيطان وأطاعوه، وكانت موالاتهم للشَّيطان سبب ضلالهم وشقائهم، والسُّعداء تولوا

(١) الصفدية (٢/ ٢٤٦).

الله وأطاعوه، وفرحوا بطاعته، وقرَّة عيونهم بعبوديَّته والتألُّه له.

قال تعالىٰ في شأن الأشقياء والسُّعداء: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٣٠].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ حكمة الربِّ العليا اقتضت افتراق العباد: بالعلم والجهل، والعمل والكسل، والنعيم وضدِّه، وذلك: بحسب عملهم بالأسباب النافعة، أو الأسباب الضارَّة.

فإنَّ الله دعا إلىٰ دار السلام، وبيَّن طريقها، وأعمال البرِّ الموصلة إليها التي مرجعها إلىٰ ثلاثة أمور:

تصديق خبر الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ. وامتثال أمر الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، واجتناب نهيهما. وأمر العباد بسلوكها. وأخبر بما لهم عنده من الكرامة،

فمن كان من أهل السعادة يسَّره لعمل أهل السعادة، وحبَّب إليه الإيمان وزيَّنه في قلبه، وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، فسار يحسن طريقه إلىٰ سعادته الأبديَّة.

ومن كان من أهل الشقاوة: لم يبالِ بأمر الله ولا نهيه، بل كذَّب وتولَّىٰ، فاستحقَّ العذاب بجرمه وذنوبه.

بيَّن الله له الهدىٰ، وأمره بسلوكه فأدبر وتولىٰ، فولَّاه الله ما تولَّىٰ لنفسه، ووكله إليها. ومن وُكِلَ إلىٰ نفسه الأمَّارة بكلِّ سوء، الظالمة الجاهلة فقد هلك، وذلك بما كسبت يداه».

---

(١) مجموع مؤلَّفات العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي (٦/ ٧٩١).

ومن استنارت بصيرته بمعرفة الحقِّ وسلوكه، وقام بأسباب تنمية البصيرة بمداومة طلب العلم والعمل الصَّالح، وتنقية القلب والجوارح من الشَّوائب المضرَّة بذلك، وتزوَّد من التَّقوىٰ؛ زاد خيره، وكثر برُّه، ورسخ في السَّعادة حظُّه.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ السعادة التي هي كمال البهجة والسرور واللذَّة ليس هي نفس العلم، ولا تحصل بمجرَّد العلم، بل العلم شرطٌ فيها، بل لا بُدَّ من العلم بالله وبأمره، كما قال النبيُّ ﷺ في الحديث المتفق علىٰ صحَّته: «**من يرد الله به خيرًا يفقِّهه في الدين**»، فكل من أراد الله به خيرًا فلا بُدَّ أن يفقهه في الدين، فمن لم يفقِّهه في الدين لم يرد به خيرًا، وليس كلُّ من فقهه في الدين قد أراد به خيرًا، بل لا بد مع الفقه في الدين من العمل به، فالفقه في الدين شرط في حصول الفلاح، فلا بد من معرفة الربِّ تعالىٰ، ولا بُدَّ مع معرفته من عبادته، والنعيم واللذَّة حاصل بذلك».

والحياة السَّعيدة هي في الاستجابة لله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، فهي الحياة الطَّيِّبة التي يحصل بها صلاح المخلوق في الدُّنيا، ويجتني من ثمار هذا الصَّلاح وحسن السَّير إلىٰ الله الأمن والعافية والرِّزق والهدىٰ، وحسن ثواب الدُّنيا والآخرة.

قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «تضمَّنت هذه الآية أمورًا:

---

(١) الصفدية (٢/ ٢٦٦).

(٢) الفوائد (ص١٢٧، ١٢٨).

أحدها: أنَّ الحياة النافعة إنَّما تحصل بالاستجابة لله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيميَّة مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات.

فالحياة الحقيقيَّةُ الطيِّبة هي حياة من استجاب لله عَزَّوَجَلَّ والرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياءَ الأبدان.

ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ؛ فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول ﷺ».

وشرائع الإسلام وعلومه وعقائده وأحكامه هي أسباب الحياة السَّعيدة، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد تُحيي القلوب الحياة الطَّيِّبة، وكمال الحياة في الجنَّة، والرَّسول ﷺ داع إلىٰ الإيمان وإلىٰ الجنَّة، فهو داع إلىٰ الحياة في الدُّنيا والآخرة».

سعادة الخلق جميعًا في عبوديَّة الله وحده لا شريك له، فمتىٰ تألَّهت القلوب والجوارح بالإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ؛ تولَّاها الله بغنىٰ القلوب بالله طمأنينة وانشراحًا وسعادة، وسعدت تبعًا لذلك الجوارح، قال تعالىٰ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «كل من في السموات والأرض من

---

(١) الفوائد (ص١٢٩).

(٢) جامع المسائل، المجموعة السَّادسة (ص١٢١، ١٢٢).

الملائكة والجن والإنس؛ لا يجوز أن يصلح حالهم إلا بأن يكون الله إلههم ومعبودهم، وتكون حركاتهم لأجله عبادة له تجمع كمالَ محبته وكمالَ الذلّ له، فإن العبادة تجمع كمال الحب وكمال الذلِّ، وهذا شأن المراد لذاته المقصود لذاته، وكلّ ما سواه فمفتقر إلىٰ هذا المراد المحبوب المعبود لذاته، فلا يكون هو مرادًا محبوبًا لذاته، فإن محبته مستلزمة محبة محبوبه ومعبوده الذي هو أكمل منه، بل هو معبود له. والفساد أن يكون كل من الشيئين محبوبًا، والتابع لغيره محبوب لذاته، والمتبوع محبوب لغيره.

وهذا الأصل هو أصل أصول الشرائع والملل، فإن الرسل جميعهم إنَّما بعثوا لأن يعبدوا الله وحده لا شريك له، وكما أنه مبرهن بالمعقول والقياس والنظر، فهو أيضًا معروف بالوجد والإحساس والذوق؛ فإن العبد يحس من قلبه فقرًا ذاتيًّا إلىٰ ذكره وعبادته، غير فقره إليه من جهة إعطائه سُؤلَه، وجلب المنافع له، ودفع المضار عنه، فإن الفقر إليه من هذا الوجه هو أظهر في الابتداء، ولكن الإنسان يجد نفسه إلىٰ أي موجود توجه بقلبه وذكره، لا يجد الطمأنينة ولا السكينة حتىٰ يذكر الله ويُوجِّهَ قلبه إليه، فإنه يجد الطمأنينة والسكينة فلا يبقىٰ عنده منازعة إلىٰ شيء آخر».

والذي يُصلح القلوب ويزكِّيها ويطهِّرها هو توحيد الله وعبادته، ومتىٰ تزكَّت القلوب والجوارح بذلك سعدت في الدُّنيا وفي البرزخ والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٥، ١٠٦].

قال العلامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنه تعالىٰ كما أنه له الكمال كله، وله التفضيل علىٰ عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به؛ لأنه متضمن للتأله لله في حبه وخوفه ورجائه، والإنابة إليه، في عبوديته، والإنابة إليه في تحصيل مطالب عباده.

وذلك الذي يُصلح القلوب ويزكيها ويطهِّرها، دون الشرك به في شيء من العبادة. فإن الله بريء منه، وليس لله فيه شيء، فهو أغنىٰ الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مُشْقٍ للنفوس غاية الشقاء».

وقرَّة العين وسعادة القلب بعبوديَّة الله هو نعيم معجَّل من نعيم الجنَّة، فمن قرَّت عينه بالله فذلك السَّعيد، ومن سعد بطاعة الله فذلك الذي وجد حلاوة الإيمان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنه ليس في الدنيا من اللذات أعظم من لذة العلم بالله وذكره وعبادته؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «**حُبِّب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة**»، هكذا لفظ الحديث لم يقل: حبب إلي ثلاث؛ فإن المحبب إليه من الدنيا اثنان، وجعلت قرة عينه في الصلاة، فهي أعظم من ذينك، ولم يجعلها من الدنيا، وفي الحديث: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**»، قيل: وما رياض الجنة؟ قال: «**حلق الذكر**»».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٨٤٧، ٨٤٨).

(٢) الصفدية (٢/ ٢٧٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «محبة الله تعالىٰ ومعرفته ودوام ذكره، والسكون إليه والطمأنينة إليه وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة، بحيث يكون هو وحده المستولي علىٰ هموم العبد وعزماته وإرادته؛ هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرة عين المحبين وحياة العارفين. وإنما تقر أعين الناس بهم علىٰ حسب قرة أعينهم بالله عَزَّوَجَلَّ، فمن قَرَّتْ عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطَّعت نفسه علىٰ الدنيا حسرات».

فالفرح بالله والأنس بذكره والبهجة بالرِّقّ والعبوديَّة له والشُّغل بطاعته؛ هو السَّعادة الحقيقيَّة، فمن عاش كذلك فما أهنأ عيشه وأنعم باله وأسعد قلبه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ حقيقة العبد قلبه وروحه، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدُّنيا إلَّا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولابدَّ لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبَّتها وعبوديَّتها له، ورضاه وإكرامه لها».

مصدر السَّعادة هو في اتِّباع القرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧]، فعقائده وأحكامه وأخلاقه وآدابه وتوجيهاته تدعو إلىٰ الخير، وإلىٰ الرَّحمة، وإلىٰ اليسر، وتدفع العنت، وتنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، وتأمر بالعدل والإحسان، وتهدي في كل ألفاظها ومعانيها إلىٰ الحقّ وصراط مستقيم.

ومتىٰ انصرف المسلم إلىٰ عبودية الله، وكانت مساعيه في ذلك؛ تولاه الله،

---

(١) الوابل الصَّيِّب (ص١١١).

(٢) طريق الهجرتين (١/ ١٢٠).

وملأ قلبه من الأنس به والفرح بعبوديَّته، ومن كان كذلك أعانه الله علىٰ عبوديَّته ويسَّر له ذلك، وملأ قلبه بالسَّعادة بالله.

وليست السَّعادة كما يتوهَّم الجاهلون في التَّشبُّه بالكافرين ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، الذين أسخطوا الله بكفرهم وشركهم، وعاثوا في الأرض فسادًا انسياقًا وراء شهواتهم المحرَّمة.

ضلَّ الكافرون عن مقصود ما خُلقوا له، وصاروا إلىٰ الفناء بنعيم الدُّنيا عن توحيد الله الموجب لسعادة الدُّنيا والبرزخ والآخرة.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الأمور التي يحصل بها الرقي الحقيقي والسَّعادة والفلاح؛ الاعتقادات الصَّحيحة والأخلاق المزكية للقلوب، المطهِّرة للأرواح، الباعثة للهمم والعزائم إلىٰ كل خير، والأعمال الصَّالحة النَّافعة في الدِّين والدُّنيا، وهذه الأمور متلازمة لا يتم بعضها إلا ببعض، وبتمامها السَّعادة والفلاح».

السَّعيد هو التَّقي، فالتَّقوىٰ ثمراتها رضا الرَّبّ، ومحبَّته، ومحبَّة الخلق تبعًا لذلك، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، ومن ثمرات التَّقوىٰ كفاية الله وولايته التي تستجلب بها المسرَّات والخيرات، وتُدفع بها الشُّرور والسيئات.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

---

(١) مجموع مؤلَّفات العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي (٦/ ٣٢٥).

وقال ابن عون رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ المتَّقي ليست عليه وَحْشَةٌ».

وكما يتزوَّد المسلم من التَّقوىٰ، فإنَّه يتزوَّد من الدُّنيا من وجوهها المباحة باقتصاد بحيث لا تلهيه عن ذكر الله ولا تمنعه من عبوديَّة الله، ولا يطلب الرِّزق من الوجوه المحرَّمة، ولا يلتهي بمتاع الدُّنيا عن عبوديَّة الله، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون: ٩]. فالتزوَّد من الدُّنيا يكون بالتَّقوىٰ ولتقوىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «جمع النبي ﷺ في قوله: «**فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**» بين مصالح الدنيا والآخرة فنعيمها ولذتها إنما ينال بتقوىٰ الله، وراحة القلب والبدن وترك الاهتمام والحرص الشديد والتعب والعناء والكدِّ والشقاء في طلب الدنيا إنما ينال بالإجمال في الطلب».

فاحرص أيُّها المسلم علىٰ أمَّهات الفضائل التي تسعدك، وتكون سببًا في تكميلك بالصِّفات الحميدة، وتكون بذلك علىٰ علم واعتقاد صحيح وعمل صالح وخلق حسن.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «كمال النفس المطلوب ما تضمَّن أمرين: أحدهما: أن يصير هيئة راسخة وصفة لازمة لها، الثاني: أن يكون صفة كمال في

---

(١) الفوائد (ص٨١، ٨٢).

(٢) الفوائد (ص٧٤، ٧٥).

(٣) الفوائد (ص١١٩ - ١٢١).

نفسه، فإذا لم يكن كذلك لم يكن كمالًا، فلا يليق بمن يسعىٰ في كمال نفسه المنافسة عليه، ولا الأسف علىٰ فوته.

وذلك ليس إلا معرفة بارئها وفاطرها ومعبودها وإلهها الحق الذي لا صلاح لها ولا نعيم ولا لذة إلا بمعرفته وإرادة وجهه وسلوك الطريق الموصلة إليه وإلىٰ رضاه وكرامته، وأن تعتاد ذلك، فيصير لها هيئة راسخة لازمة، وما عدا ذلك من العلوم والإرادات والأعمال فهي بين ما لا ينفعها ولا يكمِّلها وما يعود بضررها ونقصها وألمها، ولا سيما إذا صار هيئة راسخة لها، فإنها تعذب وتتألم به بحسب لزومه لها.

وأما الفضائل المنفصلة عنها كالملابس والمراكب والمساكن والجاه والمال؛ فتلك في الحقيقة عوار أعيرتها مدة، ثم يرجع فيها المعير فتتألم وتتعذب برجوعه فيها بحسب تعلقها بها، ولا سيما إذا كانت هي غاية كمالها، فإذا سلبتها أحضرت أعظم النقص والألم والحسرة.

فليتدبر من يريد سعادة نفسه ولذتها هذه النكتة، فأكثر هذا الخلق إنما يسعون في حرمان نفوسهم وألمها وحسرتها ونقصها من حيث يظنون أنهم يريدون سعادتها ونعيمها، فلذتها بحسب ما حصل لها من تلك المعرفة والمحبة والسلوك وألمها وحسرتها بحسب ما فاتها من ذلك.

ومتىٰ عدم ذلك وخلا منه لم يبق فيه إلا القوىٰ البدنية النفسانية التي بها يأكل ويشرب وينكح ويغضب وينال سائر لذاته ومرافق حياته، ولا يلحقه من جهتها شرف ولا فضيلة بل خساسة ومنقصة؛ إذا كان إنما يناسب بتلك القوىٰ

البهائم، ويتَّصل بجنسها ويدخل في جملتها، ويصير كأحدها، وربما زادت في تناولها عليه، واختصَّت دونه بسلامة عاقبتها والأمن من جلب الضرر عليها، فكمال تشاركك فيه البهائم، وتزيد عليك وتختص عنك فيه بسلامة العاقبة؛ حقيق أن تهجره إلىٰ الكمال الحقيقيِّ الذي لا كمال سواه».

والرُّسل جميعًا عليهم الصلاة والسَّلام بُعثوا لهداية الخلق إلىٰ أسباب السَّعادة والعلوم والاعتقادات الصَّحيحة والأعمال الصَّالحة، وعلىٰ هذا اتَّفقت الشَّرائع.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هذه الأصول الثلاثة: وهي الإيمان بالله، وباليوم الآخر، والعمل الصالح، هي الموجبة للسعادة في كل أمة».

وقال شيخ الإسلام أيضًا(٢): «جاءت الكتب الإلهية بخطاب الناس بالمعقولات الصحيحة الفطرية، فإنَّ الرُّسل بُعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها، لا بتغيير الفطرة وتحويلها.

والنَّفس إنَّما تنال كمالها بسعادتها ونجاتها بالفطرة المكمّلة بالشِّرعة المنزلة».

ومتىٰ ما أراد المسلم السَّعادة وطيب الحياة ولذَّة العيش فليجاهد نفسه علىٰ طاعة الله وعبوديَّته، قال تعالىٰ: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥]، وأخذ النَّفس

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (١/ ٢٢٠).

(٢) الصفدية (٢/ ١٥٧).

بعبوديَّة الله طمأنينة لها في الفرح بالله في عبوديَّته وطاعته وقرَّة العين برضاه، وذلك من أسباب دحر الشَّيطان وجنوده والنَّفس الأمَّارة بالسُّوء.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ألقىٰ الله سبحانه العداوة بين الشيطان وبين الملَك، والعداوة بين العقل وبين الهوىٰ، والعداوة بين النفس الأمَّارة وبين القلب، وابتلىٰ العبد بذلك، وجمع له بين هؤلاء، وأمد كل حزب بجنود وأعوان، فلا تزال الحرب سجالًا ودولًا بين الفريقين إلىٰ أن يستولي أحدهما علىٰ الآخر، ويكون الآخر مقهورًا معه.

فإذا كانت النوبة للقلب والعقل والملك؛ فهنالك السرور والنعيم واللذة والبهجة والفرح وقرة العين وطيب الحياة وانشراح الصدر والفوز بالغنائم، وإذا كانت النوبة للنفس والهوىٰ والشيطان؛ فهنالك الغموم والهموم والأحزان وأنواع المكاره وضيق الصدر وحبس الملِك؛ فما ظنك بملك استولىٰ عليه عدوه، فأنزله عن سرير ملكه وأسره وحبسه، وحال بينه وبين خزائنه وذخائره وخدمه، وصيرها له، ومع هذا فلا يتحرك لطلب ثأره، ولا يستغيث بمن يغيثه، ولا يستنجد بمن يُنجده؟ وفوق هذا الملك ملك قاهر لا يقهر وغالب لا يغلب وعزيز لا يذل فأرسل إليه: إن استنصرتني نصرتك وإن استغثت بي أغثتك، وإن التجأت إلي أخذت بثأرك، وإن هربت إلي وأويت إلي سلطتك علىٰ عدوك، وجعلته تحت أسرك».

والله عَزَّوَجَلَّ وعد عباده بالحياة الطيِّبة إذا آمنوا به وعملوا صالحًا، قال تعالىٰ:

---

(١) الفوائد (ص٨٣).

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحًا أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت همًّا واحدًا في مرضاة الله ولم شعث قلبه بالإقبال علىٰ الله، واجتمعت إراداته وأفكاره التي كانت منقسمة - بكل واد منها شعبة - علىٰ الله، فصار ذكر محبوبه الأعلىٰ وحبه والشوق إلىٰ لقائه، والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإراداته وقصوده، بل خطرات قلبه، فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سَمِع فبه يسمع وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش وبه يمشي وبه يتحرك وبه يسكن وبه يحيا وبه يموت وبه يبعث».

ولا يتخلف شيء من وعد الله لعباده المؤمنين من السَّعادة والنَّصر والرِّزق والكفاية والتأييد، فالله صادق الوعد، وقد يبتلي عباده بأنواع من الشَّدائد هي من ضرورة التَّكليف والابتلاء ليستخرج بها عبوديَّتهم في الضرَّاء، كما أنَّه يُنعم علىٰ عباده بأنواع المسرَّات ليستخرج بها عبوديَّتهم في السرَّاء، قال تعالىٰ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وواجب المسلم إذا أصابته ضرَّاء أن يسعىٰ في تجديد إيمانه وزيادته، فلعله مقصِّر في بعض ما يجب عليه أو يُنهىٰ عنه، فيتدارك نفسه، ويقبل علىٰ ربّه، فالله يستعتب عباده رحمةً بهم ليفرُّوا إليه.

---

(١) الجواب الكافي (ص٤٢٩، ٤٣٠).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الله سبحانه إنما ضمن نصر دينه وحزبه وأوليائه القائمين بدينه علمًا وعملًا، لم يضمن نصر الباطل - ولو اعتقد صاحبه أنه محقٌّ -، وكذلك العزة والعلو إنما هما لأهل الإيمان الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو علم وعمل وحال.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩] ، فللعبد من العلو بحسب ما معه من الإيمان، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه، فإذا فاته حظ من العلو والعزة ففي مقابلة ما فاته من حقائق الإيمان علمًا وعملًا ظاهرًا وباطنًا.

وكذلك الدفع عن العبد هو بحسب إيمانه، قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج:٣٨] فإذا ضعف الدفع عنه فهو من نقص إيمانه. وكذلك الكفاية والحَسْبُ هي بقدر الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤] ، أي حسبك الله وحَسْب أتباعك؛ أي كافيك وكافيهم، فكفايته لهم بحسب اتباعهم لرسوله ﷺ وانقيادهم له وطاعتهم له، فما نقص من الإيمان عاد بنقصان ذلك كله».

وكل مخلوق يعلم أن سعادة الإنسان الحقيقية بكماله، وكماله يكون بعلوم صحيحة وأعمال صالحة، وسعادة كل مخلوق وكماله يتحقَّقان بالاستقامة علىٰ أمر الله.

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٩١٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قالوا: وقد عُلم أن الكمال الإنساني في ثلاثة أمور: علوم يعرفها، وأعمال يعمل بها، وأحوال ترتب له على علومه وأعماله. وأفضل العلم والعمل والحال العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والعمل بمرضاته، وانجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء، فهذا أشرف ما في الدنيا وجزاؤه أشرف ما في الآخرة وأجل المقاصد معرفة الله عَزَّوَجَلَّ ومحبته، والأنس بقربه، والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره، وهذا أجل سعادة الدنيا والآخرة، وهذا هو الغاية التي تطلب لذاتها.

وإنما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة إذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل الآخرة وإلا فهو في الدنيا وإن شعر بذلك بعض الشعور فليس شعوره به كاملًا. للمعارضات التي عليه والمحن التي امتحن بها، وإلا فليست السعادة في الحقيقة سوى ذلك.

وكل العلوم والمعارف تبع لهذه المعرفة مرادة لأجلها، وتفاوت العلوم في فضلها بحسب قرب إفضائها إلى هذه المعرفة وبعدها، فكل علم كان أقرب إفضاءً إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته فهو أعلى مما دونه. وكذلك حال القلب، فكل حال كان أدنى إلى المقصود الذي خلق له فهو أشرف مما دونه. وكذلك الأعمال، فكل عمل كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره، ولهذا كانت الصلاة والجهاد من أفضل الأعمال أو أفضلها؛ لقرب إفضائها إلى هذا المقصود».

---

(١) عُدَّةُ الصابرين وذخيرة الشَّاكرين (ص٢١٥، ٢١٦).

والعلوم والاعتقادات الصَّحيحة والأعمال الصَّالحة مصدرها الاهتداء بكلام الله ووحيه، فالله خلق الخلق وهداهم بوحيه وكلامه إلىٰ أسباب سعادتهم وصلاحهم وكمالهم.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فالقرآن يهدي إلىٰ صحيح الاعتقادات واستقامة الأقوال والأعمال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «السَّعيد من اعتصم بكتاب الله، واتَّبع الرَّسول ﷺ في سنَّته وشريعته، والمهتدي بمناره المقتفي لآثاره هو أفضل الخلق في دنياه وآخرته».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «عبادة الله وحده ومحبَّته وتعظيمه هو من أعظم كمال النَّفس وسعادتها، لا أنَّ سعادتها في مجرَّد العلم الخالي عن حبّ وعبادة وتألُّه».

وقال شيخ الإسلام[(٣)]: «فكمال الإنسان وصلاحه وسعادته في أن يعبد الله وحده لا شريك له، وهذه ملَّة إبراهيم التي قال فيها: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢]».

وبالعلم بالله وعبوديَّته يطمئن القلب، وتسكن النَّفس، ويزكو العقل،

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ٢٤٥).

(٢) الصفدية (٢/ ٢٣٤).

(٣) الصفدية (٢/ ٢٤٢).

وتستنير البصيرة[1]، وذلك هو حقيقة السَّعادة، وهو الموجب لسعادة الآخرة بالنَّجاة من النَّار.

سعادة الدَّارين ونعيمهما في عبوديَّة الله، والتمتُّع بما أحلَّ الله من زينة الدُّنيا، واتِّخاذ ذلك سبيلًا لشكر الله وطاعته وعبوديَّته، ومعرفة الهدىٰ الذي تتَّخذه سبيلًا إلىٰ الجنَّة والعمل به هو السَّعادة حقًّا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «النعيم التام هو في الدين الحق علمًا وعملًا، فأهله هم أصحاب النعيم الكامل، كما أخبر الله تعالىٰ بذلك في كتابه في غير موضع؛ كقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾، وقوله عن المتقين المهتدين بالكتاب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾، وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣] ، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨] ، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، والقرآن مملوء من هذا.

فوعْدُ أهل الهدىٰ والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة، ووعيد أهل الضلال والفجور بالشقاء في الدار الآخرة؛ مما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم».

وإنَّما يسعد المؤمنون أفرادًا وأممًا ويُنصرون إذا تولَّوا الله وأطاعوه،

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٤١٠).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٩٠٥، ٩٠٦).

فيتولاهم الله نصرًا وعزًّا ورزقًا.

قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المقصود من هذا التهييج طلب العزة من جناب الله، والالتجاء إلىٰ عبوديَّته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين، الذين لهم النُّصرة في هذه الحياة الدُّنيا ويوم يقوم الأشهاد».

وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي: من كان يريد العِزَّة فليطلبها بطاعة الله من الكلم الطيب والعمل الصَّالح».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المؤمن عزيز عال مؤيَّد منصور مكفي مدفوع عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته ظاهرًا وباطنًا وقد قال تعالىٰ للمؤمنين: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد:٣٥] .

فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم التي هي جند من جنود الله، يحفظهم بها، ولا يُفْرِدها عنهم ويقتطعها عنهم، فيبطلها عليهم، كما يَتِرُ الكافرين والمنافقين أعمالهم إذ كانت لغيره ولم تكن موافقة لأمره».

وإذا ضعف إيمان المسلمين أفرادًا وأممًا، وصاروا غثاءً؛ تسلَّط عليهم

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٩١٦).

(٢) إغاثة اللَّهفان (٢/ ٩١٣، ٩١٤).

الأعداء، واستولوا علىٰ ديارهم ونهبوا ثرواتهم، وحكموا فيهم بملَّتهم وشرعهم، وفي ذلك هوانهم وفساد دينهم ودنياهم.

عن ثوبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يوشك أن تتداعىٰ عليكم الأمم كما تتداعىٰ الأكلة إلىٰ قصعتها**، قالوا: أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟! قال: **لا، أنتم كثير، ولكنَّكم غثاء كغثاء السيل**»، رواه أحمد.

فواجب الولاة والعلماء وعموم المسلمين النَّاصحين؛ الأخذ والقيام بأسباب قوَّة الإسلام والمسلمين، بتقوية إسلامهم وإحياء شرائع وشعار الإسلام، لتحيا الأمَّة وتسعد بعزّ الإسلام.

وسعادة المجتمعات والشُّعوب والأفراد بالاستقامة علىٰ شرع الله وأحكامه، ومتىٰ ما أقام المسلمون شرع الله عزُّوا ونُصروا وسعدوا في الدُّنيا والآخرة.

قال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥].

فتوحيد الله وتحقيقه بالإيمان والعمل الصَّالح هو سبب التَّمكين في الأرض، وموالاة الله للموحِّدين هو السَّعادة الحقيقيَّة، فبها الهداية والعزَّة والنَّصر والتَّمكين والرِّزق، والسَّلامة من الشُّرور، والفوز بالدُّنيا والآخرة.

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُٱللَّهُ[١]: «هذا من أوعاده الصادقة، التي شوهد تأويلها ومخبرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٠٣).

الصالح من هذه الأمة أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكِّن لهم دينهم الذي ارتضىٰ لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة».

وشرائع الإسلام وشعائره وعباداته وأحكامه كلها عدل، وهي رحمة للمخلوقين وللمجتمعات، والعنت والمشقَّة والشَّقاء في مضادَّة رحمة الله، قال تعالىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الشريعة مبناها وأساسها علىٰ الحِكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها، ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلىٰ الجور، وعن الرحمة إلىٰ ضدها، وعن المصلحة إلىٰ المفسدة، وعن الحكمة إلىٰ العبث؛ فليست من الشريعة وإن أُدخلت فيها بالتأويل.

فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلىٰ صدق رسوله ﷺ أتمَّ دلالة وأصدقها، وهي نوره الذي به أبصر المبصرون وهداه الذي به اهتدىٰ المهتدون، وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام علىٰ سواء السبيل؛ فهي قرة العيون وحياة القلوب ولذة الأرواح، فهي بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة، وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٤٢٩).

وحاصل بها، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها».

فاتِّباع القرآن نور في القلب، وهداية في البصيرة، وأخذ بالعلوم والاعتقادات الصَّحيحة والأعمال الصَّالحة، فينال النَّاس بذلك رحمة الله وسعادة الدُّنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

قال العلامة العزّ بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «السَّعادة كلّ السَّعادة في اتِّباع القرآن والتمسُّك بشريعة الإسلام وسنَّة النبيّ عليه الصلاة والسلام، ومن خالف ذلك فقد بَعُدَ من ذلك بقدر ما خالف منه».

السُّعداء حقًّا هم الذين تولَّاهم الله وأحاطهم برحمته وفضله ومعونته وولايته، وهذا يتم للمؤمنين إذا هم أطاعوا الله واتقوه.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «طوبىٰ لمن كان له حظ وافر من رحمة الله.

ويا سعادة من اغتبط بكرم الله وسلك كل سبيل ووسيلة توصله إلىٰ الله علمًا وعملًا، وإرشادًا ونصحًا، ودعوة وإحسانًا إلىٰ عباد الله، فإنه تعالىٰ لما ذكر أن رحمته وسعت كل شيء ذكر أهل الرحمة الخاصة المتصلة بالسعادة الأبدية والنعيم السرمدي، فقال﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

---

(١) قواعد الأحكام (٢/ ١١٣).

(٢) الرِّياض الناضرة (ص٦١).

وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، فذكر تعالىٰ الطرق العظيمة الكلية التي تنال بها رحمة الله والفوز بثوابه ورضوانه وهي الإيمان والتقوىٰ، واتباع الرسول ﷺ وطاعة الله عَزَّوَجَلَّ والرسول ﷺ، وتفاصيل هذه الأمور هي القيام بجميع الدين؛ أصوله وفروعه، وأعمال القلوب والجوارح وقول اللسان، فمن لم يقم بهذه الأصول لن يكون له نصيب من هذه الرحمة الخاصة المتصلة بسعادة الأبد.

وعلىٰ قدر اتِّصافه وقيامه بهذه الأمور يكون له نصيب من هذه الرحمة، فكما أنه تعالىٰ واسع الرحمة فإنه شامل الحكمة، ومن حكمته أن الأمور متعلقة بأسبابها وطرقها والأسباب ومسبباتها كلها من رحمة الله».

وإذا عرف المسلم حقيقة الحياة ومعنىٰ خلقه فيها وسعىٰ لتحقيق عبوديَّته لله وحده لا شريك له؛ أدرك سعادة الدور الثلاثة: الدُّنيا، والبرزخ، والآخرة.

وإذا جهل الإنسان حقيقة الدُّنيا أو غفل عن حقيقتها؛ عاش عيشة البهائم يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام، والنار مثوًىٰ له، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد: ١٢]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥﴾ [الأنفال: ٥٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «يغلط الجفاة الأجلاف في مسمىٰ الحياة الطيبة حيث يظنونها التنعُّم بأنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح، أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفنُّن بأنواع الشهوات، ولا ريب أن هذه لذة

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٩٥، ٩٦).

مشتركة بين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فمن لم يكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدوابُّ والأنعام؛ فذلك ممن يُنادىٰ من مكان بعيد».

السعداء والأشقياء تمايزا بالعبودية لله والشكر له، فالعبوديَّة لله وحده شكر لله، والشِّرك بالله كفر به.

قال تعالىٰ عن الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله».

فالدُّنيا تناول منها ما تدعو إليه الحاجة من مأكل وملبس وسكن ومركب من وجوهها المباحة من غير سرف، وبأداء حقّ الله في شكر نعمه كلّها.

ولا يكون متاع الدُّنيا عندك مقصودًا لذاته، فتفنىٰ بالوسيلة عن المقصود، بل اجعلها سببًا لبلوغك الدَّار الآخرة. وعبوديَّتك لله هي حقٌّ واجب عليك، أوجبه كمال الله الذي لا شريك له، وهو من شكر حقّه عليك حيث استخلفك في الأرض وأوجدك من العدم ورزقك أسباب العيش في الدُّنيا، فما خُلقت إلا لعبوديَّة الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ العبد فيه داعيان: داع يدعوه إلىٰ الدُّنيا وشهواتها ولذَّاتها، وداع يدعوه إلىٰ الله والدَّار الآخرة وما أعد فيها لأوليائه من

(١) عدة الصابرين (ص١٨٦).

(٢) عدَّة الصابرين (ص١٧٧).

النَّعيم المقيم، فعصيان داعي الشهوة والهوىٰ هو الصَّبر، وإجابة داعي الله والدَّار الآخرة هو الشُّكر».

تناول المباحات من متاع الدُّنيا باقتصاد لتتقوَّىٰ بها علىٰ طاعة الله وعبوديَّته، فتصير مباحاتك وعاداتك طاعات؛ قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

قال العلامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الترف هو الانغماس في نعيم الدنيا ولذَّاتها والانكباب عليها والتنوُّق في مآكلها ومشاربها ومراكبها، والإسراف في ذلك يحدث في الإنسان خلقًا خبيثًا يمنعه من سرعة الانقياد لأمر الله والاستجابة لداعي الله، وكما أنه ثابت واقع في أصل الدين فإنه واقع أيضًا في شرائعه وفروعه، فكم منع الترف من عبادات وكم فوَّت من قربات، وكم كان سببًا للوقوع في المحرمات! فإن الترف وكثرة الإرفاه تصيِّر الإنسان شبيهًا بالأنعام التي ليس لها هم إلا التمتع في الأكل والشرب، وكذلك يرهِّل البدن ويكسِّله ويثقِّله عن الطَّاعات، ويشغل القلب في مرادات النَّفس».

وعندما أقبلت الدُّنيا علىٰ الصَّحابة في عهد الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكثر المال، وزادت أسباب الرَّفاهية، حضَّ الفاروق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علىٰ الاقتصاد في العيش؛ لئلَّا يفنىٰ النَّاس بالترفُّه عن السَّعادة الحقيقيَّة، ولئلَّا تُثقلهم ملذَّات الدُّنيا عن الطَّاعات والجهاد في سبيل الله.

---

(١) المواهب الربَّانية من الآيات القرآنيَّة (ص٥٦، ٥٧).

المسلم في الدُّنيا في دار حبس، وهو حبس فسيح بكل أنواع الخيرات والملذَّات، وإنَّما هو محبوس عمَّا يضرُّه ولا ينفعه، ولم يجعله الله في حرج عمَّا ينفعه ويوجب سعادته.

فالإنسان محبوس عمَّا يُفسد عليه دينه وعقله وماله وعرضه ودمه، جعل الله له الدُّنيا حرثًا للآخرة.

فمن أخذ من الدُّنيا حلالها وأدَّىٰ حق الله في بدنه وماله؛ فهو في جنَّة معجَّلة، وسعادة هي خير أنواع السَّعادة، سعادة في طاعة الله، لا عن فخر ولا مخيلة ولا بطر، ولا أشر، ولا كفر.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الدُّنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر**»، رواه مسلم.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلىٰ غيره، وحبس لسانه عما لا يفيد وحبسه علىٰ ذكر الله، وما يزيد في إيمانه ومعرفته، وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها علىٰ الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبس حتىٰ يلقىٰ ربه، فيخلص من السجن إلىٰ أوسع فضاء وأطيبه، ومتىٰ لم يصبر علىٰ هذين الحبسين، وفرَّ منهما إلىٰ فضاء الشهوات؛ أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا، فكل خارج من

---

(١) الفوائد (ص٧٤).

الدنيا إما متخلِّص من الحبس، وإما ذاهب إلىٰ الحبس».

والكافر ومن تشبه به محبوس في أسر شهواته كالبهائم والأنعام، يتمتَّعون بما يحلّ ويحرم، ولا يؤدُّون حقّ الله بعبوديَّته ولا بشكر نعمه وأداء حقِّها، قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

والمشركون أبوا طاعة الله والانقياد لحكمه وأمره ونهيه؛ فكانوا بسبب ذلك عبيدًا لشهواتهم وأهوائهم، قال تعالىٰ: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، وهم في الواقع عبيد الشَّيطان.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هربوا من الرقّ الذي خُلقوا له ... وبُلوا برقّ النَّفس والشَّيطان

وإسلام المسلم وجهه لله، وخضوع قلبه وجوارحه له وحده لا شريك له هو الذي جعله يدخل سجن الدُّنيا بإرادته تألُّهًا لله وعبودية له مؤثرًا سعادة الدَّارين علىٰ مضرَّة متاع الدُّنيا ممَّا حرَّمه الله عَزَّوَجَلَّ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ادخل حبس التَّقوىٰ باختيارك أيَّامًا ليحصل لك الإطلاق علىٰ الدَّوام، ولا تؤثر إطلاق نفسك فيما تحبّ فإنَّه يؤثر حبس الأبد».

وما نهىٰ الله عباده عن شيء إلا لأنَّه مضرَّة لدينهم ودنياهم، قال تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٩٥).

ٱلطَّيِّبَٰتُۙ﴾ [المائدة: ٤].

والله عَزَّوَجَلَّ أنعم علىٰ أبينا آدم واصطفاه وأسكنه جنَّته، وأحلَّ له كل نعيم ومنعه فقط من شجرة واحدة، فغرَّه الشَّيطان بخلد وملك لا يبلىٰ، فأدرك من شرّ غرور الشَّيطان ما أضله، ثم تاب الله عليه وهدىٰ.

ومن عرف عدل الله وحكمته وصدق خبره، واتَّبع أمره واجتنب نهيه، واستقرأ أحكامه في شرعه؛ أيقن أنَّ الله الجواد الكريم لا يمنع عباده أسباب رزقه، ولا يحرّم عليهم إلَّا ما فيه مصلحة خلقه، وأنَّ خزائن الله تدرك بتوحيده وطاعته، وأنَّ شرعه يدرك به خيري الدُّنيا والآخرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ ما بعث الله به نبيه محمدًا ﷺ من الكتاب والحكمة، يجمع مصالح العباد في المعاش والمعاد علىٰ أكمل وجه».

وجزاء المخلصين المؤمنين الموحِّدين عاجل في الدُّنيا، وآجل يوم يقوم الحساب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «تعظيم جزاء المخلص، وأنه رزق عاجل، إما للقلب أو للبدن أو لهما، ورحمة مدخرة في خزائنه، فإن الله سبحانه يجزي العبد علىٰ ما عمل من خير في الدنيا ولا بد، ثم في الآخرة يوفيه أجره، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ﴾ [آل عمران:١٨٥] ، فما يحصل في الدنيا من الجزاء علىٰ الأعمال الصالحة؛ ليس جزاء توفية وإن كان نوع أجر كما قال

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٨٤٦).

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٥١٨ - ٥٢٠).

تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧] وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النحل:١٢٢] ، فأخبر سبحانه أنه آتىٰ خليله أجره في الدنيا من النعم التي أنعم بها عليه في نفسه وقلبه وولده وماله وحياته الطيبة، ولكن ليس ذلك أجر توفية.

وقد دلَّ القرآن في غير موضع علىٰ أن لكل من عمل خيرًا أجرًا يعجل له في الدنيا، ويكمل له أجره في الآخرة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل:٣٠] وفي الآية الأخرىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤١] وقال في هذه السورة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧] وقال فيها عن خليله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النحل:١٢٢] فقد تكرر هذا المعنىٰ في هذه السورة دون غيرها في أربعة مواضع لسرٍّ بديع، فإنها سورة النعم التي عدد الله سبحانه فيها أصول النعم وفروعها، فعرَّف عباده أن لهم عنده في الآخرة من النعم أضعاف هذه بما لا يدرك تفاوته، وأن هذه من بعض نعمه العاجلة عليهم، وأنهم إن أطاعوه زادهم إلىٰ هذه النعم نعمًا أخرىٰ، ثم في الآخرة يوفيهم أجور أعمالهم تمام التوفية.

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾ [هود:٣] ، فلهذا قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام»».

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢- ومن الأسباب التي تزيل الهم والغم والقلق: الإحسان إلىٰ الخلق بالقول والفعل، وأنواع المعروف، وكلها خير وإحسان، وبها يدفع الله عن البر والفاجر الهموم والغموم بحسبها، ولكن للمؤمن منها أكمل الحظ والنصيب، ويتميَّز بأن إحسانه صادر عن إخلاص واحتساب لثوابه، فيهون الله عليه بذل المعروف لما يرجوه من الخير، ويدفع عنه المكاره بإخلاصه واحتسابه، قال تعالىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

فأخبر تعالىٰ أن هذه الأمور كلها خير ممن صدرت منه، والخير يجلب الخير، ويدفع الشر. وأن المؤمن المحتسب يؤتيه الله أجرًا عظيمًا، ومن جملة الأجر العظيم: زوال الهم والغم والأكدار ونحوها(١).

الشَّرح:

الإحسان إلىٰ الخلق من أسباب السَّعادة؛ لأنَّ زكي النَّفس يحب الخير للنَّاس، ويرىٰ سعادته في نفع الخلق وإعانتهم علىٰ الخير.

ويرىٰ المحسن إحسان الله إليه بتيسيره لأسباب البرِّ والتَّقوىٰ ونفع النَّاس سواء بتعليمهم أو سدّ خلَّتهم، فهو شكور لربِّه الذي هيَّأ له أسباب الإحسان إلىٰ

(١) الوسائل المفيدة للحياة السعيدة (ص١٣، ١٤).

الخلق.

والمسلم يجد انشراحًا في الصَّدر وسعة في القلب وابتهاجًا للرُّوح بالإحسان إلىٰ الخلق وإعانتهم، فهذا مما فطر الله عباده عليه.

وقد ذكر الله ما يحصل للمحسنين من السَّعادة بالبذل والعطاء والإحسان إلىٰ الخلق، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قال تعالىٰ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، والثواب عند العظيم يكون عظيمًا».

ومن إحسان الله إلىٰ عباده أن رزقهم المال، وهداهم إلىٰ أسباب بذله وجهات ذلك، وسمَّىٰ ذلك إقراضًا، وهو المتفضِّل بالرِّزق حيث يُوقن المنفق في سبيل الله بالخُلف، وأنَّه لا يفوته ماله، بل يجد ربحه ونماءه وثوابه.

قال تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]، قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «هذا من كرم الله تعالىٰ حيث سمَّاه قرضًا، والمال ماله، والعبد عبده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافًا كثيرة، وهو الكريم الوهَّاب».

والمسلم بعبوديَّته لله عَزَّوَجَلَّ بأنواع طاعته يشري نفسه من النَّار.

ومن أجلّ وأفضل ما يشري به العبد نفسه من النَّار؛ توحيد الله والجهاد

---

(١) تفسير سورة البقرة (٣/ ٣٧٣).

(٢) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٨٨٨).

بالنَّفس والصدقة بالمال وعتق الرِّقاب، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

قال العلامة يحيىٰ بن محمد بن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّكم إذا آمنتم به، وأنَّه خلقكم لعبادته فقد اشتريتموها منه سبحانه شراءً عامًّا، وهو أنَّكم حررتموها من رقّ غيره من الشَّياطين».

وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال رسول الله** ﷺ: «**أيُّما رجل أعتق امْرأً مسلمًا؛ استنقذ الله بكل عضو منه عضوًا من النَّار**».

وهذا عتق خاصٌّ من العتق العام، وهو نوع منه فإنَّه من عبوديَّة الله.

والصَّدقة والإحسان وبذل المعروف إلىٰ النَّاس من أفضل أسباب السَّعادة وانشراح الصَّدر، فالمتصدِّق تزداد ثقته بربّه في الخلف، وقوَّة توكله هذه من أعظم أسباب السَّعادة، وهو من توحيد الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

والصدقة تزكي النفس من الشحّ، فينشرح صدر المتصدِّق؛ لأنَّ البخل ضيق في الصُّدور بسبب الحرص والشُّحّ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الإحسان إلىٰ الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال

---

(١) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٦/ ١٢٨).

(٢) زاد المعاد (ص١٨١).

والجاه والنفع بالبدن وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرًا وأطيبهم نفسًا وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرًا وأنكدهم عيشًا وأعظمهم همًّا وغمًّا. وقد ضرب رسول الله ﷺ في الصحيح مثلًا للبخيل والمتصدق: «**كمثل رجلين عليهما جُنَّتان من حديد، كلما همَّ المتصدق بصدقة اتسعت عليه وانبسطت حتىٰ يجر ثيابه ويعفي أثره، وكلما همَّ البخيل بالصدقة لزمت كل حلقة مكانها ولم تتسع عليه**»، فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدِّق وانفساح قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه».

وقال العلَّامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «في هذا الحديث من الفقه أن رسول الله - ﷺ - ضربه مثلًا للبخيل والمتصدق، في أن البخيل كلما قبض يده ضيق الله عليه، وملأ قلبه خوفًا من الفقر، ويأسًا من الخلف، وأن المتصدق كلما بسط يده بالخير بسط الله عليه فضله حتىٰ يخلف عليه أضعاف ما ينفق.

وقوله: «جنتان»؛ فإنه مثل شديد الموقع في موضعه؛ من حيث إنهما للمتصدق جنة من كل سوء، تقيه الآفات، وتحول بينه وبين مصارع السوء، وتصفو عليه حتىٰ تغطي أنامله، وتعفو آثاره، فلا يترك منه جزءًا إلا كانت حائلة بينه وبين ما يكره».

والبخل من أسباب ضيق الصَّدر؛ لأنَّه سوء ظنّ بالله، ومن اتِّباع الشَّيطان الذي يقطع النَّاس عن الخير والعمل الصَّالح وأسباب سعادتهم، ومن اتَّبع الله أغناه الله من الشحّ وأوسع عليه رزقه وأحسن ثوابه في الدُّنيا والآخرة، قال تعالىٰ

(١) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٦/ ٣٢٦).

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقد كان النبيُّ ﷺ يتعوَّذ من الجُبن والبخل، رواه البخاري من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال العلَّامة ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الشَّجاعة ملازمة للسَّخاء، قلَّ أن يوجد سخيٌّ إلا شجاع، أو شجاع إلَّا وهو سخيّ، والبخل ملازم للجبن، قلَّ أن يوجد جبان إلا وهو بخيل، ولا بخيل إلا وهو جبان، ولهذا قرن النبيُّ ﷺ بينهما حتىٰ تعوَّذ منهما».

والسَّخاء يأتي من حسن الظنّ بالله الذي يخلف مال الصَّدقة خيرًا، ويبارك فيها، وكل من كان بالله أعرف كان أحرىٰ به أن يكون سخيًّا في نفع الإسلام ومساعدة المحتاجين.

كان الليث بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو من سادات العلماء له مجلس لتعليم العلم، ومجلس لحوائج الناس[٢].

دين الإسلام وشرائعه وشعائره مبنيَّة علىٰ عبوديَّة الله وحده لا شريك له والإحسان إلىٰ الخلق، قال تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

---

(١) مراقي الجنان بالسخاء وقضاء حوائج الإخوان (ص٣١٢).

(٢) الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية (ص٨٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «التعظيم لأمر الله يكون بالخشوع والتواضع، وذلك أصل التقوىٰ والرحمة لعباد الله بالإحسان إليهم، وهذان هما حقيقة الصلاة والزكاة، فإن الصلاة متضمنة للخشوع لله والعبودية له، والتواضع له، والذل له، وذلك كله مضاد للخيلاء والفخر والكبر. والزكاة متضمنة لنفع الخلق والإحسان إليهم، وذلك مضاد للبخل».

ومن أفضل الصَّدقات ما عظم نفعها كالنَّفقة في الجهاد في سبيل الله، وفي الدَّعوة للإسلام.

وإذا أصابت المسلمين مسغبة عامَّة ومجاعة مهلكة في أحد نواحي الأرض كان في أموال المسلمين حقٌّ معلوم واجب سوىٰ الزَّكاة، يحيون بها نفوس المسلمين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وبذل المال في إحياء العلم من أولىٰ الصَّدقات؛ لأنَّ فيه حفظ الإسلام وشرائعه وعلومه، وبه يهتدي النَّاس لكل خير، وتُحفظ البلاد والعباد.

قال حِبَّان بن موسىٰ: عُوتِبَ ابن المبارك فيما يفرِّقُ من المال في البلدان فقال: إنِّي أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب للحديث، وحاجة النَّاس إليهم شديدة، وقد احتاجوا، فإنْ تركناهم ضاع عملهم، وإن أغنيناهم نشروا العلم، ولا أعلم بعد النبوَّة درجة أفضل من بثِّ العلم[٢].

والصَّدقة كما يرجو المسلم ثوابها فإنَّه يرجو تزكيتها للنَّفس من البخل

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٢٤٥).

(٢) مراقي الجنان بالسَّخاء وقضاء حوائج الإخوان (ص٢٧٥).

والشحّ؛ ففي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رجلًا قال لرسول الله ﷺ: أي الصَّدقة أعظم أجرًا؟ قال: «**أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح، تخشىٰ الفقر، وتأمل الغنىٰ**».

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُٱللَّهُ[١]: «أما قوله: «**أن تصدق وأنت صحيح**»، فإن المرض منذر بالموت. وقوله: «وأنت شحيح»؛ **يعني** - ﷺ - أن كل نفس علىٰ الإطلاق لا يزايلها شح، فإذا عصىٰ شحه ذلك مجاهدًا لنفسه؛ كان محسوبًا في جملة المجاهدين في سبيل الله».

والبر مما يزيد في العمر، والصَّدقة من أفضل أعمال البرِّ، عن سلمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يرد القضاء إلا الدُّعاء، ولا يزيد في العمر إلا البرّ**»، رواه التِّرمذي وقال: حديث حسن.

وقال أبو الفيض ذو النُّون بن إبراهيم المصري رَحِمَهُٱللَّهُ[٢]: «علامة سعادة العبد ثلاث: متىٰ ما زيد في عمره نقص من حرصه، ومتىٰ ما زيد في ماله زاد هو في سخائه وبذله، ومتىٰ ما زيد في قدره زاد هو في تواضعه. وعلامة الشقاء ثلاث: متىٰ ما زيد في عمره زيد في حرصه، ومتىٰ ما زيد في ماله زيد في بخله، ومتىٰ ما زيد في قدره زيد في تكبّره وتجبّره».

والصَّدقة حجاب من النَّار، لذلك قال النبيُّ ﷺ: «**اتَّقوا النَّار ولو بشقّ تمرة**»، متَّفق عليه.

---

(١) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٦/ ٤٥٧).

(٢) الجواهر المجموعة والنَّوادر المسموعة (ص٥٧).

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «في هذا الحديث أنَّ من أعظم المنجيات من النَّار الإحسان إلىٰ الخلق بالمال والأقوال، وأنَّ العبد لا ينبغي له أن يحتقر من المعروف ولو شيئًا قليلًا».

وأهوال يوم القيامة عظيمة، الإحسان إلىٰ الخلق وبذل المعروف والصدقة من أعظم أسباب السَّلامة والنَّجاة منها، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤﴾ [البلد: ١١-١٤].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّها عقبة شديدة، فاقتحموها بطاعة الله».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ [العقبة] مكان شاق كؤود، يقتحمه النَّاس حتىٰ يصلوا إلىٰ الجنَّة، واقتحامه بفعل هذه الأمور: الإيمان، وفكّ الرَّقبة، وإطعام في مسغبة، والتَّواصي بالصَّبر والمرحمة».

ومن أفضل الطَّاعات التي يُغتبط بها المسلم تلاوة القرآن آناء الليل والنَّهار والصَّدقة، قال النبيُّ ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن يتلوه آناء الليل وآناء النَّهار، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النَّهار**»، متَّفق عليه من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا.

وإذا تصدَّقت بصدقة جارية كان ذلك لك عمر ثانٍ، تجري لك حسناتك بعد موتك، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات ابن آدم**

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص٢٣٠).

(٢) التبيان في أيمان القرآن (ص٦٨).

(٣) التبيان في أيمان القرآن (ص٦٦).

انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»، رواه مسلم.

فالصَّدقة الجارية لا ينقطع ثوابها لأنَّ نفعها جار، والجزاء من جنس العمل، والله يجازي بالإحسان إحسانًا، فالمسلم إذا علم فضل استمرار ثواب الصَّدقة الجارية بعد موته بادر إلىٰ ما ينفعه بعد موته.

والعلم النَّافع يحفظ الله به الدِّين ويهدي به المسلمين، ويكون سببًا في الأعمال الصَّالحة التي يهتدي بها الخلق، ويكون ذلك سببًا لصلاح المجتمعات وسعادة المسلمين.

والولد الصَّالح من كسب أبيه فتكتب له حسناته، أفادنا بذلك العلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ استدلالًا بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

والمسلمون أمة واحدة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وهم جسد واحد، وكلنا في هذه الدُّنيا علىٰ جناح سفر للآخرة، وإعانة الخلق في سفرهم هو من التعاون علىٰ البرِّ والتَّقوىٰ.

قال العلَّامة موسىٰ بن أحمد الحجاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الدِّينُ معناه السَّفَرُ إلىٰ الله تعالىٰ، ومن أركان السَّفر حسن الصُّحبةِ في منازل السَّفر مع المسافرين، والخلق كلُّهم مسافرون يسير بهم العمر سيرَ السَّفينة براكبها.

---

(١) شرح منظومة الآداب الشَّرعيَّة (ص٢٦٠، ٢٦١).

وأقلُّ درجات حُسْنِ الصُّحْبَة كَفُّ الأذىٰ عنهم، قال رسول الله ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه**».

وفوق ذلك أن ينفعهم، ويُحْسِنَ إليهم، وفوق ذلك أن يحتمل الأذىٰ منهم، ويُحْسِن مع ذلك إليهم، وهذه درجة الصِّدِّيقين».

ورعاية الضُّعفاء والرَّحمة بهم والشَّفقة لهم وكفاية حاجاتهم والنَّفقة عليهم؛ من أسباب تولِّي الله لك رزقًا ونصرًا، فكما قمت بحفظ خلق الله يتولَّىٰ الله حفظك، فإنَّ الله يجازي بالإحسان إحسانًا، قال النبي ﷺ: «**وهل تنصرون وترزقون إلَّا بضعفائكم**»، رواه البخاري.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد جعل أرزاق هؤلاء العاجزين علىٰ يد القادرين، وأعان القادرين علىٰ ذلك، وخصوصًا من قويت ثقتهم بالله، واطمأنت نفوسهم لثوابه، فإن الله يفتح لهؤلاء من أسباب النصر والرزق ما لم يكن لهم ببال، ولا دار لهم في خيال.

فكم من إنسان كان رزقه مقترًا، فلما كثرت عائلته والمتعلقون به وسَّع الله الرزق».

ورعاية الضُّعفاء من الأيتام والأرامل كالجهاد في سبيل الله ثوابًا؛ فقد روىٰ البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**السَّاعي علىٰ الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يصوم النَّهار ويقوم اللَّيل**».

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص٢١٧).

قال ابن بطَّال رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ينبغي لكل مؤمن أن يحرص علىٰ هذه التِّجارة التي لا تبور، ويسعىٰ علىٰ أرملة أو مسكين لوجه الله تعالىٰ فيربح في تجارته درجات المجاهدين والصَّائمين والقائمين من غير تعب ولا نصب، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

والصَّدقة تحفظ بدنك، فإنَّ الصَّدقة تقي مصارع السُّوء، كما قال النبيُّ ﷺ.

والصَّدقة من أسباب دعاء الملائكة لك بالخير، والبخل من أسباب دعائها عليك، فإنَّه ما من يوم يصبح فيه المرء، إلا وملكان يدعوان: «**اللَّهمَّ أعط منفقًا خلفًا، وأعط ممسكًا تلفًا**»، رواه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والصَّدقة تحفظ المال من الآفات، وتبارك فيه، وتنمِّيه، قال النَّبي ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال**»، رواه مسلم.

وزيادة المال نوعان: زيادة الثَّواب، قال تعالىٰ في زيادة ثواب المتصدِّق: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وزيادة حسيَّة للمال من عدَّة أوجه كما قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين:

منها: أنَّ الله قد يفتح للإنسان باب رزق لم يخطر له علىٰ بال، فيزداد ماله.

ومنها: حفظ المال من الآفات.

ومنها: البركة في الإنفاق بحيث تحصل حاجاته بالنَّفقة القليلة(٢).

فالإحسان إلىٰ الخلق يأتي من سخاء النُّفوس، ومن قوَّة إيمانها، فتحبّ

---

(١) شرح البخاري (٩/ ٢١٨).

(٢) تفسير سورة البقرة (٣/ ٣٤٩).

للنَّاس ما تحبُّ لنفسها، ومن قوَّة توكُّلها علىٰ الله في خُلفه، ومن احتساب الثَّواب من الله في الإحسان، ومن رجاء عون الله بإعانة الخلق، ومن شكر الله علىٰ نعمه، وأداء حقوق النِّعم.

والإحسان إلىٰ الخلق يكون أيضًا بكرم الجاه، بالشَّفاعة للمخلوقين، قال الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الشَّفاعة زكاة المروءات».

وكل ما تستطيعه أيُّها المسلم من نفع النَّاس فافعله، وكفَّ الأذىٰ عنهم صدقة منك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «المواساة للمؤمنين أنواع: مواساة بالمال ومواساة بالجاه، ومواساة بالبدن والخدمة، ومواساة بالنصيحة والإرشاد، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم، ومواساة بالتوجع لهم.

وعلىٰ قدر الإيمان تكون هذه المواساة، فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قوي قويت، وكان رسول الله ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كله، فلأتباعه من المواساة بحسب اتباعهم له».

والصَّدقة تكون بحسب يسار المتصدِّق، بعد كفاية من يمون، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدَّقت به علىٰ مسكين، ودينار أنفقته علىٰ أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته علىٰ أهلك»، رواه مسلم.

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٢٠٦).

(٢) الفوائد (ص ٢٥٠).

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، قال العلَّامة عبد الرَّحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أمرهم أن ينفقوا العفو، وهو المتيسِّر من أموالهم، الذي لا تتعلَّق به حاجتهم وضرورتهم، وهذا يرجع إلىٰ كل أحد بحسبه».

ومن تصدَّق بما أمكنه فلا يجوز إحراجه بالإلحاف بالمسألة، عن معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُلْحفوا في المسألة، فوالله لا يسألني أحد منكم شيئًا فتُخْرج له مسألته مني شيئًا وأنا له كاره، فيبارك له فيما أعطيته**»، رواه مسلم.

ومن لم يكن عنده ما يعطي الفقراء؛ فإنَّه يتلطَّف لهم بالعبارة، لجبر خواطرهم، والإحسان بالقول صدقة ومواساة.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨].

قال العلامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: تعرض عن إعطائهم حاضرًا، ولكنك ترجو فيما بعد ذلك تيسير الأمر من الله، ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: لطيفًا برفق ووعد بالجميل عند الوجود، واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، لينقلبوا عنك مطمئنة قلوبهم، عاذرين راجين، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وهذا من لطف الله بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه؛ لأن انتظار

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٨٩، ٩٠).

(٢) تيسير اللَّطيف المنَّان (ص٥٨).

ذلك عبادة، وسبب لحصوله، فإن الله عند ظن عبده، وكذلك وعدهم أن يعطوهم إذا وجدوا عبادة حاضرة لمن وعدوا، لأن الهم بفعل الخير والحسنة خير، ولهذا ينبغي للعبد أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، وينوي فعل ما لم يقدر عليه إذا قدر؛ ليثاب علىٰ ذلك، ولعل الله ييسره له».

وترىٰ نضرة النَّعيم في وجه المحسن إلىٰ نفسه بأنواع البرّ، وإلىٰ النَّاس بسلامة قلبه من الغشّ لهم وظلمهم وأذيَّتهم، والمحسن للخلق بأنواع النَّفع الدِّيني والدُّنيويّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ ما في القلب من النُّور والظُّلْمَة والخير والشرّ؛ يسري كثيرًا إلىٰ الوجه والعين، وهما أعظم الأشياء ارتباطًا بالقلب».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الحسن والجمال الذي يكون عن الأعمال الصَّالحة في القلب يسري إلىٰ الوجه، كما تقدم. ثم إنَّ ذلك يقوىٰ بقوَّة الأعمال الصَّالحة والأعمال الفاسدة، فكلَّما كثر البرّ والتَّقوىٰ قوي الحسن والجمال، وكلَّما قوي الإثم والعدوان قوي القبح والشّيْن».

ومن أعظم الإحسان إلىٰ الخلق تطهير قلبك من الغلِّ والغشِّ لهم، قال النبيّ ﷺ: «**ثلاث لا يغلُّ عليهنَّ قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين**»، رواه أحمد وصحَّحه ابن حبَّان.

وغلُّ القلوب سبب للشَّحناء وابتغاء الغوائل للمسلمين، وهذا من أعظم

---

(١) الاستقامة (ص٢٥٧، ٢٥٨).

(٢) الاستقامة (ص٢٦٤).

الغشّ لهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله: «ولزوم جماعتهم»؛ هذا أيضًا مما يطهِّر القلب من الغل والغش؛ فإن صاحبه للزومه جماعة المسلمين يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها، ويسوؤه ما يسوؤهم ويسره ما يسرهم، وهذا بخلاف من انحاز عنهم واشتغل بالطعن عليهم، والعيب والذم لهم؛ كفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم؛ فإن قلوبهم ممتلئة غلًّا وغشًّا، ولهذا تجد الرافضة أبعد الناس من الإخلاص وأغشهم للأئمة والأمة وأشدهم بعدًا عن جماعة المسلمين، فهؤلاء أشد الناس غلًّا وغشًّا بشهادة الرسول ﷺ والأمة عليهم، وشهادتهم علىٰ أنفسهم بذلك، فإنهم لا يكونون قط إلا أعوانًا وظهرًا علىٰ أهل الإسلام، فأي عدو قام للمسلمين كانوا أعوان ذلك العدو وبطانته، وهذا أمر قد شاهدته الأمة منهم، ومن لم يشاهده فقد سمع منه ما يصم الآذان ويُشْجِي القلوب».

الصَّدقة فكاكك من النَّار، فالصَّدقة تطفئ غضب الرَّبّ، وتقيك من النَّار.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن الصدقة تفدي العبد من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن ذنوبه وخطاياه تقتضي هلاكه، فتجئ الصدقة تفديه من العذاب وتفكه منه، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لما خطب النساء يوم العيد «**يا معشر النساء تصدقن ولو من حليكن؛ فإني رأيتكن أكثر أهل النار**»، وكأنه حثهن

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ١٩٩).

(٢) الوابل الصَّيِّب (ص٧١، ٧٢).

ورغبهن علىٰ ما يفدين به أنفسهن من النار، وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرىٰ إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرىٰ إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرىٰ إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»**».



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٣- ومن أسباب دفع القلق الناشئ عن توتر الأعصاب، واشتغال القلب ببعض المكدرات: الاشتغال بعمل من الأعمال أو علم من العلوم النافعة؛ فإنها تلهي القلب عن اشتغاله بذلك الأمر الذي أقلقه، وربما نسي بسبب ذلك الأسباب التي أوجبت له الهم والغم، ففرحت نفسه، وازداد نشاطه، وهذا السبب أيضًا مشترك بين المؤمن وغيره، ولكن المؤمن يمتاز بإيمانه وإخلاصه واحتسابه في اشتغاله بذلك العلم الذي يتعلمه أو يعلمه، ويعمل الخير الذي يعلمه، إن كان عبادة فهو عبادة، وإن كان شغلًا دنيويًّا أو عادةً دنيوية أصحبها النية الصالحة. وقصد الاستعانة بذلك علىٰ طاعة الله، فلذلك أثره الفعال في دفع الهم والغموم والأحزان[١].

الشَّرح:

الأنس بالله يدفع الهموم والغموم والأحزان، ومن أنس بالله فقد أدرك الخير كله وأتته الدُّنيا راغمة، وأدرك السَّعادة، وانقطع عن أسباب المكدِّرات، وكان في جنَّة معجَّلة، فرح بربِّه، قائم بمراضيه، تألهه لعبوديَّته خير له من الدُّنيا وما فيها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أجل المقاصد معرفة الله عَزَّوَجَلَّ ومحبته والأنس بقربه والشوق إلىٰ لقائه والتنعم بذكره، وهذا أجل سعادة الدنيا والآخرة، وهذا

---

(١) الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة (ص١٥).

(٢) عُدَّة الصَّابرين (ص٢١٥).

هو الغاية التي تطلب لذاتها، وإنما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة إذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل الآخرة، وإلا فهو في الدنيا وإن شعر بذلك بعض الشعور فليس شعوره به كاملًا؛ للمعارضات التي عليه والمحن التي امتحن بها، وإلا فليست السعادة الحقيقية سوىٰ ذلك».

والأنس بالله هو حقيقة الدِّين كلّه، فالله هو الذي تألهه القلوب محبَّة وتعظيمًا وإجلالًا، ومحبَّة الله هي أساس التألُّه لله وعبوديَّته، وهي السَّبب الباعث لإيثار محابّ الله ومراضيه علىٰ شهوات النُّفوس ومراداتها، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]، ومحبَّة الله إنَّما تُنال باتِّباع رسوله محمَّد ﷺ الذي بيَّن صراط الله ليسلكه المهتدون في سيرهم إلىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «محبة الله هي روح الأعمال، وجميع العبودية ناشئة من محبة الله، ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد، ولا قوته، فهو الذي أحب عبده فجعل المحبة في قلبه، ثم لما أحبه العبد جازاه الله بحب آخر، فهذا هو الإحسان علىٰ الحقيقة،

---

(١) مجموع مؤلَّفات العلامة عبد الرَّحمن السّعدي (٦/ ٤١٨).

إحسان محض ليس المقصود به المعاوضة، وإنما ذلك محبة منه تعالىٰ للشاكرين من عباده ومحبة للشكر من غير حاجة منه إلىٰ الشكر، بل المصلحة كلها عائدة إلىٰ العبد، فتبارك الذي أودع محبته في قلوب عباده المتقين، ثم لم يزل ينميها ويقويها حتىٰ وصلت إلىٰ حالة تتضاءل عندها المحاب، وتسليهم عن المألوفات وتهون عليهم المصيبات وتلذذ لهم مشقة الطاعات، وتثمر لهم ما يشاءون من أصناف الكرامات التي أعلاها محبة الله والفوز برضاه والأنس بقربه».

والأنس بالله حقيقته استشعار معيَّة الله، والفرح بموالاته، تستشعر قرب ربك فتناجيه، وتستشعر قربه فترجوه، وتستشعر قربه وقيُّوميَّته فتدعوه، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ويعلم الموفَّق السَّعيد أنَّ استجابة العبد لربِّه بعبوديَّته والانقياد لأمره ونهيه سبب لإجابة الله لدعائه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وأولياء الله عرفوا هذا القرب من الله فأنسوا به، وكان أعظم أسباب فرحهم وابتهاجهم وسعادتهم، قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن أنسه بالله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، وقال النبيُّ ﷺ: «**وأنا أكرم ولد آدم علىٰ ربِّي**»، رواه التِّرمذي، صلوات الله وسلامه علىٰ صاحب المقام المحمود في الشفاعة العظمىٰ.

والأنس بالله يُنال بالإقبال عليه، فمن أقبل علىٰ الله أقبل الله عليه.

قال العلامة المجدِّد عبد الرَّحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أعظم سبب يكتسب

---

(١) مجموع مؤلفات العلامة عبد الرحمن السَّعدي (٦/ ٥٤٠).

به العبد محبة ربه التي هي أعظم المطالب؛ الإكثار من ذكره والثناء عليه وكثرة الإنابة إليه، وقوة التوكل عليه، والتقرب إليه بالفرائض والنوافل، وتحقيق الإخلاص له في الأقوال والأفعال، ومتابعة النبي ﷺ ظاهرًا وباطنًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]».

والأنس بالله غنًىٰ في القلب، وبهجة للنَّفس، وتألُّه لله وعبوديَّة تنال بها رضاه ونعمه، وسعادة في الدُّنيا والآخرة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المؤمن من نوع الإنسان خير البرية علىٰ الإطلاق، وخيرة الله من العالمين، فإنه خلقه ليتم نعمته عليه، وليتواتر إحسانه إليه، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته ولم يخطر علىٰ باله، ولم يشعر به ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلة، التي لا تنال إلا بمحبته، ولا تنال محبته إلا بطاعته وإيثاره علىٰ ما سواه، فاتخذه محبوبًا له، وأعد له أفضل ما يعده محب غني قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه، وعهد إليه عهدًا تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه، وأعلمه في عهده ما يقربه إليه، ويزيده محبة له وكرامة عليه، وما يبعده منه ويسخطه عليه ويسقطه من عينه».

وما أحوجنا جميعًا إلىٰ الإقبال علىٰ الله، والأنس به عن المخلوقين الذين خلطتهم لا تخلو من شرّ وأذًىٰ وسيِّئات، فالإقبال علىٰ الله والشُّغل بعبوديَّته خير وفضل ونعمة وفرح وفوز وحسنات تتضاعف.

---

(١) مدارج السَّالكين (١/ ١٦٧).

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ما أحسن حال من انقطع إلىٰ ربه».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّ أعظم النِّعم الإقبال علىٰ الله، والتعبُّدُ له، والانقطاع إليه، والتَّبتُّل إليه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «من فقد أنسه بالله بين الناس ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف، ومن وجده بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول، ومن فقده بين الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود، ومن وجده في الخلوة وفي الناس فهو المحب الصادق القويُّ في حاله».

وقد شرع الله لنا الاعتكاف لنأخذ منه معنىٰ الأنس بالله، والانقطاع إليه عن الخلق، والتفرُّغ لعبادته، والفرح بمناجاته، والسُّرور بذكره، والابتهاج بالرَّغبة إليه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «لما كان صلاح القلب واستقامته علىٰ طريق سيره إلىٰ الله تعالىٰ متوقفًا علىٰ جمعيته علىٰ الله، ولم شعثه بإقباله بالكلية علىٰ الله تعالىٰ، فإن شَعَثَ القلب لا يلُمُّه إلا الإقبال علىٰ الله تعالىٰ، وكان فضول الطعام والشراب وفضول مخالطة الأنام وفضول الكلام وفضول المنام، مما يزيده شعثًا ويشتِّته في كل واد ويقطعه عن سيره إلىٰ الله تعالىٰ أو يضعفه أو يعوقه ويوقفه؛ اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده أن شرع لهم من الصوم ما يذهب

---

(١) تهذيب الكمال (٥/ ٢٩٢).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٨٤٧).

(٣) الفوائد (ص٥٨).

(٤) زاد المعاد (ص٢٠٣).

فضول الطعام والشراب ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوِّقة له عن سيره إلىٰ الله تعالىٰ، وشرعه بقدر المصلحة؛ بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه ولا يضره ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة، وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوف القلب علىٰ الله تعالىٰ وجمعيته عليه، والخلوة به والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته فيستولي عليه بدلها، ويصير الهم كله به والخطرات كلها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلًا عن أنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور حين لا أنيس له، ولا ما يفرح به سواه، فهذا هو مقصود الاعتكاف الأعظم».

والأنس بالله حقيقته أداء عبوديَّة الله في كل وقت حيث فرضها الله، والاشتغال بذكر الله في كل حين، والشُّغل بعبوديَّة الله عن سوىٰ الله، وإجمام النَّفس في أوقات الرَّاحة للتقوِّي علىٰ العبادة.

ومن أنس بالله كان وقته سعادة، وعادت أوقاته عليه بركة في عباداته وطاعاته وأنسه بالله.

قال علي أبو محمد السَّاتر: دخلت علىٰ أبي نصر السَّجزي الحافظ وهو وحده، فقلت: أيُّها الشَّيخ أنت جالس وحدك! فقال: لست وحدي، أنا بين عشرين ألفًا من الصَّحابة والتَّابعين وأئمَّة المسلمين أتحدَّث معهم وأحكي

عنهم[١].

وقال سفيان الثَّوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن استطعت أن تأمر بخير في رفق، فإن قُبل منك حمدت الله عَزَّوَجَلَّ، وإلا أقبلت على نفسك، فإنَّ لك في نفسك شغلًا».

أُنْس المسلم يكون بمناجاة الله سبحانه وتعالىٰ، وخير أنواع ذلك الصَّلاة، ومن صلَّىٰ خاشعًا مقيمًا لشروط الصَّلاة وأركانها وواجباتها وسننها قرَّت عينه بمناجاة ربّه، وامتلأ قلبه من عبوديَّة الله والتألُّه له.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في شأن أُنْس المسلم بمناجاة ربّه**[٣]: «إذا قام إلىٰ الصلاة هرب من سوىٰ الله إليه، وآوىٰ عنده، واطمأنَّ بذكره: وقرَّت عينه بالمثول بين يديه ومناجاته، فلا شيء أهمّ إليه من الصَّلاة، كأنَّه في سجن وضيق وغمّ حتَّىٰ تحضر الصَّلاة، فيجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح، كما قال النبيُّ ﷺ لبلال: «**يا بلال! أرِحْنا بالصَّلاة**»، ولم يقل: أَرِحْنَا منها، كما يقول المبطلون الغافلون.

وقال بعض السَّلف: ليس بمستكمل الإيمان من لم يزل في همّ وغمّ حتىٰ تحضر الصَّلاة، فيزول همّه وغمّه، أو كما قال.

فالصَّلاة قرَّة عيون المحبِّين، وسرور أرواحهم، ولذَّة قلوبهم، وبهجة نفوسهم، يحملون همَّ الفراغ منها إذا دخلوا فيها».

ومن قرَّت عينه بصلاته قرَّت عينه بربّه، ومن فرح بمناجاة الله عرف فوزه

---

(١) المنثور من الحكايات والسُّؤالات (ص٤١، ٤٢).

(٢) الجرح والتعديل (١/ ٨٧).

(٣) طريق الهجرتين (٢/ ٦٦٦).

بأعزم أسباب سعادته، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّها - الصلاة - محلّ المناجاة والقربة، ولا واسطة فيها بين العبد وربِّه، فلا شيء أقرّ لِعَيْن المحبّ ولا ألذّ لقلبه ولا أنعم لعيشه منها».

ومن وجد لذَّة الأنس بالله بمناجاته في الصَّلاة، ينتظر أوقاتها المأذون فيها ليأنس بمناجاة الله وعبوديَّته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «من كانت قرَّة عينه في الصَّلاة فلا شيء أحبّ إليه وأنعم عنده منها، وبودّه أن قطع عمرَه بها غير مشتغل بغيرها، وإنَّما يسلِّي نفسه إذا فارقها بأنَّه سيعود إليها عن قرب. فهو دائمًا يثوب إليها، ولا يقضي منها وطرًا».

والسَّبب الجامع للسَّعادة والنَّجاة من الشُّرور هو تقوىٰ الله، فأزمة الأمور كلُّها بيد الله، والله عَزَّوَجَلَّ يتولَّىٰ من اتَّقاه ويحفظه، ومن كان الله له فهو السَّعيد.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الله جعل فعل المأمور وترك المحظور سببًا للنجاة والسعادة فشهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر.

ولهذا ينبغي للعبد أن لا يعلق رجاءه إلا بالله، ولا يخاف من الله أن يظلمه، فإن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون، بل يخاف أن يجزيه

---

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٦٦٥).

(٢) طريق الهجرتين (٢/ ٦٦٦، ٦٦٧).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٥٦).

بذنوبه، وهذا معنىٰ ما روي عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: «لا يرجونَّ عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه»».

وكان النبيّ ﷺ يُزكِّي الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ علىٰ الطمأنينة بكفاية الله، قال لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «**اعلم أنَّ الخلق لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»، رواه الترمذي.

وخلطة النَّاس تكون في التَّعاون علىٰ البرّ والتَّقوىٰ والتَّواصي بالحقّ والصَّبر، قال تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

ويتعاون المسلمون علىٰ توحيد الله وإقامة شرائع الدِّين وشعائره، ويتواصون علىٰ القيام بمصالح الدِّين والدُّنيا، وبناء آصرة الأخوَّة علىٰ عقيدة التَّوحيد وترك أسباب الفرقة والاختلاف والشَّحناء والبغضاء فإنَّها توهن الإسلام والمسلمين.

والسَّعيد من وُفِّق إلىٰ خلطة من يعينه علىٰ ذلك كلّه، ويجتنب خلطة من يفسد الأديان، أو يضرّ بالمسلمين، أو يشغلك عن طاعة الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ[(١)]: «أمَّا ما تؤثره كثرة الخلطة؛ فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتىٰ يَسْوَدَّ، ويوجب له تشتتًا وتفرُّقًا، وهمًّا وغمًّا وضعفًا».

وإيَّاك أيُّها المسلم أن تُشغل نفسك بإضاعة الوقت بما يضرُّك ولا ينفعك،

(١) مدارج السَّالكين (١/ ٣٦٦).

وأنسك بالله لا يقطعك عن أداء حقوق الخلق، فأعط كل ذي حقّ حقَّه، وعامل الخلق علىٰ النَّصيحة لا الغش لهم.

ومن اضطررت إلىٰ خلطته فزايله بما لا يضرُّك.

وكل مجلس تحضره يجب عليك القيام بحقه، ففي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال النبيُّ ﷺ: «**إياكم والجلوس علىٰ الطُّرقات،** فقالوا: ما لنا بد، إنَّما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: **فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها،** قالوا: وما حق الطريق؟ قال: **غض البصر، وكفّ الأذىٰ، وردّ السلام، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر**».

قال شيخ المفسرين الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «فيه الدلالة علىٰ الندب إلىٰ لزوم المنازل التي يسلم لازمها من رؤية ما يكره رؤيته، وسماع ما لا يحل له سماعه، مما يجب عليه إنكاره، ومن معاونة مستغيث يلزمه إعانته، وذلك أنَّ الرسول ﷺ إنَّما أذن في الجلوس بالأفنية والطرق بعد نهيه عنه إذا كان من يقوم بالمعاني التي ذكرها عليه السلام».

وبعض النَّاس يُشغل نفسه بخلطة من يأنس به طبعه، وهذا إن كان في الأمور المباحة لإجمام النَّفس أحيانًا بعد عناء التَّعب فلا بأس، أمَّا اعتياد ذلك كل يوم فهو إضاعة للوقت عن الأهم الأنفع.

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ[2]: «الاجتماع بالإخوان قسمان: أحدهما اجتماع

---

(١) شرح صحيح البخاري (٦/ ٥٨٩، ٥٩٠).

(٢) الفوائد (ص٧١).

علىٰ مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقلُّ ما فيه أنه يفسد القلب، ويضيع الوقت، الثاني: الاجتماع بهم علىٰ التعاون علىٰ أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات: إحداها: تزيُّن بعضهم لبعض، الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة، الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود، وبالجملة فالاجتماع والخلطة لقاح إما للنفس الأمارة وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته، وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من المَلَك والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين والطيبين للطيبات، وعكس ذلك».

علىٰ كل حال المسلم ينتخب خلطة من يعينه علىٰ طاعة الله، ويعمر خلطته معهم بالأمور النَّافعة.

قال علقمة لابنه[1]: «يا بني، اصحب من الرِّجال من إن صحبته زانك، وإن خدمته صانك، وإن سألته أعطاك، وإن لم تسأله ابتدأك.

اصحب من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف منه عليك الخلائق، ولا يخذلك عند الحقائق».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الضابط النَّافع في أمر الخلطة أن يخالط النَّاس في الخير كالجمعة، والجماعة، والأعياد، والحج، وتعلم العلم، والجهاد،

---

(١) هداية السَّالك إلىٰ المذاهب الأربعة في المناسك (١/ ١٤٠).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٦٦).

والنصيحة، ويعتزلهم في الشرّ وفضول المباحات».

فالموفَّق هو من كان حريصًا علىٰ ما ينفعه في أموره الدِّينية والدُّنيويَّة، ومتىٰ كانت همَّة المسلم في تحقيق ذلك صار متألِّهًا لله في استباق الخيرات، فإنَّ شعب الإيمان وخصال البرّ والتَّقوىٰ كثيرة، والسَّعيد من حرص علىٰ كل خير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود:١٢٣] فإن الحرص علىٰ ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته إذ النافع له هو طاعة الله ولا شيء أنفع له من ذلك، فكل ما يستعان به علىٰ الطاعة فهو طاعة وإن كان من جنس المباح، قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لسعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتىٰ اللقمة التي تضعها في في امرأتك**»».



(١) التُّحفة العراقية في أعمال القلوب (ص٣٣٨).

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٤- **ومما يُدفع به الهم والقلق**: اجتماع الفكر كله على الاهتمام بعمل اليوم الحاضر، وقطعه عن الاهتمام في الوقت المستقبل، وعن الحزن على الوقت الماضي، ولهذا استعاذ النبيُّ ﷺ من الهم والحزن؛ فالحزن على الأمور الماضية التي لا يمكن ردُّها ولا استدراكها، والهم الذي يحدث بسبب الخوف من المستقبل؛ فيكون العبد ابن يومه، يجمع جدُّه واجتهاده في إصلاح يومه ووقته الحاضر؛ فإنَّ جمع القلب على ذلك يوجب تكميل الأعمال، ويتسلى به العبد عن الهم والحزن.

الشَّرح:

العمل للمستقبل هو جزء من العمل للحاضر، وما أعمال الحاضر إلا تكميل لعمل الأمس، وهذا عام للأعمال الدينيَّة والدنيويَّة، والعلَّامة السَّعدي لم ينه عن التَّخطيط للمستقبل، وإنَّما نهى عن الخوف من المستقبل، والمسلم واجبه التفاؤل من المستقبل، والأخذ بأسباب صلاحه وعائدته النافعة.

والله عَزَّوَجَلَّ أوحى إلى رسوله ﷺ وهو خطاب له وللصحابة بما يكون في مستقبلهم من تشريع أحكام جديدة كالزَّكاة، وأعمال شديدة كجهاد الروم والمرتدِّين: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦]، ليستعدوا نفسيًّا لذلك، وليقوموا بالإعداد للمستقبل بما يكون خيرًا لهم.

وقد أوحى الله إلى رسوله ﷺ الذي بلَّغ الصَّحابة بما يكون من مستقبل

محيطهم الإقليمي والدولي؛ ليكون موقعهم في عالمهم الدَّولي في الرِّيادة، وذلك بالسَّعي بنماء وتقوية الجماعة، قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ [الروم: ١-٤].

وقد بلغ النبيَّ ﷺ والصَّحابة أنَّ الرُّوم كانوا يعدون العدَّة لغزوهم، فأخذ النبي ﷺ والصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ استعدادهم، وخرجوا إلىٰ تبوك لجهادهم.

وحدَّث النبيُّ ﷺ أمَّته بما يكون من مستقبلها؛ ليعرفوا قدر أمَّة الإسلام بين الأمم، وسبب ريادتها، وليأخذوا بأسباب الرِّيادة، وليستبشروا ويتفاءلوا بمستقبلهم وليعملوا له؛ عن ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله زوىٰ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنَّ أمَّتي سيبلغ مُلكُها ما زُوي لي منها**»، رواه مسلم.

وأخبرنا الله عَزَّ وَجَلَّ بأحوال الكافرين في الحاضر والمستقبل؛ لنعمل للحاضر والمستقبل بطمأنينة متوكِّلين علىٰ الله، آخذين بأسباب مصالح أمَّتنا وشعوبنا، فقال سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝١٩٧﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

وقد كان الصَّحابة يسألون عن المستقبل للعمل له، قال حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ للنبي ﷺ: «هل بعد هذا الخير من شر؟» رواه البخاري.

والمسلم سعيه في هذه الحياة الدُّنيا هو عمل للمستقبل، يحرث للآخرة.

وكذلك أخبرنا الله بأحوالنا في أطوارنا كلها؛ لنعطي كل طور حقه من

العمل، فقال سبحانه: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الروم: ٥٤]، فالمسلم يجتهد بالعمل الصالح في شبابه، حتىٰ إذا بلغ مرحلة الضعف وضعف عن بعض العمل؛ كُتب له ما كان يعمله صحيحًا مقيمًا.

وقد أخبرنا الله بمستقبل الأمم والأفراد؛ لنأخذ بأسباب تدبير المستقبل بما يحصل به الأمن والرخاء والسلامة، فكانت رؤيا ملك مصر التي أراه الله إيَّاها سببًا لتدبير المعيشة في سنوات الخصب باقتصاد، بما يحفظ المؤونة للعيش في سنوات الجدب.

وكذلك حثَّ الله الأفراد علىٰ الاقتصاد في النفقة بما يحصل معه حسن المعيشة في المستقبل، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٩].

والعلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّما قصد الحثَّ علىٰ العمل للحاضر بما لا يقطع عن إدراك مصالح المستقبل، وحثَّ علىٰ إتمام عمل الحاضر في الذي شرع فيه المسلم وألَّا ينشغل عن إتمامه بأعمال أخرىٰ تزاحم ما شرع فيه، فإتمام الأعمال الحاضرة سبب للقيام بالأعمال المستقبلية.

قال العلامة عبد الرحمن الناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «طالب العلم، وسالك طريق خير، وطالب سببًا من الأسباب الدنيويَّة النافعة؛ كل هؤلاء محتاجون إلىٰ

---

(١) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص١٦٦، ١٦٧).

توطين نفوسهم علىٰ مطلوبهم، وأن يستمروا علىٰ ما يسَّره الله لهم من الأسباب التي ينالون بها مطالبهم، ويثابروا علىٰ ذلك حتىٰ يتمَّ لهم ما أرادوه وطلبوه، ولا ينتقلوا في الأسباب قبل تمام ما قصدوه؛ فإنَّ التنقُّل في الأسباب وكثرة الطوارئ التي تطرأ علىٰ العبد مضيعة للوقت مذهبة للبركة، والتجربة والمشاهدة خير شاهد لذلك».

فالواجب علىٰ المسلم أن يبني تدبيراته علىٰ حصول منافعه الدينيَّة والدنيويَّة بما يعين بعضها بعضًا، ويكون سببًا لتسلسل الأعمال النافعة لا قاطعًا بعضها عن بعض.

ومتىٰ كان المسلم مخلصًا في نيَّته، صادقًا في عمله؛ زاده الله أسبابًا في هدايته وتوفيقه في أعماله الدِّينيَّة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وكذلك يُنمِّي الله للمسلم أعماله الدُّنيويَّة بما يكون سببًا لخيرات الدُّنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وطالب العلم إذا جمع كلام العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من مجموع مؤلفاته وكتبه؛ كان ذلك سببًا لفهمه علىٰ نحو ما هو معلوم عنه من تحرير العبارات النافعة.

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ليكن همُّك في إصلاح عمل يومك؛ فإنَّ الإنسان ابن يومه، لا يحزن لما مضىٰ، ولا يتطلع للمستقبل حيث لا ينفعه التطلع».

---

(١) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص٢٦٠).

ويومك أيُّها المسلم اجعله منتظمًا علىٰ أداء حقِّ الله، والسَّعي في مصالحك الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، لكل منهما وقت يعين علىٰ الآخر، ويكون سببًا في أدائه، وإذا كان سعيك في هدًىٰ وبرٍّ وتقوىٰ وخير؛ فقد ربحت الدُّنيا والآخرة.

وأمَّا من كان سعيه يقطعه عن الآخرة؛ فذلك هو المغبون، وهو الخاسر، وإن حاز متاع الدُّنيا، فإنَّ متاع الدُّنيا في الآخرة قليل، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

والموفق هو الذي يقوم في كل وقت بواجبه وحقِّه، ويعطي كل ذي حقٍّ حقَّه، ولا تشغله الدُّنيا عن فروض الدِّين.

قال العلَّامة أبو العبَّاس المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أفضل العبادة العمل علىٰ مرضاة الربِّ سبحانه، واشتغال كل وقت بما هو مقتضىٰ ذلك الوقت ووظيفته».

والله عَزَّوَجَلَّ نعمه علىٰ خلقه سابغات، اغتبطهم ولا تحسدهم، وما فاتك من بعض أسباب العمل الصَّالح فيمكنك الإتيان بغيره من الأنواع الكثيرة من أعمال البرِّ وشعب الإيمان؛ قال فقراء الصَّحابة للنبي ﷺ: ذهب أهل الدُّثور بالأجور، يُصَلُّون كما نُصلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون بفضول أموالهم؛ فقال لهم النبيُّ ﷺ: «**أوليس قد جعل الله لكم ما تصَّدَّقون به؟ إنَّ بُكلِّ تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر**

(١) تجريد التَّوحيد المفيد (ص٤٩).

بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة»، رواه مسلم من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ولو قام الناس بفرض الكفاية بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر بشروطه، لكان ذلك من أعظم أسباب تكميل المسلمين ومجتمعاتهم؛ فرحم الله من قام بما كان سببًا في صلاح المسلمين، وأعان علىٰ حفظ الدِّين، وسعىٰ في صلاح الأرض والخلق.

والإنسان إذا أصابه ما يكره، أو وقع منه ما يكره؛ فإنَّه يفرُّ إلىٰ الله الذي له ملك السموات والأرض ومقاليدهما، وهو الذي يُقدِّر المقادير ويعفو عن السيئات ويكشف الضرَّ، ومنه النَّفع وحده؛ قال تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾ [الذاريات: ٥٠].

والموفَّق هو الذي يستعتب نفسه فيما أصابه، ويذكر ربه ويفيء إليه، ويسعىٰ في مراضيه ومحاذرة أسباب سخطه.

قال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٧٩].

والإنسان يجتلب لنفسه أنواعًا من المكاره والشُّرور والمصائب والضَّرر بظلمه لنفسه، فإذا كان الإنسان هو الظَّالم لنفسه؛ فالواجب عليه أن ينصفها بالعدل في حقِّ الله وحقِّه وحقِّ النَّاس، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ٨٣].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «الإنسان بطبعه ظالم جاهل،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١٨٧).

فلا تأمره نفسه إلا بالشرِّ، فإذا لجأ إلىٰ ربِّه واعتصم به، واجتهد في ذلك؛ لطف به ربه، ووفَّقه لكل خير، وعصمه من الشَّيطان الرجيم».

والمسلم دائم الالتجاء إلىٰ ربه في السرَّاء والضرَّاء، ملازم لذكره، ومعتصم به في صلاح دينه ودنياه، آخذ بالصبر في مواجهة تغيُّر الأحوال، محتسبًا الثَّواب من الله؛ فالشَّوكة يشاكها وما دونها يدرك ثوابها، وهو ساع في أحواله كلها أن يجعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل همٍّ فرجًا.

وقدر الله في ابتلاء عباده يجري علىٰ المسلم والكافر، والبرِّ والفاجر، وشأن المسلم ليس كشأن الكافر الذي لا يرجو إلا عافية الدُّنيا، وإن أراد الآخرة ضلَّ عنها في تيه الشِّرك والشَّرائع المبدَّلة المحرَّفة والمنسوخة؛ فالمؤمن يرجو عافية وثواب الدُّنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

والمسلم يبصر الشَّدائد راجيًا ما يجعل الله فيها من أسباب تمحيص الإيمان، وما يكون سببًا في صقله وزيادته، وما يبيِّن له الأعداء من الإخوة الصَّادقين، قال تعالىٰ ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقد شرع الله لنا أن نذكره صباحًا ومساءً عبودية له، وتدبُّر معاني هذه الأذكار تحيا به نفوس المؤمنين علىٰ شرع الله وقدره؛ فيتجدَّد إيمان القلب وعمل الجوارح علىٰ الأخذ بميثاق الله وعبادته بالصَّبر والشُّكر.

من ذلك تدبُّر معاني سيد الاستغفار؛ فإنَّه من أسباب دفع الهم والحزن مما

فات، ومن أسباب قوَّة القلب وإحياء عزماته، والجوارح في استباق الخيرات التي هي أسباب الفرح والسَّعادة والسُّرور.

عن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي؛ فاغفر لي إنَّه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها موقنًا بها حين يمسي فمات من ليلته؛ دخل الجنة، ومن قالها موقنًا بها حين يصبح فمات من يومه؛ دخل الجنة**»، رواه البخاري.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾ [المائدة: ٧].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يأمر تعالىٰ عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم؛ فإن في استدامة ذكرها داعيًا لشكر الله تعالىٰ ومحبته، وامتلاء القلب من إحسانه. وفيه زوال للعجب من النفس بالنعم الدينية، وزيادة لفضل الله وإحسانه. و﴿وَمِيثَٰقَهُ﴾ أي: واذكروا ميثاقه ﴿ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ أي: عهده الذي أخذه عليكم.

وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ قد التزموا طاعتهما، ولهذا قال: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد. وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٢٤).

شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم علىٰ بال، ويحرصون علىٰ أداء ما أُمِرُوا به كاملًا غير ناقص».

وامتدح الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الخصال الحسنة التي في غير المسلمين ممَّا يتعلَّق بتدبير شؤونهم الدنيويَّة، وواجبك أيُّها المسلم أن تأخذ بالإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في تدبير أمورك؛ لتكون عونًا لك علىٰ دينك، ولا يقطعك عن بلوغ أغراضك النافعة عقبات في الطَّريق؛ فكن ساعيًا في مصالحك، وما يعترضك من عقبات أمطها عن طريقك، وأكمل السَّير إلىٰ الله بنشاط وتفاؤل وسرور، وبالأخذ بالأسباب الموصلة لخيري الدنيا والآخرة.

قال عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **في الرُّوم**: «إنَّ فيهم لخصالًا أربعًا: إنَّهم لأحلم النَّاس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرَّةً بعْدَ فرَّةٍ، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظُلْم الملوك»، رواه مسلم[(١)].

وخصال الخير في المسلمين كثيرة غير محصورة بخمس، ولا خمسين، فشجرة التوحيد تُثمر كل خير بأمر الله، ويزيدها الله نماءً وبركة، ومكارم أخلاق المسلمين لا يوازيهم فيها أحد، ففطرتهم وعقولهم هداها القرآن إلىٰ كل خير.

والنبيُّ ﷺ والصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أصابهم الحصار في مكَّة والأذىٰ من المشركين، وهُزموا في أحد، وأصابتهم المكاره في مؤتة، وكانوا أسرع إفاقة، وملكوا مشارق الأرض ومغاربها، وأنجز الله لهم وعده؛ لأنهم قاموا بأسباب التمكين.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس (ص١٢٥٤ - رقم ٧٢٧٩).

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥- ومن أكبر الأسباب لانشراح الصدر وطمأنينته: الإكثار من ذكر الله، فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في انشراح الصدر وطمأنينته، وزوال همه وغمه، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فلذكر الله أثر عظيم في حصول هذا المطلوب لخاصيته، ولما يرجوه العبد من ثوابه وأجره[١].

الشَّرح:

ذكر الله هو عبوديَّة القلب، وقوته وغذاؤه، وهو مادَّة حياة القلب، فالذي يذكر الله مثله مثل الحيّ، وحياة القلب حياة للجوارح.

والذِّكر سعادة القلب والرُّوح والبدن، فمن علم أنَّ الله ذاكر من ذكره؛ كانت سعادته بذكر العظيم له أعظم مفروح به، فأي تكريم إلهي أعظم من هذا التَّكريم، قال تعالىٰ ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

فلا أعظم لسعادة المسلم وسروره من مناجاة الله، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «مناجاة الربّ جلّ جلاله أرفع درجات العبد».

والذِّكر يبعث علىٰ الفرح والسَّعادة والسُّرور، لأنَّه تحديث للنَّفس بكمال الله، فالأذكار هي ما تتعبَّد الله به من ذكر أسماء ونعوت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتسرّ النَّفس بما تذكره من عظمة الله وجلاله وكماله، وتستريح النُّفوس بما تسمعه من

---

(١) الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة (ص١٨).

(٢) فتح الباري (٢/ ١٤).

نعوت الله الموجبة للاستعانة به والطمأنينة إلىٰ كفايته.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالىٰ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»، متَّفق عليه.

وذكر الله سبب قوَّة القلب فهو سلاحه الذي يجاهد به أعداء الله، فذكر الله طمأنينة للقلب وتثبيت له علىٰ الحقّ؛ قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وعبادات الإسلام وأركانه مقصود إقامتها تحقيق ذكر الله، قال تعالىٰ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤]، والصلوات الخمس شرعها الله في أول النَّهار وأوسطه وآخره، وبعد غروب الشَّمس وبعد غروب الشَّفق الأحمر ليستوعب المسلم ليله ونهاره بذكر الله ولا يكون من الغافلين.

قال تعالىٰ: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[(١)]: «جمعت هذه الآية الصلوات الخمس ومواقيتها، ﴿حِينَ تُمْسُونَ ﴾: المغرب والعشاء، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾: الفجر، ﴿وَعَشِيًّا ﴾: العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾: الظهر».

ألا ترىٰ من فضل الذِّكر أنَّ الله ألهم مخلوقاته كلها ذكره وتسبيحه، قال

(١) رموز الكنوز (٦/ ١٤، ١٥).

تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. والمخلوقات العظيمة تذكر الله خضوعًا لعظمته، فلا تكونن من الغافلين الآبقين.

وذكر الله حرز للقلب من وساوس الشَّياطين:

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «رقَّة القلوب تنشأ عن الذِّكر، فإنَّ ذكر الله يوجب خشوع القلب وصلاحه ورقَّته، ويذهب بالغفلة عنه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة لكان حقيقًا بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالىٰ، وأن لا يزال لهجًا بذكره فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يَرْصُده فإذا غفل وثب عليه وافترسه، وإذا ذكر الله انخنس عدو الله وتصاغر وانقمع حتىٰ يكون كالوصع – صغير العصفور – وكالذباب، ولهذا سُمِّي الوسواس الخناس، أي يوسوس في الصدور، فإذا ذكر الله تعالىٰ خنس؛ أي كف وانقبض وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «الشيطان جاثم علىٰ قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله تعالىٰ خنس».

وذكر الله تزكية للقلب واللِّسان والجوارح، فمن ذكر الله كثيرًا تجده أسلم الناس منطقًا، وأبعدهم عن الفحش والبذاء، وسوء الأخلاق.

وكثرة الذِّكر تنهض بالمسلم لاستباق الخيرات، والقرآن أفضل الذِّكر،

---

(١) لطائف المعارف (ص٣٤).

(٢) الوابل الصَّيِّب (ص٨٣).

وبتلاوته تزكوا النُّفوس بالاهتداء بما فيه من العقائد الصَّحيحة والأوامر المزكية لكل عمل صالح.

وذكر الله سبب خشوع القلب الموجب لصلاح الجوارح، وذلك حقيقة التَّزكية، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦]، فمتىٰ كان القلب خاشعًا من ذكر الله كانت جوارحه خاشعة لله تبعًا لذلك.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «من أمارات هذا الخشوع أن يطمئنَّ القلب بذكر الله، ويخشع ويخضع للحقِّ الذي أنزله الله، فيعتقد ما دلَّ عليه من الحقِّ، ويرغب فيما دعا إليه من الخير، ويرهب عمَّا حذَّر منه من الشرِّ، كما قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]».

والحد الفاصل بين المؤمن والكافر هو اتِّباع القرآن، فالمؤمنون تلوه ذكرًا فاستنارت بصيرتهم به واتَّبعوه فاهتدوا للحقّ الذي فيه، والكفَّار تعاموا وتغافلوا وأعرضوا عنه ولم يهتدوا به ولم يتَّبعوه، قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «أي: تغافلوا وتعاموا وتصامموا عن قبول

---

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص١٤٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٥٤).

الهدىٰ واتِّباع الحقّ».

فالدِّين كلّه في اتِّباع القرآن، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١﴾ [يس: ١١].

والمؤمنون تنعم قلوبهم بذكر الله، وهذا فصل ما بين نعيم المؤمنين في الدُّنيا وضنك الكافرين فيها، فالكافر مهما لها بمتاع الدُّنيا عن ذكر الله الحسرة ووحشة القلب وظلمته والغفلة والشَّقاء ملازمة له، والمؤمن أسعد النَّاس قلبًا وأشرحهم صدرًا وأنعمهم عيشًا وأهنأهم حياة بذكر الله ومناجاته.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ [طه: ١٢٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الضنك الضيق والشدة والبلاء، ووصف المعيشة نفسها بالضنك مبالغة، وفسرت هذه المعيشة بعذاب البرزخ والصحيح أنها تتناول معيشته في الدنيا، وعذابه في البرزخ، فإنه يكون في ضنك في الحالين، وهو شدة وجَهْد وضيق، وفي الآخرة ينسىٰ في العذاب، وهذا عكس أهل السعادة والفلاح؛ فإن حياتهم في الدنيا أطيب الحياة وفي البرزخ، ولهم في الآخرة أفضل الثواب؛ قال تعالىٰ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ [النحل: ٩٧]، فهذا في الدنيا، ثم قال: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فهذا في البرزخ والآخرة».

فالمؤمنون سعداء في دنياهم نعموا بطاعة الله وذكره ومناجاته، وأورثهم

---

(١) الوابل الصيِّب (ص١٠٧).

ذلك امتلاء القلب من الفرح بالله ولذة ذكره، فهم في جنة معجَّلة، والكافرون في نار معجَّلة، قلوبهم في حسرة وضيق وضنك وشقاء.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الإحسان له جزاء معجل ولا بد، والإساءة لها جزاء معجَّل ولا بد، ولو لم يكن إلا ما يجازىٰ به المحسن من انشراح صدره وانفساح قلبه وسروره ولذته بمعاملة ربه عَزَّوَجَلَّ وطاعته وذكره ونعيم روحه بمحبته وذكره، وفرحه بربه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه، وما يُجازىٰ به المسيء من ضيق الصدر وقسوة القلب وتشتته وظلمته وحزازته وغمه وهمه وحزنه وخوفه، وهذا أمر لا يكاد من له أدنىٰ حس وحياة يرتاب فيه، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة ونار دنيوية وجهنم حاضرة، والإقبال علىٰ الله تعالىٰ والإنابة إليه والرضا به وعنه وامتلاء القلب من محبته واللهج بذكره والفرح والسرور بمعرفته ثواب عاجل وجنة حاضرة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة».

الذَّاكرون الله الذين أقبلوا علىٰ الله بذكره، وأخلصوا مناجاتهم لربِّهم تألهًا وعبودية ملأ الله قلوبهم من السَّعادة والفرح به جزاءً لإقبالهم علىٰ الله وإعراضهم عمَّن سواه.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ [المزمل: ٨]. قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أي: انقطع إلىٰ الله في العبادة».

---

(١) الوابل الصيِّب (ص١٠٨).

(٢) رموز الكنوز (٨/ ٣٣٦).

وذكر الله ينهض بك إلىٰ فعل الطَّاعات، وتحمُّل المشاق ويعينك علىٰ أداء أمورك، ويجعلك فرح النَّفس قوي القلب نشيط العزم، تسارع في الخيرات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا حملت علىٰ القلب هموم الدنيا وأثقالها، وتهاونت بأوراده التي هي قوته وحياته؛ كنت كالمسافر الذي يحمِّل دابته فوق طاقتها ولا يوفيها علفها، فما أسرع ما تقف به!».

ومن عرف فضل الذكر في سيره إلىٰ الله، وفي القيام بأعماله؛ لزمه، وكان زاده وقوته الذي يحيي قلبه وبدنه، وأتىٰ من أنواعه ما أعانه علىٰ مزاولة الأعمال.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وفي الصحيحين من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**(لا حول ولا قُوَّة إلا بالله) كنز من كنوز الجنة**».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «(لا حول ولا قوة إلا بالله) بها تُحمل الأثقال، وتكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال».

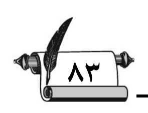
فذكرك لله هو من استعانتك به، وهو من توكُّلك عليه، والتجائك به، وهذا ممَّا يعينك علىٰ أداء أمورك.

والذِّكر يلمُّ شعث القلب وإراداته، فتجتمع خواطره علىٰ مراضي الله، ويكون الذَّاكر في إقبال علىٰ أمر الله، وتلك هي عبودية الله، أما الغافل فيتشتَّت قلبه في أودية الأهواء والوساوس والهموم والغموم والإرادات غير النَّافعة.

---

(١) الفوائد (ص٦٦).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٣٧).



قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الذكر يجمع المتفرِّق ويفرق المجتَمِع، ويقرب البعيد ويبعِّد القريب، فيجمع ما تفرَّق علىٰ العبد من قلبه وإرادته وهمومه وعزومه، والعذاب كل العذاب في تفرقتها وتشتتها عليه وانفراطها له، والحياة كل الحياة والنعيم في اجتماع قلبه وهمه وعزمه وإرادته. ويفرق ما اجتمع عليه من الهموم والغموم والأحزان والحسرات علىٰ فوت حظوظه ومطالبه، ويفرق أيضًا ما اجتمع عليه من ذنوبه وخطاياه وأوزاره حتىٰ تتساقط عنه وتتلاشىٰ وتضمحل».

وذكر الله هو حقيقة الإيمان، وعنوان عبودية القلب وزكاء النَّفس ودليل حنيفية المسلم بإقباله علىٰ الله وإعراضه عما سواه، وخضوعه لله رب العالمين لا شريك له، ومن أقبل علىٰ الله أقبل الله عليه.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

ذكر الله يُجدِّد الإيمان، ويحيي القلوب، ويجعلها مخبتة منقادة لأمر الله وطاعته، وهو سلوة النُّفوس في الصَّبر علىٰ أقدار الله، قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

---

(١) الوابل الصَّيِّب (ص١٥٥، ١٥٦).

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا أشرح للصدر ولا أسرَّ للقلب من تعلُّقه بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وكونه دائمًا يذكره».

ذكر الله هو حقيقة العبودية لله بحمده وشكره.

وهو من أسباب حفظ المسلم من غضب الله وسخطه، قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «**لا يهلك عبدٌ بين نِعْمة يحمد الله عليها، وذنب يستغفر الله منه**».

وذكر الله في كل الأوقات تقريب لحال الإنسان بالملائكة الأبرار ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، فيقارب المسلم كمال الملائكة إذا صار ممن يذكر الله ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وذكر الله طمأنينة يلم شعث القلب عن سوىٰ الله، وطمأنينة للمسلم بالبراءة من النفاق، فإن المنافق لا يذكر الله إلا قليلًا.

وذكر الله بالتَّوحيد عند الاحتضار بشارة بحسن الخاتمة، قال النبي ﷺ: «**من كان آخر كلامه (لا إله إلا الله) دخل الجنة**»، رواه أبو داود من حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

والله عَزَّوَجَلَّ ما خلق الأرض إلا لعمارتها بذكره، فإذا خليت من ذكره قامت القيامة، قال النبي ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتىٰ لا يقال في الأرض: الله، الله**»، رواه مسلم.

ولا شيء يوازي الذكر في كثرة الفضل مع يسره في العمل، فهو ثقيل في الميزان خفيف علىٰ اللِّسان، تتوضَّأ فتذكر ذكر الوضوء فتُفتح لك أبواب الجنَّة، تُهلل عشرًا فكأنَّما أعتقت أربعًا من ولد إسماعيل، تُذنب فتستغفر فيغفر الله لك.

---

(١) شرح بلوغ المرام (٦/ ٢١٤).

(٢) تهذيب الكمال (٢/ ٤٨٩).

ذكر الله نجاة من الكروب والشَّدائد، قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، وقال النبي ﷺ: «**من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب**»، رواه أبو داود من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

والكلم الطيِّب هو سبب قبول الأعمال الصَّالحة، قال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

والمعنىٰ أنَّه لا يُتقبَّل عمل إلا من مُوحِّد، ومن معنىٰ الآية أنَّ الكلمة الطيِّبة «لا إله إلا الله»، لا تصعد إلىٰ السَّماء فتُكتب إلا إذا اقترن بها العمل الصَّالح الذي يحقِّقها ويصدِّقها(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ الله تعالىٰ لا يصعد إليه من الكلم إلَّا الطَّيِّب، وهو نور، ومصدره عن النُّور، ولا من العمل إلَّا الصَّالح».

وكلُّ ما يصدُّ عن ذكر الله فقد نهىٰ الله عنه؛ لأنَّه من أسباب الغفلة والفساد والضَّلال، وإفساد الدِّين، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

❁ ❁ ❁

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٦/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) الوابل الصَّيِّب (ص١٤٤).

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦- وكذلك التحدُّث بنعم الله الظاهرة والباطنة؛ فإن معرفتها والتحدث بها يدفع الله به الهم والغم، ويحث العبد علىٰ الشكر الذي هو أرفع المراتب وأعلاها، حتىٰ ولو كان العبد في حالة فقر أو مرض أو غيرهما من أنواع البلايا. فإنه إذا قابل بين نعم الله عليه - التي لا يحصىٰ لها عد ولا حساب - وبين ما أصابه من مكروه؛ لم يكن للمكروه إلىٰ النعم نسبة.

بل المكروه والمصائب إذا ابتلىٰ الله بها العبد، وأدىٰ فيها وظيفة الصبر والرضىٰ والتسليم؛ هانت وطأتها، وخفت مؤنتها، وكان تأميل العبد لأجرها وثوابها والتعبد لله بالقيام بوظيفة الصبر والرضىٰ؛ يدع الأشياء المرة حلوة فتنسيه حلاوةُ أجرها مرارة صبرها[1].

الشَّرح:

التحدُّث بنعم الله هو شأن الشَّكور لربِّه، وهو خلق الفرِح بنعم الله، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وهو دليل القناعة؛ لأنَّ المسلم يقصر طرفه علىٰ متاعه عن متاع الدُّنيا الذي لا ينال منه إلا ما قسم الله له؛ قال تعالىٰ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

والفرح بنعم الله والتحدُّث بها وشكر الله عليها هو من استشعار منَّة الله في

(١) الوسائل المفيدة للحياة السعيدة (ص١٨، ١٩).

جوده وإحسانه، وهو من أسباب حصول المزيد ممن لا ينفد عطاؤه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]، ومن كان اعتقاده في ذلك جازمًا كان ذلك من أسباب رغبته إلىٰ الله وسؤاله من فضله.

والمسلم شكور لربِّه، قائم بحق الله في نعمه، ساعٍ في حفظها بشكرها؛ فإنَّه يحفظ الموجود ويجلب المفقود، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وأوَّل شكر النِّعم اعتقاد إحسان الله وفضله في الإنعام بها، ثم الشُّكر باللِّسان بالثَّناء علىٰ الله وحمده عليها، واستعمالها في محابّ الله ومراضيه، وهو عمل الجوارح بعبوديَّة الله، قال تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]. ولا يتقال المسلم نعم الله، بل من شكره لنعم الله تحققه بأنَّ الله قد أسبغ عليه النِّعم، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

ونعم الله عليك أيها المسلم كثيرة، من أعظمها إيجادك من العدم، وخلقك في أحسن تقويم، وخلقك علىٰ الفطرة، وتكميل فطرتك بعلوم الشَّرع التي فيها الهداية إلىٰ الخير، وإحسانه إليك بالرِّزق والعافية وأسباب السَّعي في الأرض وطلب المكاسب، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «نعمة الهداية أبلغ من الإنعام بالأكل والشُّرب؛ لأنَّه كل يأكل ويشرب حتىٰ البهائم، لكن الهداية ليس كلُّ أحد يهتدي، فإنعام الله علىٰ الإنسان بالهداية العلميَّة والعمليَّة؛ أعظم من إنعامه عليه بالأكل والشُّرب».

ومن آتاه الله الخيرات من نعمه فليسع في تنميتها وحفظها فإنَّ ذلك من بركة النِّعم، وليسع في استعمالها في محابّ الله ومراضيه، وليحذر المسلم من سخط نعم الله فربَّما كانت سببًا في تحوُّلها عنه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «من الآفات الخفية العامة أن يكون العبد في نعمة أنعم الله بها عليه واختارها له، فيملها العبد ويطلب الانتقال منها إلىٰ ما يزعم لجهله أنه خير له منها، وربه برحمته لا يخرجه من تلك النعمة، ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه حتىٰ إذا ضاق ذرعًا بتلك النعمة وسخطها وتبرم بها واستحكم ملله لها سلبه الله إياها، فإذا انتقل إلىٰ ما طلبه ورأىٰ التفاوت بين ما كان فيه وما صار إليه؛ اشتد قلقه وندمه وطلب العودة إلىٰ ما كان فيه.

فإذا أراد الله بعبده خيرًا ورشدًا أشهده أن ما هو فيه نعمة من نعمه عليه ورضاه به، وأوزعه شكره عليه، فإذا حدثته نفسه بالانتقال عنه استخار ربه استخارة جاهل بمصلحته عاجز عنها مفوض إلىٰ الله، طالب منه حسن اختياره له، وليس علىٰ العبد أضر من ملله لنعم الله؛ فإنه لا يراها نعمة ولا يشكره عليها

---

(١) تفسير سورة الزُّمر (ص١٥٠).

(٢) الفوائد (ص٢٦٢، ٢٦٣).

ولا يفرح بها، بل يسخطها ويشكوها ويعدها مصيبة، هذا وهي من أعظم نعم الله عليه.

فأكثر الناس أعداء نعم الله عليهم، ولا يشعرون بفتح الله عليهم نعمه، وهم مجتهدون في دفعها وردها جهلًا وظلمًا، فكم سعت إلىٰ أحدهم من نعمة وهو ساع في ردها بجهده! وكم وصلت إليه وهو ساع في دفعها وزوالها بظلمه وجهله! قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال:٥٣] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١] ، فليس للنعم أعدىٰ من نفس العبد فهو مع عدوه ظهير علىٰ نفسه».

والمسلم في كل لحظة متقلِّب في نعم الله، فالموفَّق من لازم شكر الله عليها، وصار شكره لنعم الله صفة له؛ فيكون عبدًا شكورًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «العبد دائمًا بين نعمة من الله يحتاج فيها إلىٰ شكر وذنب منه يحتاج إلىٰ استغفار، وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائمًا فإنه لا يزال يتقلب في أنعم الله وآلائه ولا يزال محتاجًا إلىٰ التوبة والاستغفار».

فالمسلم لا يتقالُّ نعم الله، كيف وهو لا يحصيها من كثرتها، فالشَّكور يشكر القليل والكثير من النِّعم، ويستعملها في مراضي الله، ولا يبطر بسببها، بل يجعل من شكرها أداء حق الله فيها، وحقّ المخلوقين.

---

(١) التُّحفة العراقية في أعمال القلوب (ص٤٥٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «من لطائف التعبُّد بالنعم أن يستكثر قليلها عليه، ويستقل كثير شكره عليها، ويعلم أنها وصلت إليه من سيده من غير ثمن بذله فيها، ولا وسيلة منه توسَّل بها إليه، ولا استحقاق منه لها، وأنها لله في الحقيقة لا للعبد، فلا تزيده النعم إلا انكسارًا وذلًّا وتواضعًا ومحبة للمنعم، وكلما جدد له نعمة أحدث لها عبودية ومحبة وخضوعًا وذلًّا، وكلما أحدث له قبضًا أحدث له رضًىٰ، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له توبة وانكسارًا واعتذارًا، فهذا هو العبد الكيس والعاجز بمعزل عن ذلك، وبالله التوفيق».

وليحذر المسلم من ملال النِّعم فربَّما كان ذلك سببًا لحرمانها، وهذا ما أصاب قوم سبأ، فإنَّهم كانوا يعيشون في جنَّات وأنهار يعيشون، ويسافرون في غير مشقَّة ولا نصب، وفي راحة ورفاهية، فملوا النِّعمة ودعوا علىٰ أنفسهم فأصابهم ما كانوا يدعون به، ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾ [سبأ: ١٩].

ومهما تكلَّمنا في حق الشُّكر، ومهما أثنينا علىٰ الله بما هو أهله، لن نوفِّيه حقَّه، فالدِّين مبنيٌّ علىٰ ذكر الله وشكره، قال تعالىٰ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان، بل الذكر القلبي واللساني، وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته، وذكر أمره ونهيه وذكره

(١) الفوائد (ص١٦٥).

(٢) الفوائد (ص١٨٦).

بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتم إلا بتوحيده، فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلىٰ خلقه، وأما الشكر فهو القيام له بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهرًا وباطنًا.

وهذان الأمران هما جماع الدين، فذكره مستلزم لمعرفته وشكره متضمن لطاعته، وهذان هما الغاية التي خَلق لأجلها الجنَّ والإنس والسموات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب وأنزل الكتب، وأرسل الرُّسل، وهي الحق الذي به خلقت السموات والأرض وما بينهما».

واحذر أيُّها المسلم أن تكون كنود المنهج، فإنَّ هذا طبع الإنسان الكفور لربِّه، المتسخِّط لأقداره، ومن عمي عن مشاهدة منَّة الله عليه في نعمه التي لا تحصىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: هو الكفور الجحود، يقال: كَنَدَ النعمة كُنُودًا، إذا كفرها.

وقال الحسن وابن سيرين رحمهما الله: لوَّامٌ لربه، يَعُدُّ المصائب وينسىٰ النِّعم».

وأنت أيُّها المسلم إذا تأمَّلت حالك، استذكرت أنواعًا من البلايا دفعها الله عنك، وأنواعًا أخرىٰ لا تعلمها دفعها الله عنك بلطفه وأنت لا تشعر، فالله لطيف بعباده يدفع عنهم البلايا ويُوصل إليهم المسرات.

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٨/ ٧١٣).

وما يقدِّره الله من أنواع ما يكره عباده؛ لا يعلمون عواقبها التي ربَّما كان من خيراتها ما لم تبلغه عقول بعض خلقه من حكمة الله في مقاديره.

قال تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

وتغير الأحوال من السَّعة إلىٰ الضِّيق، ومن الغنىٰ إلىٰ الفقر، ومن الصِّحَّة والعافية إلىٰ المرض؛ ابتلاء من الله، ييسِّر الله لعباده ألطف الأسباب إلىٰ عاقبة الرِّزق والعافية لمن اتَّقىٰ.

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «اللطيف من أسمائه الحسنىٰ له معنيان: **أحدهما**: بمعنىٰ الخبير: وهو أن علمه دق ولطف حتىٰ أدرك السرائر والضمائر والخفيات.

والمعنىٰ الثاني: اللطيف الذي يوصل أولياءه وعباده المؤمنين إلىٰ الكرامات والخيرات بالطرق التي يعرفون والتي لا يعرفون، والتي يريدون وما لا يريدون، وبالذي يحبون والذي يكرهون، فيلطف بأوليائه، فييسرهم لليسرىٰ ويجنبهم العسرىٰ، ويلطف لهم فيقدر أمورًا خارجية عاقبتها تعود إلىٰ مصالحهم ومنافعهم، قال يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ [يوسف:١٠٠] أي حيث قدر أمورًا كثيرة خارجية عادت عاقبتها الحميدة إلىٰ يوسف وأبيه، وكانت في مبادئها مكروهة للنفوس، ولكن صارت عواقبها أحمد العواقب وفوائدها أجلَّ الفوائد».

---

(١) فتح الرَّحيم الملك العلَّام في علم العقائد والتَّوحيد (ص٣٤).

وحسن الظنّ بالله والرَّجاء لرحمته في دفع الشَّدائد هو أرجح المكاسب.

وأصاب بعض العلماء المرض، وكان حسن ظنّه بالله في العافية وحسن العاقبة سببًا لشفائه وكشف الضُّرّ عنه.

قال سعيد القفَّال: مرض أبو عبد الله ابن مندة في آخر عمره مرضًا شديدًا، فدخلتُ عليه، ورأيته علىٰ صفة شديدة، فبكيت، فرفع رأسه، وقال: أتخشىٰ عليَّ أن أموت؟! لا تخش، فإنِّي أقوم من مرضي وأتزوَّج ويولد لي: عبد الرَّحمن، وعبيد الله، وعبد الوهَّاب، وذكر رابعًا أظنُّه عبد الكريم، فقام من مرضه، وتزوَّج أختي، وأولدها الأربعة، وكلٌّ سمع منه الحديث وروىٰ عن أبيه(١).

وقال إبراهيم بن العباس الصولي: اعتل ذو الفضل بن سهل ذو الرئاستين، ثم برأ فجلس للنَّاس فهنؤه بالعافية، فقال: إنَّ في العلل لنعمًا، ينبغي للعقلاء أن يعرفوها:

١ - تمحيص الذُّنوب.

٢ - وتعرض لثواب الصَّبر.

٣- وإيقاظ من الغفلة.

٤ - وإذكار للنعم في حال الصِّحَّة.

٥ - واستدعاء للتَّوبة.

٦ - وحضٌّ علىٰ الصَّدقة.

٧- وفي قضاء الله وقدره بعد الخيار(٢).

---

(١) المنثور من الحكايات (ص٥٣).

(٢) الفوائد المُنتخبة الصِّحَاح والغرائب للمهرواني (ص٢٢٦).

وقول **العلَّامة عبد الرحمن السَّعدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المكروه والمصائب إذا ابتلىٰ الله بها العبد، وأدىٰ فيها وظيفة الصبر والرضىٰ والتسليم؛ هانت وطأتها، وخفت مؤنتها، وكان تأميل العبد لأجرها وثوابها والتعبد لله بالقيام بوظيفة الصبر والرضىٰ؛ يدع الأشياء المرة حلوة، فتنسيه حلاوةُ أجرها مرارة صبرها»، فيه توجيه للتَّفكُّر في معاني الابتلاءات، وحكمة الله في ذلك، وقد ابتلىٰ الله صفوة خلقه، أنبياءه عليهم السلام لتكون أحوالهم بعد الابتلاء أكمل منه قبله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلىٰ به عباده وصفوته بما ساقهم به إلىٰ أجل الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا علىٰ جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذي لا سبيل إلىٰ عبورهم إلىٰ الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقهم والكرامة، فصورته صورة ابتلاء وامتحان، وباطنه فيه الرحمة والنعمة والمنَّة، فكم لله من نعمة جسيمة ومنة عظيمة تجنىٰ من قطوف الابتلاء والامتحان، فتأمل حال أبينا آدم عليه الصلاة والسلام، وما آلت إليه محنته من الاصطفاء والاجتباء والتوبة والهداية ورفعة المنزلة، ولولا تلك المحنة التي جرت عليه - بإخراجه من الجنة وتوابع ذلك - لما وصل إلىٰ ما وصل إليه، فكم بين حالته الأولىٰ وحالته الثانية في نهايته!

وتأمل حال أبينا الثاني نوح عليه الصلاة والسلام وما آلت إليه محنته وصبره

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (٢/ ٨٤٧، ٨٤٨).

علىٰ قومه تلك القرون كلها، حتىٰ أقر الله عينه، وأغرق أهل الأرض بدعوته، وجعل العالم بعده من ذريته، وجعله خامس خمسة هم أولو العزم الذين هم أفضل الرسل، وأمر رسوله ونبيه محمدًا ﷺ أن يصبر كصبره، وأثنىٰ عليه بالشكر، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء:٣] فوصفه بكمال الصبر والشكر، ثم تأمل حال أبينا الثالث إبراهيم عليه الصلاة والسلام إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء وعمود العالم وخليل رب العالمين من بني آدم، وتأمل ما آلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله، وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه ونصره دينه إلىٰ أن اتخذه الله خليلًا لنفسه، وأمر رسوله وخليله محمدًا ﷺ أن يتبع ملته».

علىٰ كل حال الواجب علىٰ المسلم أن يكون عبدًا شاكرًا صابرًا، ولا يستدعي لنفسه البلاء راجيًا الثَّواب بالصَّبر عليه، فساحة العافية لا يعدلها شيء، وقد كان النبيُّ ﷺ يتعوَّذ من جَهدِ البلاء؛ ففي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيّ ﷺ قال: «**تعوَّذوا بالله من جهد البلاء، ودرْك الشَّقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء**».

قال العلَّامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «جهد البلاء: شدَّته، وقلَّ ما يعرض البلاء لمؤمن إلَّا ويُكفر حوبًا أو يرفع درجة، فإذا اشتدَّ خيف منه، فلذلك استعاذ رسول الله ﷺ منه».

ومذاكرة النِّعم هو من شكرها، وهو أيضًا من أسباب السَّعادة، لأنَّ ذلك

(١) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٦/ ٤٠٩).

يملأ قلب المسلم من الفرح بنعم الله العظيمة وآلائه الجزيلة.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الشاكرون أطيب الناس نفوسًا، وأشرحهم صدورًا، وأقرهم عيونًا؛ فإن قلوبهم ملآنة من حمده، والاعتراف بنعمه، والاغتباط بكرمه، والابتهاج بإحسانه، وألسنتهم رطبة في كل وقت بشكره وذكره، وذلك أساس الحياة الطيبة، ونعيم الأرواح، وحصول جميع اللذائذ والأفراح، وقلوبهم في كل وقت متطلعة للمزيد، وطمعهم ورجاؤهم في كل وقت بفضل ربهم يقوىٰ ويزيد».

وقد خاطبنا الله في كتابه بأنواع نعمه ليذكِّرنا بقيمتها ولنؤدِّي حقها بالشُّكر، وخصَّ بالذِّكر أعظم النِّعم لنعرف قدرها الحقيقي، ولا نغفل عن فضلها، فنسعىٰ في حفظها، ونفرح بفضلها، وهي سبب سعادة الدَّارين، فمن أوتيها ما فاته شيء، ومن حُرمها حُرِم الخير كله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «ما أنعم عليهم –المسلمين - بنعمة أجل من أن هداهم لها، وجعلهم من أهلها وممن ارتضاها لهم وارتضاهم لها، فلهذا امتن علىٰ عباده بأن هداهم لها، قال تعالىٰ: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ**﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال معرفًا لعباده ومذكرًا لهم عظيم نعمته عليهم بها، مستدعيًا منهم

---

(١) الرِّياض النَّاضرة (ص٨٦، ٨٧).

(٢) مفتاح دار السَّعادة (٢/ ٨٥٤، ٨٥٥).

شكرهم علىٰ أن جعلهم من أهلها: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بـ (الكمال) والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام؛ إيذانًا في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل، ولا شيء خارجًا عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته. ووصف النعمة بـ (التمام)؛ إيذانًا بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار، وفي دار القرار.

وتأمل حسن اقتران (التمام) بالنعمة، وحسن اقتران (الكمال) بالدين، وإضافة الدين إليهم؛ إذ هم القائمون به، المقيمون له، وإضافة النعمة إليه؛ إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم، فهي نعمته حقًّا، وهم قابلوها. وأتىٰ في (الكمال) بـ (اللام) المؤذنة بالاختصاص، وأنه شيء خصوا به دون الأمم، وفي إتمام النعمة بـ(علىٰ) المؤْذِنة بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة، فجاء ﴿أتممت﴾ في مقابلة ﴿أَكۡمَلۡتُ﴾، و﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ في مقابلة ﴿لَكُمۡ﴾، و﴿نِعۡمَتِي﴾ في مقابلة ﴿دِينَكُمۡ﴾، وأكد ذلك، وزاده تقريرًا وكمالًا وإتمامًا للنعمة بقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾».



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٧- ومن أنفع الأشياء في هذا الموضع استعمال ما أرشد إليه النبي - ﷺ - في الحديث الصحيح حيث قال: «**انظروا إلىٰ من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلىٰ من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**»، رواه البخاري ومسلم. فإن العبد إذا نصب بين عينيه هذا الملحظ الجليل رآه يفوق جمعًا كثيرًا من الخلق في العافية وتوابعها، وفي الرزق وتوابعه مهما بلغت به الحال، فيزول قلقه وهمه وغمه، ويزداد سروره واغتباطه بنعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها.

وكلما طال تأمل العبد بنعم الله الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية؛ رأىٰ ربه قد أعطاه خيرًا كثيرًا ودفع عنه شرورًا متعددة، ولا شك أن هذا يدفع الهموم والغموم، ويوجب الفرح والسرور[1].

الشَّرْح:

مذاكرة النِّعم هو من شكرها، فالمسلم إذا تذاكر نعم الله عليه عرف إحسان ربّه إليه، وعرف مقدار ما به من النِّعم؛ فأوجب له ذلك شكر الله، وذلك عبوديَّة لله عَزَّوَجَلَّ، ومن أسباب حفظ النِّعم، ومن أسباب الرِّضىٰ عن الله والفرح به.

وقد حثَّنا النبيّ ﷺ علىٰ مذاكرة النِّعم، لئلَّا نكفر نعم الله علينا فننساها، وننسىٰ شكرها، ولنقوم بأداء حق الله فيها من عبوديَّته وشكره، ولئلَّا نغبن أنفسنا

(١) الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة (ص١٩).

عن ملاحظة ما بنا من نعم الله.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال رسول الله** ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من النَّاس: الصحَّة والفراغ**»، رواه البخاري.

وأمُّ النِّعم التي تتفرَّع منها كل النِّعم نعمة الهداية للإسلام، فمن أنعم الله عليه بالتَّوحيد فقد أعطاه سعادة الدُّنيا والآخرة.

فيا أيُّها المُنعم عليه بالهداية للإسلام، اعرف قدر هذه النِّعمة واحفظها بشكرها، ولا تتبدَّلها بالكفر والبدع، قال تعالىٰ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «تمام النِّعمة علىٰ العبد إنَّما هو بالهدىٰ والرَّحمة».

وقال ابن القيم[(٢)]: «النَّعيم التامُّ هو في الدِّين الحقّ علمًا وعملًا، فأهْلُهُ هم أصحاب النَّعيم الكامل كما أخبر الله بذلك في كتابه».

وأمرنا الله بمذاكرة أعظم النِّعم لنستشعر منَّته علينا بإنعامه وفضله وإحسانه، ونقوم بشكر هذه النِّعم وأداء حقِّها، وأن لا نغبن أنفسنا بالغفلة عن استشعار نعم الله التي رزقناها، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

والمسلم لو أخذ يحصي نعم الله عليه عجز عن ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وحسب

---

(١) إغاثة اللَّهفان (٢/ ٩٠٤).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٩٠٥).

المسلم أن يحصي أعظم نعم الله عليه؛ نعمة الإسلام.

فإذا عرفت حقيقة النَّعيم والسَّعادة فاطلبها بإرادة جازمة وعزيمة صادقة مستعينًا بالله في إدراكها.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن كمال العبد هو بأن يكون عارفًا بالنعيم الذي يطلبه والعمل الذي يوصل إليه، وأن يكون مع ذلك فيه إرادة جازمة لذلك العمل، ومحبة صادقة لذلك النعيم، وإلا فالعلم بالمطلوب وطريقه لا يحصله إن لم يقترن بذلك العمل، والإرادة الجازمة لا توجب وجود المراد إلا إذا لازمها الصبر، فصارت سعادة العبد وكمال لذته ونعيمه موقوفًا علىٰ هذه المقامات الخمسة:

١ - علمه بالنعيم المطلوب.

٢ - ومحبته له.

٣ - وعلمه بالطريق الموصل إليه.

٤ - وعمله به.

٥ - وصبره علىٰ ذلك».

والإنسان إذا مدَّ عينيه إلىٰ ما متَّع الله به من هو أكثر منه رزقًا تعب، وما من غني إلا وهناك من هو أغنىٰ منه، وليس الغنىٰ بكثرة المال، وإنَّما الغنىٰ غنىٰ

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٩٠٩، ٩١٠).

النَّفس، فالقناعة تريح النُّفوس، وخزائن الله تُطلب منه، فما يفتح الله للنَّاس من رحمة فلا ممسك لها.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إذا علم العبد أن الله تعالىٰ عنده جميع مطالب السَّائلين، وبيده خزائن الخيرات والبركات، وأنَّه: ما يفتح للنَّاس من رحمةٍ فلا ممسك لها، وما يُمْسك فلا مرسل له، وأنَّ النِّعم كلَّها منه، لا يأتي بالحسنات إلَّا هو، ولا يدفع السَّيِّئات إلَّا هو، وأنَّه هو النَّافع الضَّارّ، المعطي المانع، وأنَّ الخلق ليس بيدهم من هذه الأمور شيء، وأنَّهم جميعًا - مهما كانت أحوالهم ومراتبهم - فإنهم فقراء إلىٰ الله في كل شؤونهم.

من عرف هذه حق المعرفة؛ اضطرَّته هذه المعرفة الجليلة الواصلة إلىٰ القلب إلىٰ تعليق الأمور كلّها علىٰ الله، وتعلُّق القلب به، وانقطاعه عن الخلق.

وعلم العبد أنَّه كلَّما قوي تعلُّقه وطمعه في فضله؛ أتاه من الخير والبركة وطيب الحياة ما لا يخطر علىٰ بال».

وقال العلَّامة السَّعدي[٢]: «كلَّما قوي طمع العبد بالله، وقوي رجاؤه لربّه، وقوي توكُّله، يسَّر الله له كل عسير، وهوَّن عليه كل صعب، ورزقه من حيث لا يحتسب، وكفاه الهموم كلَّها، وكسب الحريَّة التي لا أرفع منها ولا أنفع».

فالتَّعفُّف والقناعة وغنىٰ النَّفس وامتلاء القلب من الرَّجاء لله دون غيره من أعظم أسباب السَّعادة والعزّ.

---

(١) الرِّياض الناضرة (ص١٦٩).

(٢) الرِّياض النَّاضرة (ص١٧٠).

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا أهنأ حياة ولا ألذ ممن قطع رجاءه عن الخلق، واستغنىٰ عما في أيديهم، ولم يتطلع إلىٰ ما عندهم، بل قنع برزق الله، واستغنىٰ بفضل الله، وعلم أن القليل من الرزق إذا كسب القناعة؛ خير من الكثير الذي لا يُغني، فليس الغنىٰ عن كثرة العَرَض، إنما الغنىٰ في الحقيقة غنىٰ القلب؛ غناه بالله وبرزقه المتيسر عن رجاء الخلق وسؤالهم، والاستعباد لهم في مطالب الدُّنيا، والرُّضوخ لرِقِّهم».

ومن حسن ظنِّ المسلم بربِّه وشكره علىٰ ما أوتيه من نعمه؛ أن يكون اعتقاده أنَّ ما لم يؤته الله من زهرة الدُّنيا ما عند الله له من نعيم الآخرة خير وأبقىٰ، وربَّما ما تمنىٰ حصوله كان سببًا في إعراضه عن ربه أو عدم أداء حقّه، فحفظه الله من أسباب الإعراض عن ربِّه الذي لا غنىٰ بنا عنه طرفة عين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الرب سبحانه لا يمنع عبده المؤمن شيئًا من الدنيا إلا ويؤتيه أفضل منه، وأنفع له، وليس ذلك لغير المؤمن؛ فإنه سبحانه يمنعه الحظ الأدنىٰ الخسيس ولا يرضىٰ له به ليعطيه الحظ الأعلىٰ النفيس، والعبد - لجهله بمصالح نفسه وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه - لا يعرف التفاوت بين ما منع منه وبين ما ذُخِرَ له، بل هو مولع بحب العاجل وإن كان دنيًّا وبقلة الرغبة في الآجل وإن كان عليًّا، ولو أنصف العبد ربه - وأنىٰ له بذلك - لعلم أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه

---

(١) الرِّياض النَّاضرة (ص١٦٨).

(٢) الفوائد (ص٨٠).

من ذلك، فما منعه إلا ليعطيه ولا ابتلاه إلا ليعافيه ولا امتحنه إلا ليصافيه ولا أماته إلا ليحييه ولا أخرجه إلىٰ هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليه وليسلك الطريق الموصلة إليه».

ولابُدَّ أن يتدبَّر المسلم سنَّة الله في خلقه في الدُّنيا، ويعرف فرق ما بين الدَّارين، فالدُّنيا دار اختبار وعبوديَّة وتكليف وابتلاء بالسرَّاء والضرَّاء؛ ليستخرج الله عبوديَّة عباده في كل الأحوال، قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، فلا تخلو الدنيا من كدر، وإنَّما يسعد المسلم إذا كان صبراً عابدًا في كل الأحوال.

أمَّا الدَّار الآخرة فهي دار الثَّواب والسَّعادة الحقيقيَّة الكاملة من كل شيء لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

وحكم الله كثيرة في ابتلاء عباده بأحوال السَّرَّاء والضَّرَّاء، يريد سبحانه إيقاظهم من الغفلة، واستخراج عبوديَّتهم في جميع الأحوال.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من رحمته: أن نغص عليهم الدنيا وكدرها؛ لئلا يسكنوا إليها ولا يطمئنوا إليها ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلىٰ ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم وابتلاهم ليعافيهم وأماتهم ليحييهم».

والله عَزَّوَجَلَّ له حكمة بالغة في مفاضلته بين عباده في الرِّزق، فلولا ذلك ما قامت أمور النَّاس ومصالحهم، فالفقير يعمل عند الغني، والغني ينمِّي ماله

---

(١) إغاثة اللَّهفان (٢/ ٩٠٣).

بعمل النَّاس لديه، فيأخذ العمال أجورهم ويقضي التُّجَّار حوائجهم، قال تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

ومع ما يتفاضل فيه النَّاس من أسباب طلب الرِّزق من قوَّة العقل والبدن فالتَّوفيق من الله عَزَّوَجَلَّ، فكم من حاذق ساع في أسباب رزقه لم يُدرك إلا ما كتب الله له من غنًىٰ محدود، وكم من ضعيف البدن والعقل والتَّدبير قد رزقه الله رزقًا عظيمًا، فالله يرزق من يشاء وخزائنه تستجلب من حيث احتسب المخلوق ومن حيث لم يحتسب، وهذا كله يوجب علىٰ المسلم أن يكون الله وحده رجاءه.

قال العلامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «بذلك يُعلم أنَّ الأمر كلَّه لله، كما ننظر إلىٰ القويّ من النَّاس الذي جمع بين القوَّة والذَّكاء، وبين السَّعي الحثيث، ورزْقه مقتر، ونرىٰ الضَّعيف البليد الذي ليس عنده من الذَّكاء والقوَّة عُشر معشار ما عند الأوَّل، والله قد بسط له الرِّزق، ويسَّر له أمره».

واجعل ما فاتك من لذَّة الدُّنيا سببًا للزِّيادة في الآخرة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «من أحب اللذة ودوامها والعيش الطيب فليجعل لذة الدنيا موصلًا له إلىٰ لذة الآخرة، بأن يستعين بها علىٰ فراغ قلبه لله عَزَّوَجَلَّ وإرادته عبادته، فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة علىٰ طلبه لا بحكم مجرد الشهوة والهوىٰ، وإن كان ممن زويت عنه لذات الدنيا وطيباتها فليجعل ما نقص

---

(١) الرِّياض النَّاضرة (ص٢٣٣).

(٢) الفوائد (ص٢٢١).

منها زيادة في لذة الآخرة، ويُجِمَّ نفسه هاهنا بالترك ليستوفيها كاملة هناك».

فالمسلم الموفَّق اتَّخذ الدُّنيا حرثًا للآخرة، والكافر فني بمتاع الدُّنيا عن الآخرة، ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

قال تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢١٢].

قال شيخنا العلَّامة المجدِّد محمد الصَّالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن المؤمنين ليست الدنيا في أعينهم شيئًا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ ولهذا كان الرسول ﷺ إذا رأىٰ ما يعجبه في الدنيا يقول: «**لبيك! إن العيش عيش الآخرة**»، لتوجيه النفس إلىٰ إجابة الله، لا إلىٰ إجابة رغبتها، ثم يقنع النفس أيضًا: أني ما صددتك وأجبت الرب عَزَّوَجَلَّ إلا لخير؛ لأن العيش عيش الآخرة، والعجيب أن من طلب عيش الآخرة طاب له عيش الدنيا، ومن طلب عيش الدنيا ضاعت عليه الدنيا والآخرة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ١٥]؛ هذه هي الخسارة: خسروا أنفسهم؛ لأن مآلهم النار - والعياذ بالله -، وأهلوهم أيضًا الذين في النار لا يهتم بعضهم ببعض؛ كل - والعياذ بالله - شقيّ فيما هو فيه».

وحسبنا هنا مذاكرة أمَّهات النِّعم التي نبَّه عليها رسول الله ﷺ لنعرف قيمتها، ونحمد الله عليها، ونشكره عليها، فيكون ذلك من أسباب حفظها.

عن عبيد الله بن مِحْصن الخطميِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافًى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنَّما حيزت له**

---

(١) تفسير سورة البقرة (٣/ ٢٣).

الدُّنيا»، رواه التِّرمذي وقال: هذا حديث حسن غريب[(١)].

قال شيخنا العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنه - سبحانه - هو المنعم المحسن إلىٰ عباده، ونعَمُه متنوِّعة: نعمة الصحة، ونعمة الإسلام، ونعمة الأمن، ونعمة المال، ونعمة الزوجة، ونعمة الأولاد، إلىٰ غير ذلك، فالنِّعم لا تُحصىٰ، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فالواجب علىٰ المؤمن أن يشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ هذه النعم العظيمة؛ فهو الذي أعطاك الصحَّة في جميع بدنك، وإنما تعرف فضل هذه الصحة علىٰ الكمال والتمام إذا وجدت المرض؛ فمن وجد المرض في عينه أو أذنه أو سنه، أو أي عضو من أعضائه؛ عرف فضل الصحة علىٰ الحقيقة، فأوجب له ذلك شكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، والإنابة إليه، والمسارعة إلىٰ مراضيه عَزَّوَجَلَّ.

وهكذا نعمة الإسلام؛ إنما يُعرف عِظَم شأنها بمعرفة حال الكفار، وما هم عليه من الباطل، فمن عرف الكفر وعاقبته الوخيمة، وما أعد الله لأهله من العذاب، والبلاء، والعاقبة السيئة؛ عرف فضل الإسلام، وأنَّه أعظم نعمة وأكبر منَّة أن هداك الله للإسلام الذي وعد سبحانه أهله الجنَّة والكرامة، وهو إخلاص العبادة لله وحده، ومتابعة رسوله محمد ﷺ، والصِّدق في ذلك بطاعة الأوامر وترك النَّواهي.

وهكذا بقيَّة النِّعم؛ فنعمة الأمن من وجد المخاوف عرف قدر نعمة الأمن».

---

(١) جامع التِّرمذي، كتاب الزُّهد، باب في الوصف من حيزت له الدُّنيا (ص٥٣٦ - رقم ٢٣٤٦).

(٢) حديث المساء (ص٦٤، ٦٥).

والصَّبر في السرَّاء والضرَّاء هو الذي يُدرك به المسلم خيري الدُّنيا والآخرة، فيؤدِّي عبوديَّة الصبر والشُّكر، وهو في كل حال عبد شكور لربه.

وبالصَّبر تتبدَّل الأحوال؛ ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشَّرح: ٥، ٦]، فيكون المؤمن مرتاح البال في جميع الأحوال، وهذه هي السَّعادة الحقيقيَّة.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «بالصبر يرتقي العبد إلىٰ أعلىٰ المقامات، وهو مقام الشاكرين الذين يشكرون الله علىٰ السراء والضراء واليسر والعسر، يشكرون الله في كل أحوالهم.

يشكرونه علىٰ نعمة العافية والصحة، وسلامة الأبدان؛ ويشكرونه علىٰ نعمة الأسماع والأبصار والعقول والبيان، ويشكرونه علىٰ تيسير الرزق، والأسباب المتنوعة التي بها تكتسب الأرزاق، وخصوصًا إذا يسر الله للعبد سببًا مريحًا لقلبه، معينًا علىٰ الخير، فإن هذا من بركة الرزق وكماله، ويحمدون الله علىٰ دفع المكاره والملمات. وكذلك يحمدون الله - أبلغ حمد - علىٰ نعمة الإسلام والإيمان والهداية إلىٰ الخير، والتوفيق للإحسان.

نعمة الله بالتوفيق للتقوىٰ، أجلّ النِّعم وأعلاها، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤].

من حصلت له نعمة العلم والإيمان؛ فقد تمت عليه النعمة من جميع الوجوه، وقد نال من ربه كل ما يؤمله ويرجوه. فيا من توالت عليه النعم،

---

(١) الرِّياض النَّاضرة (ص٨٦).

وصُرفت عنه النقم، اشكر الله علىٰ ذلك؛ لتبقىٰ وتكمل، فالشكر مقرون بالمزيد، وكفران النعم مقرون بالمحق والعذاب الشديد».

والمسلم الموفَّق هو الذي يقصد ربَّه برجاء أحب النِّعم، وأنفعها، وسبب سعادة الدُّنيا والآخرة.

وقد بيَّن لنا الله حال خير خلقه الذين يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وحسنة الدُّنيا هي العلم النَّافع والعمل الصَّالح، وحسنة الآخرة الجنَّة، ومن غُبن معرفة قدر هذه النِّعم فهو الذي حرم نفسه أسباب السَّعادة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال تعالىٰ: **﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾** [آل عمران: ١٦٤]، وذمَّ من لم يعرف قَدْرَ هذه النِّعمة، فقال تعالىٰ: **﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾** [إبراهيم: ٢٨]».

وكان النبيُّ ﷺ **إذا صلَّىٰ الفجر سأل ربه:** علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا، ورزقًا طيِّبًا، رواه الطَّيالسي من حديث أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وهذه الثَّلاث من حازها فقد حاز خيري الدُّنيا والآخرة.

وكان الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في عهد النبي ﷺ في أوَّل الأمر من ضيق العيش وقلَّة الرِّزق ما هو معلوم، ثم استعملهم الله في إقامة دينه والجهاد في سبيله،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٨٧).

فملكوا مشارق الأرض ومغاربها وبُسطت لهم الدُّنيا، فطوبىٰ لمن كان عبدًا شكورًا في السرَّاء والضرَّاء.

دخل الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **يومًا علىٰ النبيّ** ﷺ **فقال**: ادع الله أن يوسِّع علىٰ أُمَّتك؛ فإنَّ فارس والرُّوم قد وُسع عليهم، وأُعطوا الدُّنيا، وهم لا يعبدون الله، وكان النبي ﷺ متكئًا، فقال: «**أو في شك أنت يا ابن الخطَّاب؟! أولئك قوم عُجِّلت لهم طيِّباتهم في الحياة الدُّنيا**»، فقال الفاروق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله! استغفر لي، رواه البخاري.

قال العلَّامة ابن بطَّال المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في فوائده**[1]: «فيه: أنه لا يجب أن يتسخط أحد حاله، ولا ما قسم الله له، ولا يستحقر نعمة الله عنده، ولا سابق فضله؛ لأنه يخاف عليه ضعف يقينه، وفيه أن المتقلل من الدنيا ليرفع طيباته إلىٰ دار البقاء خير حالًا ممن تعجلها في الدنيا الفانية».

وابن الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لم يتسخَّط حال رسول الله ﷺ، ولا حال نسائه، وإنَّما أراد أن المؤمنين أولىٰ بنعم الله؛ لأنَّهم يستعملونها في طاعته، قال تعالىٰ: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ**﴾ [الأعراف: ٣٢].

والفاروق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في خلافته جُلبت إليه في المدينة كنوز كسرىٰ والروم فقسمها بين المسلمين، وأعرض هو عنها.

---

(١) شرح صحيح البخاري (٦/ ٥٩٧).

وعندما قدم مال البحرين إلىٰ رسول الله ﷺ بالمدينة، فأقبل إليه بعض الصَّحابة، قال رسول الله ﷺ: «**والله! ما الفقر أخشىٰ عليكم، ولكنِّي أخشىٰ عليكم أن تُبسط الدُّنيا عليكم كما بُسطت علىٰ من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**»، رواه البخاري ومسلم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **عن رسول الله** ﷺ **أنَّه قال**: «**إذا فُتحت عليكم فارس والرُّوم، أي قوم أنتم؟**»، قال عبد الرَّحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نقول كما أمرنا الله، قال رسول الله ﷺ: «**أو غير ذلك، تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون**»، رواه مسلم.

وما كل مُنعم عليه شكور، ولا كل نعمة عليه كانت عونًا له علىٰ مرضاة الله، وما كل منعم عليه لرضىٰ الله عنه، فالنِّعم ابتلاء من الله، فمن أدَّىٰ حقَّها وشكرها لله؛ كانت خيرًا له، فنعم المال الصَّالح للعبد الصَّالح، وقد أعطىٰ الله الكفَّار الدُّنيا، ولو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقىٰ منها كافرًا شربة ماء، فعجَّل لهم طيِّباتهم في الحياة الدُّنيا، وما لهم في الآخرة من نصيب.

قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «يخبر تعالىٰ عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه جاهل ظالم، لا علم له بالعواقب، يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل علىٰ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٩٧٠).

كرامته عنده وقربه منه، وأنه إذا ﴿قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧] أي: ضيَّقه، فصار بقدر قوته لا يفضل منه، أن هذا إهانة من الله له، فرد الله عليه هذا الحسبان بقوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس كل من نعَّمْتُه في الدنيا فهو كريم علي، ولا كل من قدرت عليه رزقه فهو مهان لدي، وإنما الغنىٰ والفقر، والسعة والضيق؛ ابتلاء من الله، وامتحان يمتحن به العباد، ليرىٰ من يقوم له بالشكر والصبر، فيثيبه علىٰ ذلك الثواب الجزيل، ممن ليس كذلك فينقله إلىٰ العذاب الوبيل».

ومتاع الدُّنيا بالنِّسبة للآخرة قليل؛ قال تعالىٰ: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

وقال النبي ﷺ: «لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدُّنيا وما فيها»، رواه البخاري.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١]، قال العلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تضمنت – الآية – التزهيد في الدنيا، وأن غضارتها وحُسْنها الذي متع به المترفين ليس لكرامتهم عليه، وإنما ذلك للابتلاء والاختبار؛ لينظر أيهم أحسن عملًا، وأيهم أكمل عقلًا، فإن العاقل هو الذي يؤثر النفيس الباقي علىٰ الدني الفاني، ولهذا قال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي الذي أعدَّه للطائعين الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولم يغرهم رونق الدنيا وبهجتها الزائلة، بل نظروا إلىٰ باطن ذلك، حين نظر الجهال إلىٰ ظاهرها، وعرفوا المقصود، ومقدار

---

(١) المواهب الربَّانيَّة من الآيات القرآنيَّة (ص٣٩).

التفاوت، ودرجات الأمور، فرِزْق الله لهؤلاء خير وأبقىٰ؛ أي أكمل في كل صنف من أصناف الكمال، وهو مع ذلك باق لا يزول وأما ما متع الله به أهل الدنيا فزهرة الحياة الدنيا تمر سريعًا وتذهب جميعًا؛ ولهذا نهىٰ الله عَزَّوَجَلَّ رسوله ﷺ أن يمد عينيه إلىٰ ما متع به هؤلاء، ومد العين هو التطلع والتشرُّف لذلك، لا مجرد نظر العين، وإنما هو نظر القلب؛ ولهذا لم يقل: ولا تنظر عيناك إلىٰ ما متعنا به أزواجًا. فمدُّ العين متضمن لاستحسان القلب وتطلعه إلىٰ ذلك».

ولو ذهبنا نحصي نعم الله علينا لعجزنا عن ذلك لكثرتها، وتواليها من ربنا، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، وأعظم النِّعم ما كان سببًا في عبوديَّة الله وذكره والسَّعي في طلب حوائج الدُّنيا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أعلم أن العبد إذا شرع في قول أو عمل يبتغي به مرضاة الله مطالعًا فيه منة الله عليه به، وتوفيقه له فيه، وأنه بالله لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته، بل هو بالذي أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن، فالذي منَّ عليه بذلك هو الذي منَّ عليه بالقول والفعل».

علىٰ كل حال، فالنِّعم التي أنت فيها احفظها، والنِّعم التي غفلت عن استشعارها تذكَّرها فإنَّ ذلك من شكرها، والنِّعم التي ترجوها فاطلبها بأسبابها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «النعم ثلاثة:

---

(١) الفوائد (ص٢٢٤).

(٢) الفوائد (ص٢٥٢).

١ - نعمة حاصلة يعلم بها العبد.

٢ - ونعمة منتظرة يرجوها.

٣ - ونعمة هو فيها لا يشعر بها.

فإذا أراد الله إتمام نعمته علىٰ عبده عرّفه نعمته الحاضرة، وأعطاه من شكره قيدًا يقيدها به حتىٰ لا تشرد، فإنها تشرد بالمعصية وتقيَّد بالشكر، ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة، وبصّره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها ووفقه لاجتنابها، وإذا بها قد وافت إليه علىٰ أتم الوجوه، وعرّفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها».

وقول العلَّامة عبد الرحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أنفع الأشياء في هذا الموضع: استعمال ما أرشد إليه النبيُّ ﷺ في الحديث الصَّحيح حيث قال: «**انظروا إلىٰ من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلىٰ من هو فوقكم، فإنَّه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**»، فإنَّ العبد إذا نصب بين عينيه هذا الملحظ الجليل رآه يفوق جمعًا كثيرًا من الخلق»، توجيه للأخذ بخلق القناعة، وهو كنز السَّعادة، يريح النَّفس من كدر الحسرة، ويحفظ المسلم من الطَّمع والشَّره والحسد، ويبعث علىٰ الرضىٰ عن الله والشُّكر له علىٰ نعمه التي لا تحصىٰ.

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**قد أفلح من أسلم، ورُزِقَ كفافًا، وقنَّعه الله بما آتاه**»، رواه مسلم.

فالقناعة من أسباب راحة البال، وسعادة النَّفس، واطمئنانها، وذلك باعثه التَّوحيد، فإنَّ المسلم إذا علم أنَّ ما قدَّره الله له من رزقه لن يفوته انقطعت عنه الحسرات والهموم من خشية فوات الرِّزق، ووثق بعطاء الله الذي كتبه له، قال

النبيُّ ﷺ: «**لن تموت نفس حتىٰ تستكمل رزقها**»، رواه البخاريّ في الأدب المفرد.

فالقناعة كنز المسلم العظيم، فهو الذي يحفظ عليه دينه، ويكف نفسه عن الطَّمع الذي يضرّه.

قال عليُّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **لأحد الواعظين**: ما ثبات الدِّين وزواله؟

فقال: ثبات الدِّين الورع، وزواله الطَّمع[1].

فالطَّمع والشَّره في متاع الدُّنيا وأموالها سبب لهلاك النَّاس، فاعتصم بالله واستعن به في كفّ النَّفس عن ذلك، كن سخيّ النَّفس، وعليك بالقناعة فإنَّه غنىٰ النَّفس، وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم السَّاعة حتىٰ يحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتتل النَّاس عليه، فيُقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم: لعلِّي أكون أنا الذي أنجو**».

وقال سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **لابنه مصعب**: يا بنيّ ! إذا طلبت شيئًا فاطلبه بالقناعة، فإنَّه من لا قناعة له لم يغنه المال[2].

وقال أبو الدَّرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: يا بُنيّ، لا تتبع بصرَك كل ما ترىٰ في النَّاس، فإنَّه من يتبع بصره كل ما يرىٰ في النَّاس يطل تحزُّنه، ولا يشف غيظه، ومن لا يعرف نعمة الله إلَّا في مطعمه أو مشربه فقد قلّ علمه، وحضر عذابه، ومن لا يكن غنيًّا من الدُّنيا فلا دنيا له[3].

---

(١) رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٥٦).

(٢) البداية والنهاية (٤/ ٤٧١).

(٣) الجامع لعلوم الإمام أحمد (٢٠/ ٢٩٩).

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٨- **ومن الأسباب الموجبة للسرور وزوال الهم والغم**: السعي في إزالة الأسباب الجالبة للهموم، وفي تحصيل الأسباب الجالبة للسرور، وذلك بنسيان ما مضىٰ عليه من المكاره التي لا يمكنه ردها، ومعرفته أن اشتغال فكره فيها من باب العبث والمحال، وأن ذلك حمق وجنون، فيجاهد قلبه عن التفكر فيها، وكذلك يجاهد قلبه عن قلقه لما يستقبله، مما يتوهمه من فقر أو خوف أو غيرهما من المكاره التي يتخيلها في مستقبل حياته، فيعلم أن الأمور المستقبلة مجهول ما يقع فيها من خير وشر وآمال وآلام، وأنها بيد العزيز الحكيم، ليس بيد العباد منها شيء إلا السعي في تحصيل خيراتها، ودفع مضراتها، ويعلم العبد أنه إذا صرف فكره عن قلقه من أجل مستقبل أمره، واتكل علىٰ ربه في إصلاحه، واطمأن إليه في ذلك، إذا فعل ذلك اطمأنَّ قلبه وصلحت أحواله، وزال عنه همه وقلقه[١].

الشَّرح:

الحرص علىٰ النِّعم جبلة فُطر عليها ابن آدم، قال تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

(١) الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة (ص٢٠).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

واجعل ما فُطرت عليه سببًا لمرضاة الله وسعادتك بالحلال منها، فالمال لا تقصده للفخر والخيلاء والتكبُّر علىٰ الفقراء، خذه من حلاله، وضعه في صلة الأرحام، ووجوه البرّ والطَّاعات(١).

وخذه بسخاوة نفس، واحرص بكل حال علىٰ رضوان الله.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «يخبر تعالىٰ أنه زيَّن للناس حب الشهوات الدنيوية، وخص هذه الأمور المذكورة لأنها أعظم شهوات الدنيا وغيرها تبع لها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾ [الكهف: ٧]، فلما زيّنت لهم هذه المذكورات بما فيها من الدواعي المثيرات، تعلقت بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم، وانقسموا بحسب الواقع إلىٰ قسمين: قسم جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتَّعون بلذاتها ويتناولون شهواتها، ولا يبالون علىٰ أي وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زادًا لهم إلىٰ دار الشقاء والعناء والعذاب، والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها، وأن الله جعلها ابتلاءً وامتحانًا لعباده، ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته علىٰ لذاته وشهواته، فجعلوها وسيلة لهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٤٩٤).

(٢) تيسير الكريم الرَّحمن (ص١١٧).

وطريقًا يتزودون منها لآخرتهم ويتمتعون بما يتمتعون به علىٰ وجه الاستعانة به علىٰ مرضاته، قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، وعلموا أنها كما قال الله فيها ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤] فجعلوها معبرًا إلىٰ الدار الآخرة ومتجرًا يرجون بها الفوائد الفاخرة، فهؤلاء صارت لهم زادًا إلىٰ ربهم».

والحرص المذموم علىٰ غير المأذون هو الشيء الذي كاد به إبليس عليه لعنة الله أبانا آدم عليه الصلاة والسلام، فالله عَزَّوَجَلَّ أسكن آدم الجنَّة وأباح له كل ما فيها إلَّا شجرة واحدة، فجعل إبليس يوسوس له بأنَّها سبب للخلد والملك الذي لا يبلىٰ، فكان ذلك سبب خروجهما من الجنَّة، ثم اجتبىٰ ربُّنا الرءوف الودود الرَّحيم آدم لهداه وتاب عليه.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن الله جعل هذه القصة لنا معتبرًا، وأن الحسد والكبر والحرص من أخطر الأخلاق علىٰ العبد، فكبر إبليس وحسده لآدم صيره إلىٰ ما ترىٰ، وحرص آدم وزوجه حملهما علىٰ تناول الشجرة، ولولا تدارك رحمة الله لهما لأودت بهما إلىٰ الهلاك».

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ

---

(١) تيسير اللَّطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن (ص٢٠٦).

ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١١٥-١٢٢].

علىٰ كل حال المذموم هو الشَّره في طلب لذَّات الدُّنيا، والغفلة بها عن طاعة الله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩]، وأخذها من الوجوه الغير مباحة، أو منع حقِّها، فمن أخذ المال من وجوهه المباحة بسخاوة نفس، وأنفقه فيما يرضي الله بُورك له فيه؛ ففي الصَّحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بحقِّه، ووضعه في حقِّه، فنعم المعونة هو**».

فالمال اجعله سببًا لعبوديَّتك لله، ولا تجعل نفسك عبدًا له، فتعبُّد القلب للمال؛ هو الفرح لكثرته، والحزن لنقصه، رقٌّ للقلب وفساد له، فمن كان هذا حاله كانت عبوديَّته للمال من جهة انتهاء رغبته إليه.

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **أنَّ رسول الله ﷺ قال: «تعس عبد الدِّينار، تعس عبد الدِّرهم، إن أُعطي رضيَ، وإن مُنع سخط»**، رواه البخاري.

فاملأ قلبك من الرَّغبة إلىٰ الله، والوقوف مع أمره ونهيه، واحذر المخيلة بالمال واتِّخاذه سببًا للمفاخرة، فليس ذلك معيار التَّفاضل، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «إنَّما يُذم منها - الدُّنيا - حرام من غير وجهه، أو حلال علىٰ سبيل التَّكاثر والتَّفاخر، وما يقتنىٰ قصد المباهاة

---

(١) شرح حديث جبريل (ص٦٤٥).

والمماراة، فذلك الذي هو ممقوت عند ذوي الألباب».

والإنسان في هذه الدُّنيا ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وسعيه إذا كان في منافعه الدِّينية والدُّنيويَّة مستصحبًا الاستعانة بالله وملازمة ذكره هانت عليه الأمور وتيسَّرت عليه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «من أدركه الضجر من قوة التكاليف وأعباء الأمر وأثقاله، ولا سيما من أقيم مقام التبليغ عن الله ومجاهدة أعداء الله وقطاع الطريق إليه؛ فإن ما يحمله ويتحمله فوق ما يحمله الناس ويتحملونه، فلا بد أن يدركه الضجر ويضعف صبره فإذا أراد الله أن يريحه ويحمل عنه أنزل عليه سكينته فاطمأن إلىٰ حكمه الديني وحكمه القدري، ولا طمأنينة له بدون مشاهدة الحكمين، وبحسب مشاهدته لهما تكون طمأنينته، فإنه إذا اطمأن إلىٰ حكمه الديني علم أنه دينه الحق، وهو صراطه المستقيم، وهو ناصره وناصر أهله وكافيهم ووليهم.

وإذا اطمأنَّ إلىٰ حكمه الكوني: علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأنه ما يشاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف اليقين والإيمان».

الدُّنيا اجعلها حرثًا للآخرة، واسأل الله من فضله لتكون عونًا لك علىٰ الدِّين، وسببًا لأنواع الطَّاعات التي من أعظمها الجهاد بالمال وبناء المساجد والسَّعي علىٰ الأرملة والمسكين، ونشر العلم.

---

(١) مدارج السَّالكين (٢/ ٢١٠).

وإنَّما ضلَّ عبيد الدِّرهم والدِّينار حين فنوا بالوسائل عن المقاصد، فالدُّنيا وسيلة للآخرة، ومن فني بالوسيلة عن المقصد فقد حُرم خير المال وصار عليه وبال.

قال تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء: ١٣٤]، فالله عَزَّوَجَلَّ يحث عباده علىٰ العمل للآخرة واتِّخاذ الدُّنيا سببًا لعبوديَّته، لا للإعراض عنه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ أي: يا من ليس هَمُّه إلا الدنيا، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سألته من هذه أغناك وأعطاك وأقناك، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢]، وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ﴾ [الشورىٰ: ٢٠] ، وقال تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [الإسراء: ١٨-٢١] الآيات».

والمال يحصيه الله عليك، وتُحاسب عليه من أين اكتسبته؟ وفيم أنفقته؟ فاطلبه من وجوه المباحة، وأنفقه في مراضي الله.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الدُّنيا حلالها حساب، وحرامها عقاب».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٧٩٤، ٧٩٥).

(٢) آداب الحسن (ص٧٦).

والمسلم متىٰ اهتدىٰ إلىٰ مصالح دينه ودنياه، وكان مستعينًا بالله ساعيًا في تحصيل ما ينفعه ولا يضره؛ فقد أخذ بأسباب السَّعادة الدُّنيويَّة والأخرويَّة، وموجز ذلك كله في تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ينبوع الخير وأصله إخلاص العبد لربِّه عبادةً واستعانة، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وفي قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وفي قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾ [الشورىٰ: ١٠]».

وقد أمر الله رسوله محمدًا ﷺ بقصر عينيه عن النَّظر إلىٰ ما أوتيه من بُسط له رزقه، وهو خطاب لعموم المؤمنين، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: لا تنظر إلىٰ ما لهؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم، وما فيه من النعيم فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك، وقليل من عبادي الشكور.

وقال مجاهد: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ يعني: الأغنياء، فقد آتاك خيرًا مما آتاهم، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨]، وكذلك ما ادخره الله تعالىٰ لرسوله ﷺ في الآخرة أمر عظيم لا يُحَدّ ولا يوصف، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحىٰ: ٥]، ولهذا قال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]».

---

(١) الوصيَّة الصُّغرىٰ (ص٧١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٤٩).

والنَّبي ﷺ وأصحابه قاموا بأسباب الدُّنيا التي جمعت لهم ثواب الدُّنيا والآخرة، فلم يعطلوا الدُّنيا عن أسباب إقامة الدِّين، فعمَّروا القلوب بتقوىٰ الله، وأقاموا من أسباب الدُّنيا ما ينصر دين الله، وأخذ المسلمون بسيرتهم في ذلك، فظهر دين الله في مشارق الأرض ومغاربها بما استعملوه من الصّناعات وما أنفقوه من الأموال في الجهاد في سبيل الله، فعتقوا رقاب النَّاس من النَّار، وأقاموا حكم الله في الأرض، وما أُوتوه من متاع الدُّنيا استعانوا به علىٰ عبادة الله وشكره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا خلاف أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كانت لهم أسباب ومعائش شتىٰ، مع كثرة اشتغالهم بالغزو، الذي هو من أشد الأعمال علىٰ النفوس، وكان تورعهم واجتهادهم وفقههم الذي يتدارسونه بينهم معرفة الحلال والحرام في المآكل، والمشارب، والملابس، والمساكن، والمناكح، ونحو ذلك، وكانوا يرجعون في ذلك كله إلىٰ الكتاب والسنة، ويستفتون رسول الله ﷺ في حال حياته، ويسأل بعضهم بعضًا عن سنته بعد وفاته، حتىٰ حفظ عنهم في باب المعاملات ما قطع حجة كل أَفَّاك أثيم، وعرف من شعارهم ما لو تمسكنا به لم نعدل عن النهج القويم، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلىٰ صراط مستقيم».

والذي تصلح عليه أمور الدُّنيا والآخرة؛ القيام بالضَّروريَّات والحاجيَّات التي تكون سببًا في قيام دين النَّاس، وحفظ أبدانهم ورعاية معايشهم لتحقيق

---

(١) شرح حديث جبريل (ص٦٤١).



عبوديَّة الله، قال تعالىٰ: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وتعطيل الدُّنيا عن أسباب عمارتها مضارَّة بالنَّاس، وتفويت لمصالحهم، ومن أسباب ضعف المسلمين وتسلُّط الأعداء عليهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن الناس يحتاجون إلىٰ الصناعات، كالفلاحة، والبناية، والنساجة، إذ لا تتم أمورهم إلا بأقوات ومساكن ولباس ونحو ذلك، فإذا لم يجلب لهم من المصالح ما لا بد لهم منه أضر بهم ذلك».

ومن هنا يظهر لنا حكم الصنائع وأنواع الأعمال والمعاملات التي تقوم بها ضروريات النَّاس وحاجيَّاتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «ذهب جماعة من الأئمة كمالك، والأوزاعي، وسفيان، والليث بن سعد، وإسحاق بن راهويه، وبه قال أبو حامد الغزالي وأبو الفرج بن الجوزي، أنَّ هذه الصَّنائع فرض كفاية، فإنَّه لا تتمّ المصالح بين النَّاس بدون ذلك، كالجهاد، وطلب العلم الشَّرعي».

والمسلم إذا أراد أن يجمع المال من وجوهه المباحة، فليأت بأسباب ذلك، ولا يركن إلىٰ السَّخط من قدر الله بما أنعم علىٰ الأغنياء، ولا يتطلَّع إلىٰ ما في أيديهم، فعبد الرَّحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هاجر من مكَّة إلىٰ المدينة، ثم جاء إلىٰ سوق المدينة واتَّجر فيه فصار من أغنىٰ الخلق.

---

(١) شرح حديث جبريل (ص٥٩٦).

(٢) شرح حديث جبريل (ص٥٩٦، ٥٩٧).

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء: ٣٢].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ينهىٰ تعالىٰ المؤمنين عن أن يتمنىٰ بعضهم ما فضل الله به غيره من الأمور الممكنة وغير الممكنة؛ فلا تتمنَّىٰ النساء خصائص الرجال التي بها فضلهم علىٰ النساء، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغنىٰ والكمال، تمنيًا مجردًا؛ لأن هذا هو الحسد بعينه، تمني نعمة الله علىٰ غيرك أن تكون لك ويسلب إياها.

ولأنه يقتضي السخط علىٰ قدر الله والإخلاد إلىٰ الكسل والأماني الباطلة التي لا يقترن بها عمل ولا كسب، وإنما المحمود أمران: أن يسعىٰ العبد علىٰ حسب قدرته بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية، ويسأل الله تعالىٰ من فضله، فلا يتكل علىٰ نفسه ولا علىٰ غير ربه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ﴾ [النساء: ٣٢] أي: من أعمالهم المنتجة للمطلوب. ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ﴾ [النساء: ٣٢] فكل منهم لا يناله غير ما كسبه وتعب فيه. ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ﴾ [النساء: ٣٢] أي: من جميع مصالحكم في الدين والدنيا. فهذا كمال العبد وعنوان سعادته لا من يترك العمل، أو يتكل علىٰ نفسه غير مفتقر إلىٰ ربه، أو يجمع بين الأمرين؛ فإن هذا مخذول خاسر».

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص١٧٢).

والمسلم إذا أراد أنواع الخيرات والمسرَّات وعيشة السُّعداء فليأت بأسباب ذلك، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥-١٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «حقيقة «اليسرىٰ» أنها الخلة والحالة السهلة النافعة الواقعة له، وهي ضد العسرىٰ، وذلك يتضمَّن تيسيره للخير وأسبابه، فيجري الخير وييسِّره علىٰ قلبه ونيته ولسانه وجوارحه، فتصير خصال الخير وأسبابه ميسرة عليه مذللة له منقادة لا تستعصي عليه ولا تستصعب لأنه مهيأ لها ميسر لفعلها يسلك سبلها ذللًا، وتنقاد له علمًا وعملًا».

ومن أسباب الرِّزق التكسُّب والعمل؛ قال تعالىٰ: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

ومن منع نفسه من أسباب الخيرات فهو الذي حرم نفسه من أسباب السَّعادة.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

قال عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «نُيسِّره للشَّرِّ»(٢).

وقال عطاء: «أحول بين قلبه وبين الإيمان بي وبرسولي ﷺ»(٣).

وقال مقاتل: «يُعَسِّرُ عليه أن يُعطىٰ خيرًا»(٤).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(٥): «والتيسير للعُسْرَىٰ يكون بأمرين:

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٩٥، ٩٦).

(٢، ٢، ٣) التِّبيان في أيمان القرآن (ص٩٦).

(٥) التبيان في أيمان القرآن (ص٩٧).

أحدهما: أن يحول بينه وبين أسباب الخير، فيجري الشَّرُّ علىٰ قلبه، ونيَّته، ولسانه، وجوارحه.

والثاني: أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر، كما حال بينه وبين أسبابه».

وقد أخبرنا النبيُّ ﷺ أنَّ المال والجاه من أسباب فساد الدِّين، فقال ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد للدِّين من حب المال والشَّرف**»، رواه أحمد والنَّسائي والتِّرمذي وقال: حسن صحيح، وصحَّحه ابن حبَّان.

فهذا الحديث فيه تحذير شديد من تعريض الدِّين للفساد بسبب الحرص علىٰ المنصب والمال.

والدُّنيا كانت سببًا في نشوء فرقة الخوارج، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الخوارج كان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم رسول الله ﷺ غنائم حُنَيْن، فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة».

وكذلك القتال للمغنم فساد في النيَّات، ومن قاتل للمغنم فليس في سبيل الله، ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله.

والصوفيَّة يقتاتون بالشِّرك والإعانة عليه، يشيِّدون المزارات والقباب علىٰ القبور، ويجعلون لها سدنة يأخذون الأموال ممَّن قصدها للشِّرك بالطَّواف بالقبور والاستغاثة بالموتىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ٣٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٨٧).

وطلب العلم للدُّنيا سبب لفساد الدِّين، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «**من تعلَّم علمًا ممَّا يُبتغىٰ به وجه الله، لا يتعلَّمه إلَّا ليُصيب به عرض الدُّنيا؛ لم يجد عرفَ الجنة يوم القيامة**»، رواه أحمد وأبو داود وصحَّحه ابن حبَّان.

فمن يطلب العلم للدُّنيا يكتم الحق أو يلبس الحق بالباطل، كأحبار بني إسرائيل.

قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٩- ومن أنفع ما يكون في ملاحظة مستقبل الأمور: استعمال هذا الدعاء الذي كان النبي - ﷺ - يدعو به: «**اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، والموت راحة لي من كل شر**». وكذلك قوله: «**اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت**». فإذا لهج العبد بهذا الدعاء الذي فيه صلاح مستقبله الديني والدنيوي بقلب حاضر، ونية صادقة، مع اجتهاده فيما يحقق ذلك، حقَّق الله ما دعاه ورجاه وعمل له، وانقلب همه فرحًا وسرورًا(١).

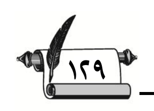
الشَّرْح:

الموفَّق هو الذي يسعىٰ لأن تكون منازله الثَّلاثة: الدُّنيا، والبرزخ، والآخرة؛ دور سعادة وسرور، وأمن، ونعيم.

والمستقبل هو يوم غد، والله عَزَّوَجَلَّ قرَّب السَّاعة حتىٰ جعلها كغد، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]، ليعمل المسلم لغده الأهم، وغده الدُّنيويّ إنَّما هو عمل للغد الأخرويّ السَّرمديّ الذي لا يوم بعده.

قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ

(١) الوسائل المفيدة للحياة السعيدة (ص٢١).



شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «جعل الله اللَّيل والنَّهار يتوالىٰ علىٰ العباد، ويتكرَّران، ليُحدث لهم الذِّكر، والنَّشاط، والشُّكر لله».

والمسلم في حاضره ومستقبله يعمل بما أمره الله، ويجانب ظلم نفسه، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٦].

والمسلم حسن الظَّنّ بربِّه، حقائق توحيده وإيمانه بمعاني أسماء الله وصفاته ملأت قلبه بذلك، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج: ٦٥].

والمسلم إذا أيقن أن الله أرحم به من نفسه؛ تملَّق إلىٰ ربِّه بأسباب رضاه، لا إله إلَّا هو، وعلم أنَّ ذلك هو الذي يجلب له الخيرات والمسرَّات في الحال والمآل.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «جميع ما في العالم العلوي والسفلي من حصول المنافع والمحاب والمسار والخيرات؛ فإن ذلك منه ومن رحمته وجوده وكرمه وفضله، كما أن ما صرف عنهم من المكاره والنقم والمخاوف والأخطار والمضار؛ فإنها من رحمته وبره، فإنه لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو.

ورحمته تعالىٰ سبقت غضبه وغلبته، وظهرت في خلقه ظهورًا لا ينكر، حتىٰ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦١٧).

(٢) فتح الرَّحيم الملك العلام (ص٢٣).

ملأت أقطار السموات والأرض، وامتلأت منها القلوب حتىٰ حنَّت المخلوقات بعضُها علىٰ بعض بهذه الرحمة التي نشرها عليهم وأودعها في قلوبهم، وحتىٰ حنَّت البهائم التي لا ترجو نفعًا ولا عاقبة ولا جزاءً علىٰ أولادها، وشوهد من رأفتها بهم وشفقتها العظيمة ما يشهد بعناية باريها ورحمته الواسعة، وعمَّت مواهبه أهل السموات والأرض، ويسَّر لهم المنافع والمعايش والأرزاق وربطها بأسبابٍ ميسَّرةٍ وطرقٍ مسهلةٍ، فما من دابة في الأرض إلا علىٰ الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها».

ومن عرف سنة الله في خلقه وعباده لم يجزع من المستقبل، فإنَّ العاقبة للتَّقوىٰ، والله يتولَّىٰ عباده حفظًا وتدبيرًا، ورزقًا ونصرة وتأييدًا، ويدفع عنهم مصارع السُّوء، ويزيدهم من فضله، وينمِّي أعمالهم ويبارك في أعمارهم، ويفتح لهم أبواب خيراته، قال تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الرعد: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ [يونس: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾ [مريم: ٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال النبي ﷺ: «**احفظ الله يحفظك**».

وعن الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لو تتوكَّلون علىٰ الله حقَّ توكُّله، لرزقكم كما يرزق الطَّير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»، رواه التِّرمذيّ وصحَّحه ابن حبَّان.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣]، فهذه كفاية من كل سوء، وقال تعالىٰ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [يونس: ٦٢] فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ ما أسلفوا؛ لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالىٰ».

وتأمَّل أيُّها المسلم قوله تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٣٦]، فاملأ قلبك من تكبير الله، والالتجاء والرَّغبة والرَّهبة إليه، وحده لا شريك له.

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في فوائد الآية**[٢]: «الحثُّ علىٰ تحقيق العبودية لله تعالىٰ، لأنَّك إذا حقَّقْتَ العبوديَّة تَحقَّقَت لك الكفاية، إذ إنَّ الحُكْم المُعلَّق علىٰ وَصْف يقوىٰ بقوَّة ذلك الوصف، ويَضعُف بضَعْف ذلك الوَصْف».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٨٣).

(٢) تفسير سورة الزُّمَر (ص٢٥٨).

والهداية مستلزمة للتوكُّل علىٰ الله، فمن أيقن علمًا بأنَّ الهداية من الله، وأنَّ الله هو الحقُّ المبين، وأن مقادير الخلق تدبيرًا ورزقًا ونصرًا وتأييدًا وحفظًا من الله؛ آوىٰ إليه، واعتصم به، واطمأن إلىٰ كفايته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الله هو الحق، وهو ولي الحق، وناصره ومؤيده وكافي من قام به، فمال صاحب الحق أن لا يتوكل عليه؟! وكيف يخاف وهو علىٰ الحق؟! كما قالت الرسل لقومهم: ﴿ **وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ** ﴾ [إبراهيم: ١٢]، فعجبوا من تركهم التوكل علىٰ الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبدًا. وهذا دليل علىٰ أن الهداية والتوكُّل متلازمان، فصاحب الحق - لعلمه بالحق، ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره - مضطر إلىٰ توكله علىٰ الله، لا يجد بدًّا من توكله؛ فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب، وعمله.

أما علمه فيقينه بكفاية وكيله وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك، وأما عمله فسكونه إلىٰ وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه؛ فبهذين الأصلين يتحقق التوكل».

والخوف من المستقبل والتَّشاؤم يجلب الهمَّ والغمَّ، ويُثبِّط النُّفوس عن النُّهوض للأعمال الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، والتَّفاؤل تنبسط به النَّفس، وتهنأ بعيشتها، ويبعث النُّفوس إلىٰ القيام بالأعمال النَّافعة.

---

(١) طريق الهجرتين (ص٢٥٧)، ط: المكتبة السَّلفيَّة، القاهرة.

وكان النبيُّ ﷺ يحب الفأل والكلمة الطيِّبة؛ لأنَّهما من أسباب السَّعادة، ولأنَّهما من حقائق التَّوحيد الذي أساسه حسن الظَّنِّ بالله والتوكُّل عليه والثِّقة بكفايته، والرَّغبة فيما عنده، والرَّهبة من سخطه؛ فالأمر كلُّه لله، وحده لا شريك له. ففي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**يعجبني الفأل**»، قالوا: وما الفأل؟ قال: «**الكلمة الطَّيِّبة**».

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ **عن الفأل**[١]: «فيه من المصلحة النَّشاط والسُّرور، وتقوية النُّفوس علىٰ المطالب النَّافعة».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «الفأل الصالح السار للقلوب، المؤيِّد للآمال، الفاتح بابَ الرجاء، المسكِّن للخوف، الرابط للجأش، الباعث علىٰ الاستعانة بالله والتوكُّل عليه، والاستبشار المقوِّي لأمله السار لنفسه؛ فهذا ضد الطِّيَرَة. فالفأل يفضي بصاحبه إلىٰ الطاعة والتوحيد، والطيرة تفضي بصاحبها إلىٰ المعصية والشرك؛ فلهذا استحبَّ ﷺ الفأل وأبطل الطِّيَرَة».

والدُّعاء من أهم الأسباب التي يبذلها الإنسان لحصول أموره الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، والمسلم يقوم بالأعمال الصَّالحة التي هي من أوجب الواجبات عليه، وهو توحيد الله بعبوديَّته، فإذا فعل ذلك يسَّر عليه أسباب أموره المعيشيَّة، فيسعىٰ في الأرض في طلب رزقه وكفاية من يعول، ومن استعان بالله أعانه الله.

---

(١) القول السَّديد شرح كتاب التَّوحيد (ص٩٢).

(٢) مفتاح دار السَّعادة (٣/ ١٥٢٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فتتيقَّن حينئذ أن الحسنات من نعمه؛ فتشكره عليها، وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك، وأن السيئات من خِذلانه وعقوبته؛ فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها، ولا يكلك في فعل الحسنات وترك السيئات إلىٰ نفسك.

وقد أجمع العارفون علىٰ أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شرٍّ فأصله خذلانه لعبده، وأجمعوا أن التوفيق أن لا يَكِلَك الله إلىٰ نفسك، وأن الخذلان أن يُخليَ بينك وبين نفسك، فإذا كان كل خير فأصله التوفيق، وهو بيد الله لا بيد العبد؛ فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه؛ فمتىٰ أعطىٰ العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتىٰ أضله عن المفتاح بقي باب الخير مُرْتَجًا دونه.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إنِّي لا أحملُ همَّ الإجابة، ولكن همّ الدعاء، فإذا أُلهمت الدُّعاء فإن الإجابة معه. وعلىٰ قدر نيَّة العبد وهمَّتِهِ ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانته؛ فالمعونة من الله تنزل علىٰ العباد علىٰ قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخِذلان ينزل عليهم علىٰ حسب ذلك.

فالله سبحانه أحكم الحاكمين وأعلم العالمين، يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به، والخذلان في مواضعه اللائقة به، وهو العليم الحكيم. وما أُتي من أُتي إلَّا من قبل إضاعة الشكر، وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظفر من ظفر بمشيئة

(١) الفوائد (ص١٤١، ١٤٢).

الله وعونه إلا بقيامه بالشُّكر وصدق الافتقار والدعاء. ومِلاكُ ذلك الصبر، فإنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطع الرأس فلا بقاء للجسد».

وأعمال المسلم هي بحسب ما يتقنه من ذلك، فاحترافه وشغله يكون فيما يحسنه.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يجب عليك أن تسعىٰ بكلِّ سبب يُزيل فقرك أو يخفِّفه؛ فاعمل بالأسباب النافعة من بيع أو شراء أو حرفة أو خدمة أو ما يناسب حالك، وتُحسِنه من الأسباب، فقد قال ﷺ: «**لأن يأخذ أحدكم حَبْلَه فيأتي بحزمة الحطب علىٰ ظهره فيبيعها فيكفَّ الله بها وجهه؛ خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه**».

ومتىٰ عملت بالأسباب بهذه النية - نية الاستعفاف والاستغناء عن الناس -؛ يسَّر الله أمرك، وبارك لك في الشيء القليل، وسلِمْت من الفقر الوضيع، وهو فقر القلب لغير الله».

فالواجب علىٰ المسلم السَّعي فيما يجلب له الخير، ويدفع عنه السُّوء، وضمان ذلك إلىٰ الله.

وقد ضمن الله لمن سعىٰ في مرضاته مستعينًا به الهداية لخيري الدُّنيا والآخرة، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «بذلوا مجهودهم في اتِّباع

---

(١) الرِّياض النَّاضرة (ص٢٠٧).

(٢) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٦٧٤).

مرضاته، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، أي: الطُّرق الموصِّلة إلينا، وذلك لأنَّهم محسنون».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الله سبحانه قد أمر العبد بأمر، وضَمِن له فإن قام بأمره بالنُّصح والصدق والإخلاص والاجتهاد؛ قام الله سبحانه له بما ضمنه له من الرزق والكفاية والنصر وقضاء الحوائج؛ فإنه سبحانه ضَمِنَ الرزق لمن عبده، والنصرَ لمن توكَّل عليه واستنصر به، والكفاية لمن كان هو همَّه ومراده، والمغفرة لمن استغفره، وقضاء الحوائج لمن صدقه في طلبها ووَثِقَ به، وقوي رجاؤه وطمعه في فضله وجوده؛ فالفطن الكيِّسُ إنما يهتم بأمره وإقامته وتوفيته، لا بضمانه؛ فإنه الوفيُّ الصادق، ومن أوفىٰ بعهده من الله؟!

فمن علامات السعادة صرفُ اهتمامه إلىٰ أمر الله، دون ضمانه، ومن علامات الحرمان فراغ قلبه من الاهتمام بأمره وحبه وخشيته، والاهتمام بضمانه».

والله عَزَّوَجَلَّ كما أخبر عن نفسه سبحانه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «كل يوم هو يجيب داعيًا، ويكشف كَرْبًا، ويجيب مضطرًّا، ويغفر ذنبًا».

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «لا يستغني عنه أهل السَّموات والأرض، يُحيي حيًّا، ويميت ميتًا، ويُربِّي صغيرًا، ويفكُّ أسيرًا، وهو منتهىٰ حاجات الصَّالحين وصريخهم، ومنتهىٰ شكواهم».

والله عَزَّوَجَلَّ نفرُّ منه إليه، قال تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، فيفرُّ

---

(١) الفوائد (ص١٦٦).

(٢، ٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٤١٦).

الخلق إلىٰ عافيته بالفرار من أسباب سخطه.

وكما أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ عن شأنه، فإنَّه طمأننا إلىٰ الكفاية به والتوكُّل عليه، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وقد أخبرنا الله أنَّ فعل الخيرات في الأَيَّام الخالية سببٌ لحسن المآل والعافية في المستقبل، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن أسباب نجاة نبيِّه يونس عليه السلام: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «من كان ذاكرًا الله تعالىٰ في الرَّخاء، ذكره الله تعالىٰ في الشِّدَّة»(١).

وسنَّة الله معلومة في خلقه؛ فإنَّه من آمن به وعمل صالحًا أمَّنه الله في الحاضر والمستقبل، ومن سنَّة الله أيضًا ابتلاء عباده بالسرَّاء والضرَّاء؛ ليستخرج عبوديَّتهم في الأحوال كلِّها.

والدُّنيا خُلقت علىٰ كدر، لا تكاد تخلو من منغِّصات؛ فلا تنزعج لمكدِّراتها، ولا تجعلها سببًا لإضعاف قلبك وقطعك عن عبوديَّتك لله، وسعيك في مصالحك الدِّينيَّة والدُّنيويَّة.

وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ما يصيب المؤمن من وصب، ولا نصب، ولا سقم، ولا حَزن، حتىٰ الهمِّ يُهمُّه، إلَّا كُفِّر به من سيِّئاته**».

---

(١) رموز الكنوز (٦/ ٤٢٨).

قال العلَّامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «في هذا الحديث من الفقه إعلام النبيِّ ﷺ أمته أنَّ نصبها ووصبها، وسقمها وحزنها وهمَّها؛ يكفِّر الله به من خطاياها، وذلك لأنه لما كانت الدنيا عند الله ليست رضىٰ منه لعباده المؤمنين مَقرًّا لهم دائمًا، وكانت حكمته أن يخرجهم عن هذا المقر الأدنىٰ إلىٰ مقر أعلىٰ؛ فأحل بهم سبحانه من المزعجات ما ينفرهم عنه ويزعجهم منه، وكان من لطفه بهم أن لا يعرض لهم الألم إلا بثوابٍ وثمنٍ هو تكفيرُ السيِّئات عنهم؛ فجمع لهم بين تكفير الخطايا، والإزعاج عن هذا المقر الأدنىٰ والارتياح للخروج منه إلىٰ دار المقامة».

وسنَّة الله معلومة في الأفراد والأمم، لا يفجؤهم بنقمته إلَّا إذا كانوا قد أتوا بأسباب سخطه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، ولكنه يستعتبهم، فإذا لم يكونوا من المعتبين؛ فحينئذ تحق عليهم سنَّة الله فيهم، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وفي الصَّحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** كان من دعاء النبيِّ ﷺ: **«اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحوُّل عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك»**.

---

(١) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٦/ ٢٥٢، ٢٥٣).

قال العلَّامة أبو المظفَّر يحيىٰ بن محمد بن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من حسن الترتيب، وبديع التصريف؛ أن بدأ في الاستعاذة من تحول العافية؛ لأنه من لطف الله تعالىٰ به إدامة العافية عليه، وقد حرس خصاله من الالتفات، ثم أتبع ذلك بالتعوذ من فجاءة النقمة، وهي أن يفجأ بالنقمة من قبل منذرات تنذر ومؤذنات تؤذن وتشعر، فتسبق الاستغفار وتعجل عن الإعتاب؛ ثم أتبع ذلك بالتعميم من الاستعاذة من جميع سخطه، أعاذنا الله سبحانه من ذلك وإياكم».

والعرب في جاهليتها تعرف أنَّ من كان حسن الفعال كان حسن الحال والمآل، فالنبيُّ ﷺ عندما فاجأه الوحي أوَّل مرة خشي علىٰ نفسه، فطمأنته زوجه خديجة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، وقالت له: «والله لا يخزيك الله أبدًا! والله إنَّك لتصل الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحديث، وتحمل الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المعدوم، وتَقْري الضَّيْفَ، وتعين علىٰ نوائب الحقِّ»، رواه البخاري ومسلم.

قال ابن الملقّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في فوائده**[٢]: «في هذا أنَّ مكارم الأخلاق وخصال الخير سببٌ للسَّلامة من مصارع السوء والمكاره؛ فمن كَثُر خيره حسنت عاقبته، ورُجي له سلامة الدِّين والدُّنيا».

وإنَّما يخشىٰ عاقبة المستقبل من أتىٰ بأسباب سخط الله ووعيده، ومن أراد سعادة نفسه؛ فليحذر من أسباب ذلك، قال تعالىٰ: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

---

(١) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٤/ ٢٧٣).

(٢) التَّوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢/ ٢٨٠).

وأهم ما يرجوه المسلم في حياته الدُّنيا في حاضره ومستقبله؛ الهداية ولزومها، وعيشة السُّعداء، والأمن من المخاوف، وحيازة الرِّزق.

وهذه كلُّها أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ عن أسباب تحصيلها، وموجبات إدراكها، أمَّا الهداية التي هي الأساس لكل خير، فقد قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «ضمن الله لمن اتَّبع القرآن أن لا يضل في الدُّنيا، ولا يشقىٰ في الآخرة»[(١)].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُٱللَّهُ[(٢)]: «إن من اتبعه اتبع ما أَمَر به، واجتنب ما نَهَىٰ عنه؛ فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يشقىٰ فيهما، بل قد هُدي إلىٰ صراط مستقيم، في الدنيا والآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة.

وقد نفىٰ عنه الخوف والحزن في آية أخرىٰ، بقوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. واتباع الهدىٰ بتصديق الخبر، وعدم معارضته بالشُّبَه، وامتثال الأمر بأن لا يعارضه بشهوة».

ومن رحمة الله بعباده أنَّه إذا هداهم أتمَّ عليهم النِّعمة بتتميمها، وبيان كل علوم الصِّراط الموصل إليه، وأعانهم علىٰ سلوكه لتكون عاقبتهم الجنَّة.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٥٧٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٤٢).

قال العلامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن اللّه تعالىٰ إذا منَّ علىٰ قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم؛ فإنه تعالىٰ يتمم عليهم إحسانه، ويبيِّن لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم؛ فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم؛ ففي هذا دليل علىٰ كمال رحمته، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد، في أصول الدين وفروعه».

والحياة السَّعيدة تُدرك بالأعمال الصَّالحة، قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أما نفي شقاء الدنيا فقد يقال: إنه لما انتفىٰ عنه الضلالُ فيها، وحصل له الهدىٰ، والهدىٰ فيه من بَرْدِ اليقين وطمأنينة القلب، وذَوْقِ طعم الإيمان، وَوَجْدِ حلاوته، وفرحة القلب به، وسروره والتنعُّم به، ومصير القلب حيًّا بالإيمان، مستنيرًا به، قويًّا به، قد نال به غذاءه ودواءه، وشفاءه وحياته، ونوره وقوَّته، ولذَّته ونعيمه ما هو من أجلُّ أنواع النعيم، وأطيب الطيبات، وأعظم اللذات».

والرِّزق يأتي به تقوىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقال تعالىٰ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٦٧).

(٢) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٩٥).

وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّـٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه: ١٣٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قوله: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ أي: استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصبرْ أنت علىٰ فعلها».

وقال الحافظ ابن كثير أيضًا[(٢)]: «قوله: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾ يعني: إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]».

والنبيُّ ﷺ حثَّ علىٰ العمل للمستقبل، بما يكون به خير المآل، فيستفيد المسلم من عافية الحال ما يكون ذخرًا له في المآل، فيأتي بالأسباب التي تحفظ عليه دينه؛ ففي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال رسول الله ﷺ: «**بادروا بالأعمال الصَّالحة، فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدُّنيا**».

ومن أسباب العافية في الأحوال الدُّعاء بذلك؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ مجيب الدُّعاء، وله الأمر كلُّه، قال النبي ﷺ: «**سلوا الله العفو، والعافية، والمعافاة**»، رواه أبو يعلىٰ، وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إسناده جيد».

(١، ٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٤٩).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هذا السُّؤال يتضمَّن العفو عمَّا مضىٰ، والعافية في الحال، والمعافاة في المستقبل بدوام العافية واستمرارها».

وأخبر النبيُّ ﷺ بما يفعله المسلم ليحفظ عليه دينه، لو أدرك أيَّام الهرج والشُّرور؛ فعن معقل بن يسار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**العبادة في الهرج كهجرة إليَّ**»، رواه مسلم.

قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المراد بالهرج هنا الفتنة، واختلاط أمور النَّاس، وسبب كثرة فضل العبادة فيه أنَّ النَّاس يغفلون عنها، ويشتغلون عنها، ولا يتفرَّغ لها إلَّا أفراد».

وقد أمرنا الله باستصحاب تقواه ما حيينا، فقال سبحانه: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وحذَّر النَّبيُّ ﷺ من الردَّة، وقال مخاطبًا أصحابه وأمَّته: «**أنا فرطكم علىٰ الحوض، من وَرِدَه وشرب منه لم يظمأ بعده أبدًا، ليردنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم، فأقول: أمَّتي، أمَّتي؛ فيقال: إنَّك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»، رواه البخاري.

وأخبر النبيُّ ﷺ بأنواع ما يقع من الشُّرور في المستقبل، ممَّا نهىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ عنه، ورسوله ﷺ؛ ليحذرها المسلم، ويجتنب أسبابها، فمن أخذ بوصيَّة النبيِّ ﷺ بأسباب النَّجاة وحفظ الدِّين؛ فليس عليه منها بأس، فقد قال ﷺ: «**تركت فيكم ما إن تمسَّكتم به، فلن تضلُّوا بعدي: كتاب الله**»، رواه مسلم، وزاد

(١) عدَّة الصابرين (ص٢٢٠).

(٢) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج (ص١٧٠٥).

الحاكم: «**وسنتي**».

وكان النبيُّ ﷺ أمانًا لأصحابه يحذِّرهم من الشُّرور، وكان وجوده بين ظهرانيهم أمانًا لهم من عذاب الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وتحدَّث الصَّحابة أنفسهم عن أمان المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ، فقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: إنَّ الله جعل في هذه الأمَّة أمانين، لا يزالون معصومين مُجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم؛ فأمان قبضه الله إليه، وأمان بقي فيكم، رواه ابن أبي حاتم[١].

وقد أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ بما يكون سببًا للأمان في الدُّنيا، والبرزخ، والآخرة؛ فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُٱللَّهُ[٢]: «﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ﴾ أي: يخلطوا ﴿إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾؛ الأمن من المخاوفِ والعذاب والشقاء، والهدايةُ إلىٰ الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقًا، لا بشرك، ولا بمعاصٍ؛ حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات؛ حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٤٤٨).

(٢) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٢٦٦).

ومفهوم الآية الكريمة؛ أن الذين لم يحصل لهم الأمران؛ لم يحصل لهم هداية، ولا أمن، بل حظُّهم الضلال والشقاء».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

ولا يزال أتباع الأنبياء يترقُّون في درج الخير في أيَّامهم، بإقبالهم علىٰ الله وطاعته؛ فيجازيهم ربُّهم بأحسن الثَّواب، حتىٰ يوفِّيهم الجزاء الأوفىٰ يوم الحساب.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أطلق - سبحانه - أن الآخرة خير له من الأولىٰ، وهذا يَعُمُّ كلَّ أحواله، وأن كلَّ حالة يُرقِّيه إليها هي خير له ممَّا قبلها، كما أن الدار الآخرة خير له ممَّا قبلها. ثم وعده بما تقرُّ به عَيْنُهُ، وتفرح به نفسه، وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيُرضيه، وهذا يعُمُّ ما يعطيه من القرآن والهُدَىٰ والنَّصْر وكثرة الأَتْباع، ورَفْع ذِكْرِهِ، وإعلاء كلمته، وما يعطيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة، وما يعطيه في الجنة».

والثِّقة بالله والطمأنينة لحسن العاقبة، والتَّفاؤل بالمستقبل؛ يأتي من علم اليقين بتصديق خبر الله ووعده، ومن الصَّبر علىٰ تحقيق أمر الله؛ طاعة خالصة له، وعبوديَّة بأداء حقّه.

قال تعالىٰ لنبيِّه ورسوله محمد ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

---

(١) التِّبيان في أيمان القرآن (ص١١١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أمره أن يصبر، ولا يتشبَّه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر؛ فإنهم لعدم يقينهم عُدِمَ صبرهم، وخَفُّوا واستخفُّوا قومَهم، ولو حصل لهم اليقين لما خَفُّوا، ولما استخفُّوا.

فمن قلَّ يقينه؛ قلَّ صَبْرُه، ومن قَلَّ صبره خفَّ واستخفَّ. فالمُوقِنُ الصابر رزين لأنه ذو لُبٍّ وعقل، ومن لا يقين له ولا صبر خفيف طائش، تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الرِّياح بالشيء الخفيف، والله المستعان».

وكان شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ موقنًا بالله حين حثَّ الإمام محمد بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ نصرة التَّوحيد، وقال له: «هذا الدِّين من نصره؛ نصره الله»، وقرَّة عيون الموحِّدين بقيام الدَّولة السُّعوديَّة بالإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ والصَّبر علىٰ نصرة الدِّين.

وقول العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الدُّعاء مقارن للعمل، فالعبد يجتهد فيما ينفعه في الدِّين والدُّنيا»؛ فيه حثٌّ لاتِّخاذ الأسباب التي يُستجلب بها الخير ويُدفع بها الشَّرُّ.

ومن الأسباب التي يُستجلب بها الخير، ويُدفع بها الشرُّ؛ الاستغفارُ، قال النبيُّ ﷺ: «**من لزم الاستغفار؛ جعل الله له من كل ضيق فرجًا، ومن كل هم مخرجًا**».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وكان النبيُّ ﷺ يُطمئن أصحابه من أسباب المخاوف بحثِّهم علىٰ التوكُّل علىٰ الله والرَّغبة والرَّجاء له.

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص١٣٧، ١٣٨).

فالمسلم يسعىٰ في اتِّخاذ الأسباب التي تجلب له الخير، وتدفع عنه السُّوء، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «تُصرَف كثير من أسباب الشر بالتوكل، والدعاء، والصدقة، والذِّكْر، والاستغفار، والعتق، والصلة. وتُصرف كثير من أسباب الخير بعد انعقادها بضدِّ ذلك، فللَّه كم من خير انعقد سببه ثم صرف عن العبد بأسباب أحدثَهَا منعت حصولَه وهو يشاهد السبب حتىٰ كأنَّه يأخذ باليد! وكم من شر انعقد سببه ثم صُرف عن العبد بأسباب أحدثها منعت حصوله!».

والمستقبل الأعظم هو الانتقال إلىٰ الدَّار الآخرة، وهو أجل كل مخلوق، فإنَّه من حين وفاته قد قامت قيامته؛ فيكون في نعيم البرزخ أو جحيمه، قال تعالىٰ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، ثم إذا قامت القيامة الكبرىٰ كل أحد يأخذ سبيله؛ إما إلىٰ جنة وإما إلىٰ نار.

ولا أحد يعلم متىٰ أجله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]، فإذا كان الأمر كذلك، فالحازم الذي يريد حسن الحال ونعيم الحال والمآل وسعادة الدُّور الثَّلاثة؛ يكون ساعيًا دائمًا في أسباب سعادته في الدُّور الثلاثة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّ من حكمة الله ونعمه علىٰ عباده أن ستر عنهم مقادير آجالهم، ومبلغ أعمارهم، فلا يزال الكيِّسُ يترقَّبُ الموت، وقد وضعه بين عينيه؛ فينكفُّ عمَّا يضرُّه في معاده، ويجتهد فيما ينفعُه ويُسَرُّ به عند القدوم».

---

(١) إعلام الموقّعين (٣/ ٢٠٣).

(٢) مفتاح دار السَّعادة (٢/ ٨٠٥).

ومن تمام نعمة الله عليك؛ أن يوفِّقك دائمًا إلىٰ الأعمال الصَّالحة، والتَّوبة والاستغفار وإن كنت محسنًا، حتىٰ تكون موافيًا ربَّك بأقصىٰ الكمال الممكن؛ فسيد الخلق، وأقومهم بطاعة الله بعد أدائه لتبليغ شرع الله والجهاد في سبيله، وبعد أن دخل النَّاس في دين الله أفواجًا؛ أمره الله بالتَّسبيح والاستغفار، قال تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [سورة النصر].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من تمام نعمة الله علىٰ عبده توفيقه للتوبة النصوح، والاستغفار بين يديه؛ ليلقىٰ ربَّه طاهرًا مطهَّرًا من كل ذنب، فيقدم عليه مسرورًا راضيًا مرضيًّا عنه، ويدل عليه أيضًا قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ [النصر:٣] وهو - ﷺ - كان يُسبح بحمده دائمًا؛ فعُلم أن المأمور به من التسبيح بعد الفتح، ودخول الناس في الدين؛ أمر أكبر من ذلك المتقدِّم، وذلك مقدمة بين يدي انتقاله إلىٰ الرفيق الأعلىٰ، وأنه قد بقيت عليه من عبودية التسبيح والاستغفار التي ترقِّيه إلىٰ ذلك المقام بقية، فأمره بتوفيتها.

ويدل عليه أيضًا أنه سبحانه شرع التوبة والاستغفار في خواتيم الأعمال، فشرعها في خاتمة الحج وقيام الليل، وكان النبيُّ ﷺ إذا سلَّم من الصلاة استغفر ثلاثًا، وشرع للمتوضئ بعد كمال وضوئه أن يقول: «**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهِّرين**»، فعُلم أن التوبة مشروعة عقيب الأعمال الصالحة. فأمر رسوله ﷺ بالاستغفار عقيب توفيته ما عليه من تبليغ الرسالة والجهاد في

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٨٧، ١٨٨).

سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجًا، فكأنَّ التبليغ عبادة قد أكملها وأدَّاها، فشَرع له الاستغفار عقيبها».



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٠- ومن أنفع الأسباب لزوال القلق والهموم إذا حصل علىٰ العبد شيء من النكبات: أن يسعىٰ في تخفيفها بأن يُقَدِّر أسوأ الاحتمالات التي ينتهي إليها الأمر، ويوطن علىٰ ذلك نفسه، فإذا فعل ذلك فليسع إلىٰ تخفيف ما يمكن تخفيفه بحسب الإمكان، فبهذا التوطين وبهذا السعي النافع تزول همومه وغمومه، ويكون بذل ذلك السعي في جلب المنافع، وفي دفع المضار الميسورة للعبد[١].

الشَّرح:

ما يصيب المسلم نوعان: نوع يمكنه اتِّخاذ الأسباب التي ترفع عنه السُّوء، فهذا يجب عليه القيام بالأسباب التي تدفع عنه السُّوء.

ونوع لا حيلة له فيه، فهذا حسبه الله، كما أنَّ الأوَّل حسبه الله يتوكَّل عليه في القيام بالأسباب التي تدفع عنه السُّوء.

والنوم نموذج للحال التي لا يمكن للإنسان أن يتَّخذ من الأسباب ما يدفع عنه المكاره؛ لأنَّ الروح تفارق البدن، فليس للمسلم إلَّا أن يفوِّض أمره إلىٰ الله، ويلجئ الظهر إليه؛ فهو الرَّبُّ الكافي.

وقد علَّم النبي ﷺ أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ والأمَّة التَّفويض والالتجاء إلىٰ الله، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ليستدعي بها كمال حفظ الله لها، وحراسته لنفسه وبدنه».

---

(١) الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة (ص٢٢).

(٢) زاد المعاد (ص٦٨١).

ففي الصَّحيحين عن البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا أتيت مضجعك فتوضَّأ وضوءك للصَّلاة، ثم اضطجع علىٰ شقِّك الأيمن، ثم قل: اللهم إنِّي أسلمت نفسي إليك، ووجَّهت وجهي إليك، وفوَّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيِّك الذي أرسلت. واجعلهن آخر كلامك، فإن مِتَّ من ليلتك؛ مِتَّ علىٰ الفطرة**».

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ[(١)]: «تفويض الأمر إليه؛ ردُّهُ إلىٰ الله سبحانه، وذلك يوجب سكون القلب وطمأنينته، والرضىٰ بما يقضيه ويختاره له مما يحبُّه ويرضاه، والتَّفويض من أشرف مقامات العبوديَّة».

وقول النَّبيِّ ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كلَّه له خير؛ إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلَّا للمؤمن**»، رواه مسلم، حثٌّ علىٰ الصَّبر بكل الأحوال، وأمر بتحقيق وصف الإيمان في ذلك، وتنبيه علىٰ أنَّ الإيمان هو الباعث علىٰ الصَّبر علىٰ أقدار الله.

والاسترجاع من المصائب مريح للنَّفس، وطمأنينة لها بتذكيرها بمآل الخلق جميعًا إلىٰ الله، وهو من أسباب صلوات الله ورحمته وهدايته للمصاب، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧].

---

(١) زاد المعاد (ص٦٨١، ٦٨٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وعد الصَّابرين بثلاثة أشياء، كل واحد منها خير من الدُّنيا وما عليها، وهي: صلوات الله تعالىٰ عليهم، ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ١٥٧]، أي: ثناء من الله عليهم ورحمة.

قال سعيد بن جبير: أي: أَمَنَةٌ من العذاب».

وعن أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا **قالت**: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول**: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، **اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها؛ إلا آجره الله في مصيبته، وأخلفَ له خيرًا منها**».

قالت أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: فلما توفي أبو سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، قلت كما أمرني رسول الله ﷺ؛ فأخلف الله لي خيرًا منه، رسول الله ﷺ.

ومن صبر علىٰ ما أصابه من مقادير الله؛ ظفر بمعيَّة الله، ومن ظفر بمعيَّة الله فقد فاز، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

وقال أبو علي الدقاق[(٣)]: «فاز الصابرون بعز الدارين؛ لأنَّهم نالوا من الله معيَّته».

وتوجيه العلَّامة السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **دلَّ عليه قوله** ﷺ: «**لا يردُّ القدر إلَّا الدُّعاء**»، والدُّعاء من قدر الله؛ فيكون ذلك سببًا لدفع البلاء والشُّرور والمصائب.

---

(١) عدَّة الصابرين (ص٢١٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٨٩).

(٣) عدة الصابرين (ص١٣٠).

والنبيُّ ﷺ بعد وفاة عمِّه أبي طالب الذي كان يدفع عنه أذىٰ قومه، ازداد أذىٰ الكفار له، فخرج إلىٰ الطائف يدعوهم إلىٰ توحيد الله؛ فقابلوه بالكفر والتَّكذيب، وأغروا سفهاءهم وصبيانهم بأذيته؛ فانصرف راجعًا من الطائف إلىٰ مكة، وفي مرجعه ذلك دعا بالدُّعاء المشهور دعاء الطَّائف: «**اللهم إليك أشكو ضعف قُوَّتي، وقلة حيلتي، وهواني علىٰ الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلىٰ من تكلني؟ إلىٰ بعيد يتجهَّمُني؟ أو إلىٰ عدو مَلَّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أُبالي، غير أنَّ عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرَقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحلَّ عليَّ غضبُك أو أن ينزل بي سخطك، لك العتبىٰ حتىٰ ترْضىٰ، ولا حول ولا قُوَّة إلا بك**»[(١)].

والفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخليفة الحازم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان يكره وفود العلوج للمدينة وإقامتهم بها، كان يريد أن تبقىٰ علىٰ نقائها الأوَّل التي كانت عليه في عهد النبي ﷺ، فغُلب علىٰ دخول العلوج للمدينة للعمل، وكان ذلك من أسباب اغتيال العلج أبي لؤلؤة المجوسي لخير الأمَّة بعد نبيِّها ﷺ والصدِّيق أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي خروج الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالصَّحابة إلىٰ الشَّام، وصل إلىٰ وادي سرغ بتبوك، وبلغه أنَّ الشام بها الطاعون؛ فرجع بالجند حفظًا لهم، وقال: نفر من قدر الله إلىٰ قدر الله. رواه البخاري.

---

(١) زاد المعاد (ص٣٤١).

قال العلامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الحازم: هو الذي ينازع ويدافع الأقدار المؤلمة بما يدفعها قبل نزولها، أو يرفعها بعد نزولها، أو يخففها بالطرق المباحة، أو المأمور بها، فإن أعياه ذلك؛ استسلم للقدر، ورضي بقضاء الله، وسلم لأمره، ولهذا قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «نفر من قدر الله إلىٰ قدر الله».

كذلك يفر العبد مما يكرهه الله باطنًا وظاهرًا إلىٰ ما يحبه الله ظاهرًا وباطنًا، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾ [الذاريات: ٥٠].

ويفر من أسباب الهلاك والعطب والضرر إلىٰ أسباب النجاة والسلامة، وحصول النفع، ولكن الشأن في معرفة الأسباب النافعة والضارة، ثم في سلوك خير الأمرين، ومدافعة أشد الضررين، والله الموفق وحده».

ومن حكمة الله في ابتلاء عباده بالمصائب تكفير ذنوبهم، وتمحيص إيمانهم، ورفعة درجاتهم، وإيقاظهم من الغفلة، وتنمية توكُّلهم علىٰ ربِّهم.

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المصيبة التي تصيب العبد، ويؤمر بالصبر عليها، ويثاب علىٰ ذلك؛ نوعان:

مصيبة تأتيه بغير اختياره وعمله؛ كفقد الأحباب، والمكاره التي تصيبه في بدنه أو قلبه أو ماله أو حبيبه، فمن نعمة الله علىٰ المؤمن أنه إذا قام بوظيفة الصبر والرِّضىٰ واحتساب الأجر؛ أعطاه الله أجره بغير حساب.

والنوع الثاني: المصيبة التي تنال المؤمن بأسباب عمله الصالح؛ كالجهاد،

---

(١) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص٣١).

(٢) مجموع الفوائد (ص٧٠، ٧١).

والحج، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فهذه تشارك الأولىٰ في ثوابها والصبر عليها، وتزيد عليها بشرف سببها حيث نشأت عن طاعة الله؛ فكانت أسبابها خير الأسباب، وثمرتها خير الثمار، وكانت مع ذلك تابعة لتلك الطاعة والعبادة التي قام بها العبد.

قال تعالىٰ في المجاهدين بأنهم: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] الآية.

وقال: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

وهذه يعان عليها العبد ما لا يعان علىٰ الأخرىٰ».

وليس معنىٰ هذا أن الإنسان يستدعي المصائب لنفسه، فإنَّ التَّوبة خير للمسلم؛ لأنَّها ناشئة عن إرادته، وتكفير المصائب للذنوب اضطراري، والمسلمون يصبحون ويمسون توَّابين، والتَّائب من الذنب كمن لا ذنب له، بل يُبدِّل الله سيِّئات التَّائب حسنات، والمؤمنون - ولله الحمد - يدرءون بالحسنة السيِّئة، وهذا من أسباب دفع آثار الذُّنوب.

ولا أحد يستغني عن رحمة الله وعدله، وأن يدفع تقصيره بعفو الله، وخير خلق الله وصفوتهم محمد رسول الله ﷺ علَّم أمَّته الأخذ بالأسباب التي تدفع عنهم الشُّرور، فكان يقول في سجوده: «**اللَّهمَّ إني أعوذ برضاك من سخطك،**

وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك».

وأعمالنا نحن المخلوقين العبيد مستحقَّة لله بموجب عبوديَّتنا وتألُّهنا لله، ومهما أدركنا من الأحوال أكملها، فلابُدَّ لنا أن نسأل الله عفوه؛ فأعمالنا وشكرنا لا توازي نعم الله علينا، فضلًا عن استنفاد الذُّنوب للحسنات، فلا نزال نسأل الله بلسان الحال والمقال، ونستعيذ برضاه من سخطه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فنعم الله تطالبه – المخلوق – بالشكر، وأعماله لا تقابلها، وذنوبه وغفلته وتقصيره قد تستنفد عمله؛ فديوان النعم وديوان الذنوب يستنفدان طاعاته كلَّها».

فلا أحد يستغني عن شكر الله والتَّوبة إليه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أمر – الله – جميع المؤمنين من أولهم إلىٰ آخرهم بالتوبة، ولا يستثنىٰ من ذلك أحد، وعلق فلاحهم بها، قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور:٣١] ، وعدَّد سبحانه من جملة نعمه علىٰ خير خلقه وأكرمهم عليه، وأطوعهم له وأخشاهم له؛ أن تاب عليه وعلىٰ خواص أتباعه، فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [التوبة:١١٧] ، ثم كرَّر توبته عليهم فقال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾ [التوبة: ١١٧]، وقدم توبته

---

(١) شفاء العليل (ص١٩٧).

(٢) شفاء العليل (ص١٩٨، ١٩٩).

عليهم علىٰ توبة الثلاثة الذين خلِّفوا، وأخبر سبحانه أن الجنة التي وعدها أهلها في التوراة والإنجيل يدخلها التائبون، فذكر عموم التائبين أولًا ثم خصَّ النبيَّ ﷺ والمهاجرين والأنصار بها، ثم خصَّ الثلاثة الذين خلِّفوا؛ فعُلم بذلك احتياج جميع الخلق إلىٰ توبته عليهم، ومغفرته لهم، وعفوه عنهم. وقد قال تعالىٰ لسيد ولد آدم وأحب خلقه إليه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة:٤٣]؛ فهذا خبر منه وهو أصدق القائلين، أو دعاء لرسوله ﷺ بعفوه عنه».

وفي دفع أسباب المصائب العامة التي تتعلَّق بمصالح المسلمين العامَّة وأمنهم؛ فإن المرجع في المشورة والفتيا في ذلك إلىٰ خواص وأكابر العلماء، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: ٨٣].

وذلك لأنَّ العلماء بتوفيق الله لهم وما منّ به عليهم من العلم وما استصحبوه من الخبرة يدركون به التَّمييز بين مراتب الخير والشَّرِّ، التي ربَّما لا يفطن لها صغار السِّنِّ والشَّباب الذين يغلب عليهم التسرُّع والحدَّة، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**البركة في أكابركم**»، رواه ابن حبَّان من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تفطن لحقيقة الدين، وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية والمفاسد، بحيث تعرف ما مراتب المعروف، ومراتب المنكر، حتىٰ تُقدم أهمها عند الازدحام؛ فإنَّ هذا حقيقة العلم بما جاءت به الرسل؛ فإن التمييز بين جنس المعروف وجنس المنكر، أو

---

(١) اقتضاء الصِّراط المستقيم (٢/ ١٧٢).

جنس الدليل وغير الدليل يتيسر كثيرًا. فأما مراتب المعروف والمنكر ومراتب الدليل، بحيث يقدَّم عند التزاحم أعرف المعروفين وينكر أنكر المنكرين، ويُرجَّح أقوىٰ الدليلين؛ فإنه هو خاصَّة العلماء بهذا الدين».



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١١- ومن أعظم العلاجات لأمراض القلب العصبية، بل وأيضًا للأمراض البدنية: قوة القلب، وعدم انزعاجه وانفعاله للأوهام والخيالات التي تجلبها الأفكار السيئة؛ لأنَّ الإنسان متىٰ استسلم للخيالات، وانفعل قلبه للمؤثرات: من الخوف من الأمراض وغيرها، ومن الغضب والتشوش من الأسباب المؤلمة، ومن توقع حدوث المكاره وزوال المحاب؛ أوقعه ذلك في الهموم والغموم والأمراض القلبية والبدنية، والانهيار العصبي الذي له آثاره السيئة التي قد شاهد الناس مضارها الكثيرة[(١)].

الشَّرح:

ما أحسن نظم وصياغة وترتيب العلَّامة السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه الوسيلة، حيث بدأ بذكر السَّبب الذي يدفع به المسلم المؤثِّرات المفسدة لسعادته، وهو قوَّة القلب.

اطمئنَّ أيُّها المسلم، فإنَّ تسليط الشَّيطان علىٰ المسلمين هو من ضرورة تكليف البشر واختبارهم في هذه الدُّنيا؛ فالبشر يُختبرون بما يُميِّز الله به بين المؤمنين والكافرين، بخلاف الملائكة الذين خلقهم الله لمحض طاعته، وطبعهم علىٰ الإيمان.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ألقىٰ الله سبحانه العداوة بين الشيطان وبين

---

(١) الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة (ص٢٤).

(٢) الفوائد (ص٨٣).

الملَك، والعداوة بين العقل وبين الهوىٰ، والعداوة بين النفس الأمَّارة وبين القلب، وابتلىٰ العبدَ بذلك، وجمع له بين هؤلاء، وأمدَّ كلَّ حزب بجنود وأعوان؛ فلا تزالُ الحربُ سجالًا ودولًا بين الفريقين، إلىٰ أن يستولي أحدهما علي الآخر، ويكون الآخر مقهورًا معه. فإذا كانت النوبة للقلب والعقل والمَلَك؛ فهنالك السُّرور، والنعيم، واللذَّة والبهجة والفرح، وقُرَّة العين، وطيب الحياة، وانشراح الصدر، والفوز بالغنائم. وإذا كانت النوبة للنفس والهوىٰ والشيطان؛ فهنالك الغموم والهموم والأحزان، وأنواع المكاره، وضيق الصدر، وحبسُ الملك».

والمؤمن يعلم أنَّ الله هو القوي العزيز، المعين لكل خير، المستعاذ به من كل شرٍّ، وأنه قاهر للشَّياطين وكل مخلوق من إنس وجنٍّ وملائكة، فمن تولَّىٰ الله؛ فقد أخذ بأقوىٰ وأوثق أسباب السَّلامة والخير والسُّرور.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وفوق هذا الملكُ ملك قاهر لا يُقْهَر، وغالب لا يُغْلَبُ، وعزيز لا يُذَلُّ، فأرسل إليه: إن استنصَرْتَني نصرتُك، وإن استغثت بي أغثتُك، وإن التجأت إليَّ أخذتُ بثأرك، وإن هربت إليَّ وأويت إليَّ سَلَّطْتُكَ علىٰ عدوِّك، وجعلتُهُ تحت أسرك».

وانفعال القلب من المؤثِّرات من الخوف كان حال المشركين في الجاهلية، كانوا إذا نزلوا واديًا استعاذوا بسيد الجنِّ في الوادي من قومه، فرأىٰ الجنُّ خوف المشركين منهم فاستطالوا عليهم وأرهقوهم خوفًا؛ قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ

---

(١) الفوائد (ص٨٣).

ﭐلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وخطرات الخير وإرادات النفس لذلك هي مبدأ العمل الصالح، وخطرات السُّوء هي مبدأ الشُّرور، فمن دفع خطرات السُّوء وأعرض عنها؛ فقد سعىٰ في صلاح نفسه وأعماله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أما الخطرات فشأنها أصعب؛ فإنَّها مبدأ الخير والشَّرّ، ومنها تتولَّد الإرادات والهمم والعزائم؛ فمن راعىٰ خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب.

ومن استهان بالخطرات قادته قهرًا إلىٰ الهلكات».

والقلب وعاء، املأه بالخواطر الطيِّبة والنَّافعة والإرادات الصَّالحة؛ فيكون محلًّا نافعًا للعزائم في الخيرات، وممتلئًا من الاعتقادات الصَّحيحة والنيَّات الصَّالحة.

وادفع عن قلبك وساوس الشَّيطان، والخيالات الباطلة، والأوهام الكاذبة، فيكون قلبك منصبغًا بصبغة التَّوحيد، ومزهرًا بنور الوحي، ومصقولًا بإنكار ورد كل الواردات الباطلة التي تجتاز القلب ولا تستقرُّ فيه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إذا كان القلب ممتلئًا بالباطل اعتقادًا ومحبة؛ لم يبقَ فيه لاعتقاد الحقِّ ومحبته موضع، كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلُّم بما لا ينفع لم يتمكن صاحبه من النُّطق بما ينفعه، إلا إذا فرَّغ لسانه من النطق بالباطل، وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة؛ لم يُمكن شغلها بالطاعة إلا إذا

(١) الجواب الكافي [ترتيب موضوعي] (ص٧٥، ٧٦).

(٢) الفوائد (ص٤١، ٤٢).

فرَّغها من ضدها. فكذلك القلب المشغول بمحبَّة غير الله وإرادته والشوق إليه والأُنْس به، لا يُمكن شغلُهُ بمحبة الله وإرادته وحبِّه والشوق إلىٰ لقائه إلَّا بتفريغه من تعلُّقه بغيره، ولا حركة اللسان بذكره والجوارح بخدمته إلا إذا فرَّغها من ذكر غيره وخدمته، فإذا امتلأ القلب بالشُّغْل بالمخلوق والعلوم التي لا تنفع؛ لم يبقَ فيها موضع للشُّغل بالله، ومعرفة أسمائه وصفاته وأحكامه».

ووساوس الشَّيطان هي ما يلقيه علىٰ القلوب من خطرات وإرادات السُّوء، وهو ممَّا ابتُلي به الخلق من أضداد النَّفس، فطبيعتها أنَّها أمارة بالخير وبالسُّوء؛ فمجاهدة المسلم لإرادات وخواطر السُّوء، ولزومه لذكر الله؛ يجعل النَّفس مطمئنَّة، فلا تأمر إلَّا بخير، وهذا يكون للقلوب المخبتة من ذكر الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد ركب الله سبحانه في الإنسان نَفْسَين؛ نفسًا أمارة، ونفسًا مطمئنة، وهما متعاديتان، فكل ما خف علىٰ هذه ثقل علىٰ هذه، وكل ما التذَّت به هذه تألمت به الأخرىٰ. فليس علىٰ النفس الأمارة أشق من العمل لله، وإيثار رضاه علىٰ هواها، وليس لها أنفع منه. وليس علىٰ النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله، وإجابة داعي الهوىٰ، وليس عليها شيء أضر منه.

والملك مع هذه عن يمين القلب، والشيطان مع تلك عن ميسرة القلب، والحروب مستمرة لا تضع أوزارها إلا أن يستوفىٰ أجلها من الدنيا، والباطل كله يتحيز مع الشيطان والأمارة، والحقُّ كله يتحيز مع الملك والمطمئنة، والحرب دول وسجال والنصر مع الصبر، ومن صبر وصابر ورابط واتقىٰ الله؛ فله العاقبة

---

(١) الجواب الكافي [الترتيب الموضوعي] (ص٨٠).



في الدنيا والآخرة».

وسعادة المسلم أن تكون خطراته في مصالح دينه ودنياه؛ فتنهض عزائمه تبعًا لذلك في صلاح قلبه وجوارحه، وتكميل النَّفس بتنمية خيرها وإصلاح نقصها، والقيام بمصالح دينها ودنياها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «خطرات العاقل وفكره لا يجاوز ذلك، وبذلك جاءت الشرائع، ومصالح الدنيا والآخرة لا تقوم إلا علىٰ ذلك. وأعلىٰ الفكر وأجلها وأنفعها: ما كان لله والدار الآخرة، فما كان لله فهو أنواع:

أحدها: الفكرة في آياته المنزلة وتعقلها وفهمها، وفهم مراده منها، ولذلك أنزلها الله تعالىٰ لا لمجرد تلاوتها، بل التلاوة وسيلة؛ قال بعض السلف: أنزل الله القرآن ليُعمل به، فاتخذوا تلاوته عملًا.

الثاني: الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها والاستدلال بها علىٰ أسمائه وصفاته، وحكمته وإحسانه، وبرِّه وجوده، وقد حضَّ الله سبحانه عباده علىٰ التفكر في آياته وتدبرها وتعقلها، وذمَّ الغافل عن ذلك.

الثالث: الفكرة في آلائه وإحسانه وإنعامه علىٰ خلقه بأصناف النعم، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه. وهذه الأنواع الثلاثة تستوجب للقلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه، ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة.

الرابع: الفكرة في عيوب النفس وآفاتها، وفي عيوب العمل، وهذه الفكرة

---

(١) الجواب الكافي [الترتيب الموضوعي] (ص٧٨).

عظيمة النفع، وهي باب لكل خير، وتأثيرها في كسر النفس الأمارة بالسوء، ومتىٰ كسرت عاشت النفس المطمئنة وانبعثت، وصار الحكم لها، فحيي القلب، ودارت كلمته في مملكته، وبث أمراءه وجنوده في مصالحه.

الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته، وجمع الهم كله عليه. فالعارف ابن وقته؛ فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، فمتىٰ أضاع الوقت لم يستدركه أبدًا».

فالقلب الملك، إذا صلح صلحت الجوارح، وصلاحه مادته الإقبال علىٰ الله والميل عن سواه، والعلم النَّافع، والذكر، وتألهه بالإخبات إلىٰ الله، وإصغاء القلب إلىٰ النَّافع، والإعراض عمَّا لا ينفع من الضَّار والفضول.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ إصغاء القلب كإصغاء الأُذُن، فإذا صغا إلىٰ غير حديث الله؛ لم يبقَ فيه إصغاء ولا فهم لحديثه، كما إذا مال إلىٰ غير محبة الله؛ لم يبقَ فيه ميل إلىٰ محبَّته، فإذا نطق القلب بغير ذكره؛ لم يبقَ فيه محلٌّ للنطق بذكره كاللسان.

ولهذا في الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**لأن يمتلئ جوف أحدكم قَيْحًا حتي يريه؛ خير له من أن يمتلئ شعرًا**»، فبين أن الجوف يمتلئ بالشِّعر. فكذلك يمتلئ بالشُّبه، والشكوك والخيالات، والتقديرات التي لا وجود لها، والعلوم التي لا تنفع، والمُفاكَهات والمُضحِكاتِ، والحكايات ونحوها. وإذا امتلأ القلبُ بذلك جاءته حقائق القرآن والعلم الذي به كماله وسعادته، فلم تجد فيه

---

(١) الفوائد (ص٤٢).

فراغًا لها ولا قبولًا، فتعدَّتْه وجاوزته إلىٰ محلٍّ سواه، كما إذا بُذلت النصيحة لقلب ملآن من ضدِّها لا منفذ لها فيه؛ فإنه لا يقبلها، ولا تلجُ فيه، لكن تمرُّ مجتازة لا مستوطنة».

فترك القلب يسترسل في أودية الوساوس الضَّارَّة، والخيالات الفاسدة، والأوهام التي لا حقيقة لها؛ كلُّ ذلك مضارة بالقلب، وأخذ بالأسباب التي تجلب الهموم والغموم للقلب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «التقوىٰ ثلاث مراتب:

إحداها: حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرَّمات.

الثانية: حميتها عن المكروهات.

الثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني. فالأولىٰ تعطي العبد حياته، والثانية تفيده صحَّته وقوَّته، والثالثة تُكسِبُهُ سروره وفرحه وبهجته».

ولو اشتغل المسلم بتدبُّر كتاب الله والعمل به؛ لكفاه ذلك عن الانشغال بوساوس الشَّيطان؛ فإنَّ الشَّيطان يخنس بذكر الله، ويضعف سلطانه، ويكون المتدبِّر لكتاب الله في عبادة وذكر، وبتذكُّره لمعاني القرآن تذهب عنه الغفلة، وتتجدَّد معاني القرآن في قلبه، ويزداد إيمانه، ويُخبت قلبه، وتسارع جوارحه إلىٰ فعل الخيرات.

والمسلم يأخذ حذره من وساوس الشَّياطين، فكلَّما مرَّ بقلبه وارد سوء دفعه بالتَّوحيد والذِّكر والتعوُّذ من الشَّيطان؛ فإنَّ التجاء القلب إلىٰ الله لحفظه من وساوس الشَّيطان من أولىٰ وأحوج ما يستعين به ا لمسلم ربَّه.

---

(١) الفوائد (ص٤٥).

والمؤمن إسلامه وعقيدته عن يقين، فلا يرتدّ، ولا يبطل إسلامه لوساوس وتشكيكات شياطين الإنس والجنِّ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥].

ووساوس الشَّياطين عظيمة الخطر في الكفر والإلحاد؛ لأنَّ أعظم ما أرصده الشَّيطان لنا من عداوته هو الكفر والشِّرك الذي يكون سببًا في الحرمان من الجنَّة، ولذلك يوسوس لقلوب الموحِّدين ليخرجهم من الإسلام إلىٰ الكفر. قال النَّبي ﷺ: «**يأتي الشَّيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا، حتىٰ يقول: من خلق الله؛ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله منه**»، رواه البخاري.

ووساوس الشَّيطان لا تنتهي ما دام المسلم حيًّا، فلا تزال غزوات وساوسه تترىٰ لقلب المؤمن، لا يكلُّ ولا يملُّ عن سعيه في إفساد دين المسلمين، بل ويتحيَّن الشَّيطان الأحوال التي تضعف فيه النَّفس كالاحتضار عند الموت؛ ليُلقي إليه كلمة الكفر ويوسوس له بها فيُختم له بالكفر، وهذا لا يكون؛ فالله يحفظ علىٰ المؤمن إسلامه وإيمانه من عدوان الشَّيطان وتربُّصه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وكلما سعىٰ المسلم في تزكية نفسه وامتلاء قلبه من العلم النَّافع المستلزم للعمل الصَّالح؛ أجلب الشَّيطان عليه بما يُفسد عليه أسباب صلاحه بإفساد مادَّة الصَّلاح، وهو العلم، وتثبيط النَّفس عن العمل.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن القرآن مادة الهدىٰ والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولًا فأولًا، فكلما أحس بنبات الخير من القلب؛ سعىٰ في إفساده وإحراقه، فأُمر أن يستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ منه؛ لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن».

ومن أراد حفظ دينه؛ فعليه بتنمية مادَّة الخير في قلبه من العلم النَّافع، فلا يزال المسلم يتزوَّد من العلم النَّافع، وعليه تزكية عمله الصَّالح فلا يزال يتزوَّد من التَّقوىٰ ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

فالمسلم دائمًا في حاجة لتجديد إيمانه، وذلك بالأخذ بأسباب زيادته من العلم النَّافع والعمل الصَّالح، ومن أعظم أسباب ذلك مذاكرة معاني القرآن.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن التذكر**[(٢)]: «إنّه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]».

والتطيُّر هو من الأوهام والخيالات التي لا حقيقة لها، وهو من أسباب الشِّرك، وإذا استحوذت الطِّيرة علىٰ الإنسان قطعته عن السَّعي في مصالحه وأموره الدِّينيَّة والدُّنيويَّة.

---

(١) إغاثة اللَّهفان (١/ ١٨١).

(٢) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٥٢٤).

قال إسماعيل بن أميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ثلاث لا يعجزن ابن آدم: الطِّيرة، وسوء الظنِّ، والحسد.

فينجيك من سوء الظن أن لا تتكلم به.

وينجيك من الحسد أن لا تبغي أخاك سوءًا.

وينجيك من الطِّيرة أن لا تعمل بها».

والواجب علىٰ المسلم أن يتوكَّل علىٰ الله في أداء أموره وأعماله، والسَّبب الباعث له للقيام بها هو حكم الشَّرع؛ فالأمور الواجبة والمستحبَّة والمباحة لا تتعطَّل لهاجس التطيُّر، ومن ردَّته طيرته فقد أشرك، عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من ردَّتْه الطِّيرةُ عن حاجته فقد أشرك**. قالوا: فما كفَّارةُ ذلك؟ قال: **أن تقولوا: اللهم لا خير إلَّا خيرك، ولا طير إلَّا طيرُك، ولا إله غيرك**»، رواه أحمد.

وأخبر النبيُّ ﷺ أنَّ الطِّيرة لا تَرُدُّ مسلمًا، فتوحيد المسلم وتوكُّله علىٰ الله يجعله ساعيًا في أداء حوائجه، وعلَّمنا النبيُّ ﷺ الذِّكر الذي تطمئنُّ به النُّفوس وتدفع هواجيس التطيُّر؛ عن عقبة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: ذُكرت الطِّيرةُ عند رسول الله ﷺ، فقال: «**أحسنها الفأل، ولا تَرُدُّ مسلمًا، فإذا رأىٰ أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلَّا أنت، ولا يَدْفع السيِّئات إلا أنت، ولا حول ولا قوَّة إلا بك**»، رواه أبو داود[2].

---

(١) شرح صحيح البخاري (٩/ ٢٦١).

(٢) قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بسند صحيح». كتاب التَّوحيد (ص١١٢).

ومن توكَّل علىٰ الله، ولم يتطيَّر ولم يتشاءم؛ لم تضرَّه الطِّيرة، وشُرع لنا تحديث نفوسنا بما يكون سببًا لسعادتها، وتنشيطًا لها في فعل الطَّاعات؛ فالكلمة الطيِّبة من الفأل الذي يحبُّه النبيُّ ﷺ.

ومن تطيَّر فقد أجلب علىٰ نفسه أسباب الضرر بالشِّرك، الذي ربَّما كان سببًا قدريًّا لتسليط الضَّرر علىٰ المتطيِّر، حيث لم يرغب إلىٰ الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن التوكُّل عليه والثقة به تحيل الأسباب المكروهة إلىٰ خلاف موجباتها وتبيين مرتبتها، وأنها محال لمجاري مشيئة الله وحكمته، وأنه سبحانه هو الذي يضر بها وينفع، ليس إليها ولا لها من الأمر شيء، وأن الأمر كله لله، وأنها إنما ينال ضررها من علق قلبه بها، ووقف عندها، وتطير بما تطير به منها؛ فذلك الذي يصيبه مكروه الطيرة، والطيرة سبب للمكروه علىٰ المتطير، فإذا توكل علىٰ الله ووثق به واستعان به؛ لم يصده التطير عن حاجته، وقال: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك. فإنَّه لا يضره ما يتطير منه شيئًا».

والعقائد والأعمال المبتدعة ضلالات تزيَّنت للأتباع بزينة الحقِّ، وبُنيت علىٰ شفا جرف هار من أوهام وخيالات الظُّنون الباطلة، وما تهوىٰ الأنفس التي غرَّ بها المتبوعون من أضلُّوه.

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (٢/ ٢٧٢، ٢٧٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «حدث بعد انقضاء عصرهم – الصحابة – من ساء فهمه وساء قصده، وقعوا في أنواع من التأويل بحسب سوء الفهم وفساد القصد، وقد يجتمعان، وقد ينفردان، وإذا اجتمعا تولد من بينهما جهل بالحق ومعاداة لأهله، واستحلال ما حرَّم الله منهم.

وإذا تأملت أصول المذاهب الفاسدة، رأيت أربابها قد اشتقوها من بين هذين الأصلين، وحملهم عليها منافسة في رياسة أو مال، أو توصل إلىٰ عرض من أعراض الدنيا، تخطبه الآمال وتتبعه الهمم وتشرئب إليه النفوس، فيتفق للعبد شبهة وشهوة، وهما أصل كل فساد ومنشأ كل تأويل باطل، وقد ذم الله سبحانه من اتبع الظن وما تهوىٰ الأنفس؛ فالظن الشبهات وما تهوىٰ الأنفس الشهوات».

وإذا تأمَّلت تحريفات المبتدعين لمعاني نصوص القرآن والسُّنَّة، وهي التي يسمونها «تأويلات»؛ وجدتها ضلالات مخالفة لحقيقة ألفاظ القرآن، يزيِّنها المبتدعة لأتباعهم ليجتذبوهم بها إلىٰ ضلالهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في تأويلات المبتدعين**[2]: «هي عند التَّحقيق خيالات وهميَّة، وقوادح فكرية، نبذوا بها القرآن والسُّنَّة وراء ظهورهم».

ومن شرِّ أنواع الأوهام والخيالات الباطلة التي يغرُّ بها دعاة النَّار متبوعيهم؛ تزيين الشِّرك والكفر وفروعه بالحقِّ والخير، وفي الآخرة يلوم التَّابعون متبوعيهم علىٰ ما غرُّوهم به، فيقولون لهم: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الصافات: ٢٨].

---

(١) الصَّواعق المرسلة علىٰ الجهميَّة والمعطِّلة (١/ ٥١٠).

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٣١٩).

قال العلَّامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي: إنكم كنتم تأتوننا في زي أهل اليمين، فغررتمونا بذلك حتىٰ أوردتمونا الموارد».

وقال الحافظ عبد الرزاق الرَّسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قيل: كان الرؤساء قد حلفوا للأتباع أنَّ ما يدعونهم إليه هو الحق، فوثقوا بأيمانهم.

والمعنىٰ: كنتم تأتوننا من ناحية اليمين أنكم علىٰ الحق».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ الكفَّار يتلاومون في عَرَصات القيامة، كما يتخاصمون في دركات النَّار».

وقال السُّدِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «تأتوننا من قِبَل الحقّ، تُزيِّنون لنا الباطل، وتصدُّونا عن الحقِّ».

وتفسير السديّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ**﴾ [الأنعام: ١١٢].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥]: «﴿**يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ**﴾ أي: يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتىٰ يجعلوه في أحسن صورة؛ ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء، الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم

---

(١) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٦/ ٢٣٧).

(٢) رموز الكنوز (٦/ ٣٨٢، ٣٨٣).

(٣، ٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٩).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٧٣).

الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة، فيعتقدون الحقَّ باطلًا والباطل حقًّا».

وعقائد وأعمال الكافرين تزيين الشَّياطين، ضلَّ سعيهم في الحياة الدُّنيا ويحسبون أنَّهم يحسنون صنعًا، يسيرون في أمر الشَّيطان ونهيه وضلاله، ولا يصلون إلىٰ عاقبة تنجيهم من سخط الله، ولا عاقبة تورثهم الجنَّة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب يُرىٰ في أعين الناظرين ماءً، ولا حقيقة له، وهكذا الأعمال التي لغير الله عَزَّوَجَلَّ وعلىٰ غير أمره يحسبها العامل نافعة له، وليست كذلك، وهذه هي الأعمال التي قال الله عَزَّوَجَلَّ فيها: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣] وتأمل جعل الله سبحانه السراب بالقيعة، وهي الأرض الخالية القفر من البناء والشجر والنبات والعالم، فمحل السراب أرض قفر لا شيء بها، والسراب لا حقيقة له، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدىٰ، وتأمل ما تحت قوله: ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ [النور:٣٩] ، والظمآن الذي اشتد عطشه فرأىٰ السراب، فظنَّه ماءً فتبعه، فلم يجده شيئًا، بل خانه أحوج ما كان إليه؛ فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم علىٰ غير طاعة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ولغير الله؛ جُعلت كالسراب، فرُفعت لهم أظمأ ما كانوا إليها فلم يجدوا شيئًا، ووجدوا الله سبحانه ثَمَّ؛ فجازاهم بأعمالهم ووفاهم حسابهم.

---

(١) الأمثال في القرآن الكريم (ص٣٢٩، ٣٣٠).

وفي الصحيح – البخاري – من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ في حديث التجلي يوم القيامة: «**ثم يُؤتىٰ بجهنم تعرض كأنها السراب، فيقال لليهود: وما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزيرًا ابن الله. فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا؛ فيقال: اشربوا. فيتساقطون في جهنم. ثم يقال للنصارىٰ: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كُنا نعبد المسيح ابن الله. فيقال: كذبتم، ما كان لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: أن تسقينا؛ فيقال لهم: اشربوا. فيتساقطون**»، وذكر الحديث».

ومن أعظم الأوهام والخيالات الباطلة، التي لا حقيقة لها، وأفسدت أديان النَّاس؛ تعلُّقهم بالشَّجر والحجر والموتىٰ، يرجون منهم جلب المنفعة ودفع المضرَّة من طلب الرِّزق والذُّرِّيَّة وشفاء الأسقام والنَّصر علىٰ الأعداء.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥].

قال العلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «معنىٰ الاستفهام فيه إنكار أن يكون في الضَّلال كلُّهم أبلغ ضلالًا ممَّن عبد غير الله ودعاه، حيث يتركون دعاء السَّميع المجيب القادر علىٰ تحصيل كل بغية ومرام، ويدعون من دونه من لا يستجيب لهم».

وكل ضلالات الشَّيطان خيالات اغترَّ بها من تولَّاه، ممَّن قدَّم حكمه ووساوسه

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص٢٣٩).

علىٰ حكم الله وأمره ونهيه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٩، ٣٠].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «حين انسلخوا من ولاية الرحمن، واستحبوا ولاية الشيطان؛ حصل لهم النصيب الوافر من الخذلان، ووُكلوا إلىٰ أنفسهم؛ فخسروا أشد الخسران، ﴿وَ﴾ هم ﴿يحسبون أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾؛ لأنهم انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقًّا والحق باطلًا.

وفي هذه الآيات دليل علىٰ أنَّ الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة، حيث ذكر تعالىٰ أنَّه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول، وأنَّه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص. وفيه دليل علىٰ أن الهداية بفضل الله ومَنِّه، وأن الضلالة بخذلانه للعبد، إذا تولىٰ - بجهله وظلمه - الشيطانَ، وتسبب لنفسه بالضلال، وأن من حسب أنه مهتدٍ وهو ضالٌّ؛ أنه لا عذر له؛ لأنه متمكن من الهدىٰ، وإنما أتاه حسبانه من ظلمه بترك الطريق الموصل إلىٰ الهدىٰ».

والدُّنيا تتخيل بزينتها وزخرفها لتخادع بغرورها النَّاس عن الآخرة، فأمانيها الكاذبة تختطف النَّاس في عاجل شرِّها؛ لتقطع النَّاس عن عاجل وآجل خيرات الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ٢٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٩٢).

وأعظم شرِّ الشَّيطان تزيينه الدُّنيا للمسلمين، لدرجة أنَّه يغرُّهم بها لعبوديَّتها من حيث لا يشعرون؛ فيصير الإنسان عبدًا لها، يرقُّ قلبه لها، وتكون هي أساس ولائه ورضاه وسعادته وتعسه وشقائه، يفرح لكثرتها ويحزن لنقصها أو لفوات زيادتها في بعض الأحايين.

قال يحيىٰ بن معاذ الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الدنيا خمر الشَّيطان، من سكر منها فلا يفيق إلا في عسكر الموتىٰ، نادمًا بين الخاسرين»(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أقل ما في حبها أنه يُلهي عن حب الله وذكره، ومن ألهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين. وإذا لها القلب عن ذكر الله؛ سكنه الشيطان وصرفه حيث أراد، ومن فقهه في الشرِّ أنه يرضيه ببعض أعمال الخير؛ ليريه أنه يعمل فيها الخير، وقد تعبَّد لها قلبه، فأين يقع ما يفعله من البر مع تعبُّده لها، وقد لعنه رسول الله ﷺ ودعا عليه، فقال: «**لعن عبد الدينار والدرهم**»؟! وقال: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم؛ إن أعطي رضي، وإن مُنع سخط**»، وهذا تفسير منه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وبيان لعبوديتها».

وخيال وأماني الرُّكون إلىٰ الدُّنيا اجتذب عامَّة الخلق، إلَّا من رحم الله؛ فصاروا في سعيهم فيها من حيث لا يشعرون كأنَّهم سيُخلَّدون، وزينة الدُّنيا ومتاعها اجتذب الخلق إلىٰ هذا الخلود، فأشغلهم عن حقيقتها.

قال تعالىٰ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣

(١، ٢) عُدَّة الصَّابرين وذخيرة الشَّاكرين (ص٤٢٦).

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾ [سورة التكاثر].

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «ما أصبح أحد في الدُّنيا إلَّا ضيف، وما له عارية؛ فالضِّيف مرتحل، والعارية مؤداة».

وقال عتبة بن غزوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّكم منتقلون عنها - الدُّنيا - إلىٰ دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم»، رواه مسلم.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «أشبه الأشياء بالدنيا الظلُّ، تحسب له حقيقة ثابتة، وتحسبه ساكنًا، وهو في تقلص وانقباض، وتتبعه لتدركه فلا تلحقه. وأشبه الأشياء بها السراب ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٣٩﴾ [النور: ٣٩] وأشبه الأشياء بها المنام، يرىٰ فيه العبد ما يحب وما يكره، فإذا استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له».

وشبَّه النبيُّ ﷺ الدُّنيا بالطَّعام، فمن تناول النَّافع منه غير الضَّار، بمقدار الحاجة من حلِّه، واستعمله في عبوديَّة الله؛ بُورك له في طعامه، ومن تناوله بشرِّه ومن غير حلِّه، وملأ بطنه منه فوق ما يحتاجه البدن؛ أضرَّ ببدنه، وربَّما قتله.

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قام رسول الله ﷺ فخطب النَّاس، فقال: «**لا والله ما أخشىٰ عليكم إلَّا ما يُخرج الله لكم من زهرة الدُّنيا**. فقال رجل: يا رسول الله! أويأتي الخير بالشرِّ؟ فصمت رسول الله ﷺ، ثم قال: كيف قلت؟

---

(١) عُدَّة الصَّابرين وذخيرة الشَّاكرين (ص٤٢٧).

(٢) عُدَّة الصَّابرين وذخيرة الشَّاكرين (ص٤٣٦، ٤٣٧).

قال: يا رسول الله! أويأتي الخير بالشرِّ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الخير لا يأتي إلا بالخير، وإنَّ ممَّا يُنبتُ الرَّبيع ما يقتل حبطًا أو يلمّ، إلَّا آكلة الخضر أكلت حتىٰ إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشَّمس فثلطت وبالت، ثم اجترَّت فعادت فأكلت؛ فمن أخذ مالًا بحقِّه يُبارك له فيه، ومن أخذ مالًا بغير حقِّه فمثله كمثل الذي يأكل ولا يشبع**»، رواه البخاري ومسلم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أخبر ﷺ أنه إنما يخاف عليهم الدنيا، وسمَّاها زهرة تشبيهًا لها بالزهر في طيب رائحته، وحسن منظره، وقله مقامه، وأن وراءه ثمرًا خيرًا منه وأبقىٰ.

وقوله: «**إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يلمّ**»، هذا من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا والانهماك عليها والشّرَه فيها، وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع، فتأكل منها بأعينها، فربما هلكت حبطًا، و«الحبط»: انتفاخ بطن الدابة: من الامتلاء أو من المرض».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أول الحديث مثل للشّره في جمع الدنيا الحريص علىٰ تحصيلها؛ فمثاله: مثال الدَّابة التي حملها شره الأكل علىٰ أن قتلها حبطًا أو ألمَّ بقتلها؛ فإن الشره الحريص إما هالك وإما قريب من الهلاك، فإن الربيع ينبت أنواع البقول والعشب، فتستكثر منه الدَّابة حتىٰ ينتفخ بطنها لما جاوزت حدَّ الاحتمال، فتنشق أمعاؤها وتهلك؛ كذلك الذي يجمع الدنيا من

(١) عُدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٤٥١، ٤٥٢).

(٢) عُدَّة الصَّابرين وذخيرة الشَّاكرين (ص٤٥٣، ٤٥٤).

غير حلِّها، ويحبسها أو يصرفها في غير حقها. وآخر الحديث مثل للمقتصد بآكلة الخضر الذي تنتفع الدابة بأكله، ولم يحملها شرهها وحرصها علىٰ تناولها منه فوق ما تحتمله، بل أكلت بقدر حاجتها، وهكذا هذا أخذ ما يحتاج إليه ثم أقبل علىٰ ما ينفعه. وضرب بول الدابة وثلطها مثلًا لإخراجه المال في حقه، حيث يكون حبسه وإمساكه مضرًّا به؛ فنجا من وبال جمعه بأخذ قدر الحاجة منه، ونجا من وبال إمساكه بإخراجه، كما نجت الدابة من الهلاك بالبول والثلط.

وفي هذا الحديث إشارة إلىٰ الاعتدال والتوسط بين الشره في المرعىٰ القاتل بكثرته، والإعراض عنه وتركه بالكلية؛ فتهلك جوعًا. وتضمن الخبر أيضًا إرشاد المكثر من المال إلىٰ ما يحفظ عليه قوَّته وصحته في بدنه وقلبه، وهو الإخراج منه وإنفاقه، ولا يحبسه فيضرّه حبسه، وبالله التوفيق».

من شُغل بالدُّنيا واجبه أن يتعاهد قلبه بجمعية قلبه علىٰ عبوديَّة الله عَزَّوَجَلَّ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن حال بعض من شُغل بالدُّنيا[1]: «يشغله عن عبوديَّة قلبه في الواجب وتفريغه لله عند أدائه، فيؤدِّيه ظاهرًا لا باطنًا».

وقال ابن القيم أيضًا عن أولئك[2]: «يُشغل عن أعظم سعادة العبد، وهو تفريغ قلبه لحب الله عَزَّوَجَلَّ، ولسانه لذكره، وجمع قلبه علىٰ لسانه، ولسانه وقلبه علىٰ ربه».

ومن شر خيالات السُّوء التي غرَّ بها الشَّيطان المفرِّطين في جنب الله؛ تزيينه لهم أعمالهم، أو تهاونهم فيها بباعث حسن الظَّن بالله والرَّجاء لرحمته.

(١، ٢) عُدَّة الصَّابرين وذخيرة الشَّاكرين (ص٤٣٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن حسن الظن إن حمل علىٰ العمل وحثَّ عليه وساق إليه؛ فهو صحيح، وإن دعا إلىٰ البطالة والانهماك في المعاصي؛ فهو غرور، وحسن الظن هو الرجاء، فمن كان رجاؤه هاديًا له إلىٰ الطاعة، وزاجرًا له عن المعصية؛ فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطالته رجاءً، ورجاؤه بطالة وتفريطًا؛ فهو المغرور».

وقال ابن القيم[(٢)]: «إن المحسن حسن الظنّ بربِّه أنَّه يجازيه علىٰ إحسانه، ولا يخلف وعده، وأنه يقبل توبته».

فحسن الظنِّ بالله هو إحسان العمل فيما يحبُّه الله ويرضاه، والانتهاء عمَّا يُسخطه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «حسن الظنِّ إنَّما يكون مع انعقاد أسباب النَّجاة، وأمَّا مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتَّىٰ إحسان الظنِّ».

وأماني الكافرين الغافلين عن معنىٰ ما خُلقوا له؛ هو الفناء في الدُّنيا، وذلك لا ينفعهم من حساب الله وعقابه، قال تعالىٰ: ﴿**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾ [البقرة: ٩٦].

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «إن الإنسان لو مُتع ما مُتع من السنين، ثم انقضىٰ ذلك المتاع وجاءهم العذاب؛ أن ذلك المتاع الفائت لا

---

(١) الجواب الكافي [تبويب موضوعي] (ص٢٩).

(٢) الجواب الكافي (ص٢٦).

(٣) الجواب الكافي (ص٢٨).

(٤) أضواء البيان (١/ ٩٨).

ينفعه، ولا يغني عنه شيئًا بعد انقضائه وحلول العذاب محله، وذلك في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]، وهذه هي أعظم آية في إزالة الداء العضال الذي هو طول الأمل. كفانا الله والمؤمنين شره».

والدُّنيا التي فني الكافرون بشيء يسير جدًّا من متاعها، في مدَّة يسيرة جدًّا، لو أنَّ لهم أن يفتدوا بالدُّنيا كلِّها يوم القيامة ما تُقبِّل منهم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٦، ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ﴾ [آل عمران: ٩١].

والموفَّق هو الذي يعيش حياته كلَّها لله، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وقد أورثنا الله الأرض، وامتنَّ علينا بمنافعها وخيراتها المباحة، فقال سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

قال مجاهد: «جعلكم ساكنيها مدَّة أعماركم، ومنه العُمْرىٰ»(١).

وأنبياء الله عَزَّوَجَلَّ حثُّوا أقوامهم علىٰ تحقيق التَّوحيد، وذكروا لهم أنَّ خيرات الدُّنيا تُجتنىٰ بتوحيد الله وعبوديَّته وطاعته، فقد قال نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ

---

(١) رموز الكنوز (٣/ ١٧٩).

ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۝١٢﴾ [نوح: ١٠-١٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح: ١٢] أي: إذا تبتم إلىٰ الله واستغفرتموه وأطعتموه؛ كثَّر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وَأَدَرَّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين؛ أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخلَّلها بالأنهار الجارية بينها. هذا مُقامُ الدعوة بالترغيب».

وحذَّرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن نستمتع من الدُّنيا بحرامها، وأن يكون بقاؤنا فيها للشِّرك والبدع، وأن نفنىٰ بزينتها عمَّا خُلقنا من أجله وهو توحيد الله، فقال سبحانه: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٦٩﴾ [التوبة: ٦٩].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «استمتعتم بخلاقكم؛ أي: بنصيبكم من الدنيا، فتناولتموه علىٰ وجه اللذة والشهوة معرضين عن المراد منه، واستعنتم به علىٰ معاصي الله، ولم تتعد همتكم وإرادتكم ما خولتم من

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٤٠، ٦٤١).

(٢) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٣٥٥).

النعم كما فعل الذين من قبلكم، ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾؛ أي: وخضتم بالباطل والزور وجادلتم بالباطل لتدحضوا به الحق؛ فهذه أعمالهم وعلومهم، استمتاع بالخلاق وخوض بالباطل؛ فاستحقوا من العقوبة والإهلاك ما استحق من قبلهم ممن فعلوا كفعلهم، وأما المؤمنون فهم وإن استمتعوا بنصيبهم وما خولوا من الدنيا؛ فإنه علىٰ وجه الاستعانة به علىٰ طاعة الله، وأما علومهم فهي علوم الرسل، وهي الوصول إلىٰ اليقين في جميع المطالب العالية، والمجادلة بالحق لإدحاض الباطل».

ونبيُّ الله سليمان عليه الصلاة والسلام آتاه الله من الملك ما لم يؤت أحدًا من العالمين، وقد أبان عن حكمة الله في ذلك فقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، وقد كان شكورًا - صلوات الله وسلامه عليه -، حيث ابتدأ بشكر الله بنسبة النِّعم إليه، وكان مستحضرًا لمعنىٰ ما آتاه الله.

وهذه الحكمة، وهذا الابتلاء بنعم الدُّنيا؛ هو حكم عامٌّ لكل الخلائق، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ⑦﴾ [الكهف: ٧].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «يخبر تعالىٰ: أنه جعل جميع ما علىٰ وجه الأرض: من مآكل لذيذة، ومشارب، ومساكن طيبة، وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار؛ فتنة واختبارًا. ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه،

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٤٩٤).

ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات فانية مضمحلة، وزائلة منقضية.

وستعود الأرض صعيدًا جرزًا قد ذهبت لذاتها، وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها، هذه حقيقة الدنيا، قد جلَّاها الله لنا كأنَّها رأيُ عين، وحذَّرنا من الاغترار بها، ورغبنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا؛ فاغترَّ بزخرف الدنيا وزينتها من نظر إلىٰ ظاهر الدنيا، دون باطنها؛ فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتُّع السوائم، لا ينظرون في حقِّ ربهم، ولا يهتمون لمعرفته، بل همُّهم تناول الشهوات، من أيِّ وجه حصلت، وعلىٰ أيِّ حالة اتفقت؛ فهؤلاء إذا حضر أحدهم الموت قلق لخراب ذاته، وفوات لذاته، لا لما قدمت يداه من التفريط والسيئات.

وأما من نظر إلىٰ باطن الدنيا، وعلم المقصود منها ومنه؛ فإنه تناول منها ما يستعين به علىٰ ما خُلق له، وانتهز الفرصة في عمره الشريف؛ فجعل الدنيا منزل عبور لا محل حبور، وشُقَّة سفر لا منزل إقامة؛ فبذل جهده في معرفة ربه، وتنفيذ أوامره، وإحسان العمل؛ فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم، وسرور وتكريم؛ فنظر إلىٰ باطن الدنيا حين نظر المغتر إلىٰ ظاهرها، وعمل لآخرته حين عمل البطال لدنياه؛ فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين!!».

والمذموم في الدُّنيا عمل الإنسان المذموم فيها، فيرجع الذَّمُّ إلىٰ عمل الإنسان المذموم لا إلىٰ ذات الدُّنيا من حيث هي، فقد بارك الله في خلقها.

والمذموم هو التَّحاسد علىٰ الدُّنيا، وهو أوَّل ذنب ابني آدم الذي قصَّ الله

علينا خبره في القرآن.

ومن أعظم تخييل الشَّيطان وتغريره بالنَّاس إغفالهم عن ذكر الله، وإغلاق مداركهم عمَّا يضرُّهم، فلا ينتبه المسلم من غفلته إلَّا وقد أصابه طائف الشَّيطان.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وطائف الشيطان غشاوة تصيب القلب بالغفلة، فتمنعه من ملاحظة عظمة الله وآثار السيئات، فيتبع الغافل وساوس الشَّيطان.

قال الحافظ عبد الرزَّاق الرَّسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المعنىٰ: إذا مسَّهم لَمَمٌ من الشيطان؛ وسوسة أو غضب أو همٌّ بمعصية، ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ حجج الله وزواجره، وتفكروا في اطلاعه عليهم وعظمته وقدرته؛ فاستحيوا وخافوا غضبه وعقابه، ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] بأعين قلوبهم آثار قبح المعاصي وسوء عاقبتها؛ فاستتروا من ذلك، خوفًا يردعهم، وحياءً يقرعهم.

قال محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما عُبِدَ الله بشيء أحب إليه من ترك المعاصي».

ومن الخيالات التي غرَّ بها الشَّيطان أولياءه؛ تزيينه لهم موالاته، وموالاة حزبه، وأنَّهم يجدون بذلك الظَّفر والعزَّ والقوَّة والمال، والشَّيطان نفسه كيده ضعيف؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وحزب الشَّيطان من الكافرين والمبتدعين لو كانت لهم جولة، فإنَّه لا تكون لهم عاقبة؛ قال تعالىٰ:

(١) رموز الكنوز (٢/ ٣٤٧).

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

وسنَّة الله معلومة في أنَّه سبحانه ينصر الحقَّ ويتولَّاه، ويجعل له الظُّهور والعاقبة، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣]، وسنَّة الله معلومة بأنَّه يهيِّئ الأسباب لإعزاز الحقِّ وقوَّته ونصرته، وأسباب ضعف الباطل واضمحلاله، قال تعالىٰ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١] .

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياء أضعف منهم؛ فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت، اتخذت بيتًا وهو أوهن البيوت وأضعفها. وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء، فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ

---

(١) الأمثال في القرآن الكريم (ص٣٢٧).

لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] وقال تعالىٰ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٥]، وقال بعد أن ذكر هلاك الأمم المشركين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:١٠١] فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل علىٰ أن من اتخذ من دون الله وليًّا يتعزز به ويتكثَّر به ويستنصر به؛ لم يحصل له به إلا ضد مقصوده، وفي القرآن أكثر من ذلك».

وشرُّ أنواع الخيالات التي أفسدت عقائد المسلمين وعلومهم؛ ضلالات أوهام الفلاسفة الصَّابئة عبَّاد الكواكب والنُّجوم.

وأجلب هؤلاء المشركون علىٰ المسلمين بضلالاتهم الباطلة، بدعوىٰ أنَّ رسول الله ﷺ وخاتم النبيين لم يُبيِّن كلَّ علوم الدِّين بزعمهم؛ كصفات الله وحقائق اليوم الآخر، وصار هذيان خيالات عقول الفلاسفة الضَّالين تُبيِّن علوم الغيب بزعمهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن هؤلاء الملاحدة من المتفلسفة، ومن سلك سبيلهم من المخالفين لما جاء به الرسول ﷺ في الأمور العلمية؛ كالتوحيد والمعاد وغير ذلك، يقولون: إن الرسول ﷺ أحكم الأمور العملية المتعلقة بالأخلاق والسياسة المنزلية والمدنية، وأتىٰ بشريعة عملية هي أفضل شرائع العالم، ويعترفون بأنه لم يقرع العالم ناموس أفضل من ناموسه، ولا أكمل

(١) نقض المنطق (ص١٣١).

منه؛ فإنهم رأوا حسن سياسته للعالم، وما أقامه من سنن العدل ومحاه من الظلم.

وأما الأمور العلمية التي أخبر بها من صفات الربِّ وأسمائه، وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر والجنة والنار، فلما رأوها تخالف ما هم عليه؛ صاروا في الرسول ﷺ فريقين:

فغلاتهم يقولون: إنه لم يكن يعرف هذه المعارف، وإنما كان كماله في الأمور العملية: العبادات والأخلاق، وأما الأمور العلمية فالفلاسفة أعلم بها منه، بل ومن غيره من الأنبياء».

وقال شيخ الإسلام متمِّمًا[1]: «والفريق الثاني منهم يقولون: إن الرسول ﷺ كان يعلم الحقَّ الثابت في نفس الأمر في التوحيد والمعاد، ويعرف أن الرب ليس له صفة ثبوتية، وأنه لا يُرىٰ ولا يتكلم ...، لكن ما كان يمكنه إظهار ذلك للعامة؛ لأن هذا إذا ظهر لم تقبله عقولهم وقلوبهم».

وهذيان الفلاسفة هذا كفر ونفاق وزندقة، وتجهيل للنَّبي ﷺ في علوم الوحي، وطعن في بيانه وتبليغه للعلوم الإلهيَّة، وتكذيب له في صدقه فيما أخبر به عن صفات الله عَزَّوَجَلَّ وحقائق اليوم الآخر، وهذا لا يقوله إلَّا كافر زنديق.

وعقائد ما أخبر به النبيُّ ﷺ من أحوال اليوم الآخر في قلوب الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ حقائق، قالوا للنبي ﷺ عن حقيقة ما أورثتهم أخباره عن اليوم الآخر: «كأنَّا نرىٰ الجنَّة والنَّار رأي عين»، فصدَّقهم النبي ﷺ علىٰ اعتقادهم الصَّحيح الحقيقي اليقيني، ولم يضلِّلهم بإخبارهم بما لا حقيقة له أو بما يخالف الاعتقاد

---

(١) نقض المنطق (ص١٣٢).

الصحيح في ذلك، بل صدَّقهم فيما اعتقدوه مما بلَّغهم من الوحي من الإيمان باليوم الآخر.

وحقيقة ضلالات وخيالات الفلاسفة إبطال دعوة المرسلين، وإبطال حجَّة الله علىٰ خلقه بما أرسلهم به، وهذا لا يعتقده مسلم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الله سبحانه إنَّما أقام الحجة علىٰ خلقه بكتابه ورسله، فقال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] وقال تعالىٰ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] ، فكل من بلغه هذا القرآن فقد أنذر به، وقامت عليه حجة الله تعالىٰ به، وقال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]».

وابتداء إدخال علوم الفلاسفة في الإسلام، وإفساد نقاء علوم الشَّريعة كان في عهد المأمون من خلفاء بني العبَّاس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وفي دولة أبي العباس المأمون ظهر الخُرَّمية ونحوهم من المنافقين، وعُرِّب من كتب الأوائل المجلوبة من بلاد الروم ما انتشر بسببه مقالات الصابئين، وراسل ملوك المشركين من الهند ونحوهم حتىٰ صار بينه وبينهم مودة.

فلما ظهر ما ظهر من الكفر والنفاق في المسلمين، وقوي ما قوي من حال المشركين وأهل الكتاب؛ كان من أثر ذلك ما ظهر من استيلاء الجهمية والرافضة

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٢١٦).

(٢) نقض المنطق (ص١٩، ٢٠).

وغيرهم من أهل الضلال، وتقريب الصابئة ونحوهم من المتفلسفة، وذلك بنوع رأي يحسبه صاحبه عقلًا وعدلًا، وإنما هو جهل وظلم؛ إذ التسوية بين المؤمن والمنافق والمسلم والكافر أعظم الظلم، وطلب الهدىٰ عند أهل الضلال أعظم الجهل».

وزاد شرُّ الفلاسفة في إفساد علوم الشَّريعة وعقيدة الإسلام حين تسلَّط التَّتر علىٰ ديار المسلمين، ووجد الفلاسفة والمتكلِّمون والمبتدعة فرصتهم في إظهار الإلحاد وما يُفسد عقائد الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ظهر المشركون من الترك علىٰ أرض الإسلام بالمشرق في أثناء المائة السابعة، وكان كثير ممن ينتسب إلىٰ الإسلام فيه من النفاق والردة ما أوجب تسليط المشركين وأهل الكتاب علىٰ بلاد المسلمين؛ فتجد أبا عبد الله الرازي يطعن في دلالة الأدلة اللفظية علىٰ اليقين، وفي إفادة الأخبار للعلم وهذان هما مقدمتا الزندقة».

وظهر في الإسلام فرقة المتكلِّمين التي خلطت علوم الفلاسفة بعلوم الشَّريعة، وأضلُّوا النَّاس عن صفاء ونقاء علوم الوحي التي بلَّغها رسول الله ﷺ، والتي أدَّاها إلينا نقيَّة خيرُ قرون الأمَّة الصَّحابة والتَّابعون، وصار هؤلاء المتكلِّمون سببًا لإفساد دين الإسلام وعقائده وأحكامه وعلومه، وهم طبقات في إلحادهم وكفرهم وضلالهم، بحسب ما ضلُّوا وأضلُّوا به من علوم الصَّابئة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المتكلمون المخلطون الذين يكونون تارة مع المسلمين وإن كانوا مبتدعين، وتارة مع الفلاسفة الصابئين،

(١، ٢) نقض المنطق (ص٨٨).

وتارة مع الكفار المشركين، وتارة يقابلون بين الطوائف وينتظرون لمن تكون الدائرة، وتارة يتحيرون بين الطوائف».

وهذيان الفلاسفة والمتكلِّمين لا يقبله المسلمون؛ فالمؤمنون آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين واتَّبعوهم، وكذَّبوا كل ضلالة خالفت خبر الله وأمره ونهيه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذيان المنطقيِّين[1]: «صادرة عن رجل مشرك من يونان كان يعبد الأوثان، ولا يعرف الرحمن، ولا يصدق بمعاد الأبدان، ولا أنَّ الله يرسل رسولًا بكلامه إلىٰ نوع الإنسان. فجعل هؤلاء المعارضون بين العقل والنقل عقلَ هذا الرجل عيارًا علىٰ كتب الله المنزلة، وما أرسل به رسله؛ فما زكاه منطقه وآلته وقانونه الذي وضعه بعقله قبلوه، وما لم يزكه تركوه».

ثم قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فيا للعقول! أين الدين من الفلسفة؟! وأين كلام ربِّ العالمين من آراء اليونان والمجوس وعباد الأصنام والصابئين، والوحي حاكم والعقل محكوم عليه؟!».

فالنبيُّ ﷺ أنصح الخلق وأفصحهم بيانًا، والله عَزَّوَجَلَّ بعثه بالوحي ليهدي به الخلق، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، والفلاسفة يقولون: إنَّ محمدًا ﷺ أخبر النَّاس بما لا حقيقة له، وكتم الحقائق؛ لأنَّ النَّاس لا يقبلون الحقائق لو حدَّثهم بها. وكذبوا والله، فقد جاء بالحقِّ من عند الله؛ فمن النَّاس من آمن به، ومنهم من كفر، ولا أضلّ من الفلاسفة الذين جهلوا أحقَّ الحقائق

(١) مُخْتصر الصَّواعق المرسلة علىٰ الجهميَّة والمعطِّلة (١/ ٢٦٢).

(٢) مُخْتصر الصَّواعق المرسلة علىٰ الجهميَّة والمعطِّلة (١/ ٢٦٢، ٢٦٣).

والعلوم التي فُطر النَّاس عليها، وهو توحيد الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنهم يزعمون أنَّ المقصود بالرسالة إنَّما هو إقامة عدل الدنيا، وأن الرسل لم تبيِّن للناس حقائق الأمور، بل أظهرت خلاف ما أبطنت بناءً علىٰ أن الحق في نفس الأمر هو قول الفلاسفة.

وهذا إذا ظهر للناس أنكرته الفطر، وكذَّب به الناس، ولم يبق عندهم إله يُخشىٰ ويعبد، ولا رب يُصلىٰ له ويسجد».



(١) الصفدية (٢/ ٢٣٨).

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٢- ومتىٰ اعتمد القلب علىٰ الله، وتوكَّل عليه، ولم يستسلم للأوهام ولا ملكته الخيالات السيئة، ووثق بالله وطمع في فضله؛ اندفعت عنه بذلك الهموم والغموم، وزالت عنه كثير من الأسقام البدنية والقلبية، وحصل للقلب من القوة والانشراح والسرور ما لا يمكن التعبير عنه[١].

الشَّرْح:

المعركة سجال بين المؤمنين والشَّياطين؛ فالمؤمن إراداته وأعماله في مراضي الله وعبادته، والشَّياطين تريد أن تفسد علىٰ المسلمين إيمانهم بما تلقيه عليهم من الوساوس، التي لو استرسل معها الإنسان ربما صار كافرًا وملحدًا.

وقوَّة قلب المؤمن بالاستعانة بالله والتوكُّل عليه تدفع إرادات السُّوء، وخطرات الباطل، ووساوس الكُفر والبدع والمعاصي.

ولا يزال المسلم يجاهد وساوس الشَّياطين حتىٰ يصقل قلبه، فتكون نفسه مطمئنَّة راسخة في الإيمان وإرادة الخير، وتحديث النَّفس به والعمل به.

والكافر بضدِّ ذلك، تستولي عليه وساوس الشَّياطين؛ فيكون وليًّا لهم، فتكون إراداته وأعماله فيما يُسخط الله؛ قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

والمسلم متوكِّل علىٰ الله في أموره كلِّها؛ فهو الذي بيده النَّفع والضَّرُّ، وهو

(١) الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة (ص٢٤، ٢٥).

الذي تطمئن إليه القلوب، وهو الذي يهدي ويكفي؛ فيكون توكُّل المسلم علىٰ الله في أموره كلِّها، الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، وأوَّل ذلك حفظ الدِّين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن المتوكل يتوكَّل علىٰ الله في صلاح قلبه ودينه، وحفظ إيمانه وزيادته، وهذا أهم الأمور إليه، ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود:١٢٣] وقوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [الشورىٰ: ١٠]، وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:٣٠] ؛ فهو قد جمع بين العبادة والتوكُّل في عدة مواضع؛ لأن هذين يجمعان الدين كله».

والأوهام والخيالات؛ الالتفات إليها والاسترسال معها تُضعف القلب، وسبب للهموم والغموم والأحزان؛ فالتوكُّل علىٰ الله والاستعانة به في دفع الأوهام من أسباب قوَّة القلب وصحَّته، ومن أسباب السَّعادة.

قال العلامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «من أسباب تحكم الآلام، ووقوع الأسقام؛ كثرة الأوهام، وضعف القلب، كما أنَّ قوَّة القلب، والطَّمع في فضل الله، والتوكُّل عليه في دفع النَّازل من البلاء، ودفع ما لم ينزل؛ سببٌ قويٌّ جدًّا في الصحَّة، ودفع المؤذيات».

ومتىٰ كان المسلم مستعينًا بالله متوكِّلًا عليه؛ كان التجاؤه إلىٰ ربه الحصن الآمن الذي يوجب طمأنينته؛ فلا يجزع من الأوهام ويدفعها بتوكُّله علىٰ الله؛

---

(١) التُّحفة العراقيَّة في أعمال القلوب (ص٣١٤، ٣١٥).

(٢) الرِّياض النَّاضرة (ص١٨٨).

فيقوىٰ بذلك قلبه وتطمئن نفسه؛ فيعيش حياة السُّعداء، ويقوم بأموره الدِّينيَّة والدُّنيويَّة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّ الاستعانة بالله، والتوكُّل عليه، واللُّجأ إليه، والدُّعاء له؛ هي التي تقوِّي العبد وتيسِّر عليه الأمور».

والله عَزَّوَجَلَّ توعَّد خلقه علىٰ الإرادات والنيَّات الباطلة، فقال سبحانه: ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، والمسلم من سلم قلبه من التألُّه لغير الله، ووساوس الباطل بأنواعها المضادَّة للإخلاص لله، والإيمان والاعتقاد الصَّحيح والعمل الصَّالح.

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الشُّبهات والشَّهوات لا يزال القلب يكرهها، ويجاهدها بالبراهين الصَّادقة والإرادات الجازمة، حتىٰ تذهب وتضمحلَّ ويبقىٰ القلب خالصًا صافيًا، ليس فيه إلَّا ما ينفع النَّاس من العلم بالحقِّ وإيثاره».

وبعض أحوال القلب وما يستتبعها من أعمال الجوارح تضادُّ التَّوحيد؛ فإنَّ حقيقة الدِّين كلِّه في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ومن هذه الأضداد التي هي من شرِّ الأحوال الرِّياء والعجب.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «الرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب

---

(١) التُّحفة العراقيَّة في الأعمال القلبيَّة (ص٣٤٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٣٦).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٧٧).

من باب الإشراك بالنفس وهذا حال المستكبر؛ فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، والمعجب لا يحقق قوله: ﴿إياك نستعين﴾، فمن حقَّق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾؛ خرج عن الرياء، ومن حقَّق قوله: ﴿إياك نستعين﴾؛ خرج عن الإعجاب».

والعُجب من أسباب الخذلان؛ فمن أراد السَّعادة فليحقِّق التَّوحيد، وليجرِّد إخلاصه لله من شوائب العجب والرِّياء، حتىٰ يكون الله وليَّه، ويعينه علىٰ أموره كلِّها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد يعجب بحاله، فيظن حصول مراده؛ فيخذل، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] إلىٰ قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ٢٧]».

وحديث النَّفس معفو عنه إن لم يكن عزمًا جازمًا، ولم يكن عملًا ولا قولًا.

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الخواطر التي ترد علىٰ القلب، إذا لم يطمئن الإنسان إليها ويسترسل معها، فإنه لا يعاقب عليها؛ لأنها من حديث النَّفْس، بل هي مما يصول علىٰ النفس، والتحرُّز منها أشدُّ؛ لأن الرسول ﷺ ثبت عنه أنه قال: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ**»، فإذا كان هذا في حديث النَّفْس فما بالك بما يهجم علىٰ النفس بدون قَصْد؟! إذْ يكون قصد العفو عنه من باب أولىٰ.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٧٧).

(٢) تفسير سورة الأحزاب (ص٤٣٢).

فالخواطر التي تَرِد علىٰ القلب إذا لم يسترسل معها الإنسان ويطمئن إليها؛ فإنها لا تضُرُّه، سواء كانت هذه الخواطر فيما يتعلق بجلال الله عَزَّوَجَلَّ أو فيما يتعلق برسوله ﷺ، أو فيما يتعلق بشهوة النفس وإراداتها؛ فإنها لا تضُرُّ الإنسان بشرط ألا يسترسل، بل إنَّ هذه الخواطر ما تَرِد إلا علىٰ قلب سليم، يُهاجم الشيطان بها القلب حتىٰ يُفسِده، ولهذا لمَّا شكا الصحابة إلىٰ النبي ﷺ مثل هذه الخواطر؛ قال: «**أَوَجَدْتُمْ ذَلِكَ؟**» قالوا: نعم؛ قال: «**ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ**»، يعني: خالصه؛ لأن الشيطان لا يهجم علىٰ قلب فاسد، وإنما يهجم علىٰ القلوب الصالحة ليُفْسِدها، ودواء ذلك أن تستعيذ بالله تعالىٰ من الشيطان الرجيم، وأن تنتهي، وأن تثني علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بما هو أهله؛ فتقول: الله أحد صمد، لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كفوًا أحد؛ استجارةً بالله تعالىٰ وانتهاءً، ووصفًا لله تعالىٰ بالكمال، وبعد ذلك تزول عنك شيئًا فشيئًا».

القلب محل الإرادات والنيَّات والخواطر؛ فهو الأساس للحسنات والسيِّئات، فمتىٰ كان القلب سليمًا؛ عظم الثَّواب، وبهذا سبق السَّلف من بعدهم.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لم يكن أكثر تطوع النبي ﷺ وخواص أصحابه بكثرة الصوم والصلاة، بل ببر القلوب وطهارتها وسلامتها، وقوة تعلقها بالله؛ خشية له ومحبة وإجلالًا وتعظيمًا، ورغبة فيما عنده، وزهدًا فيما يفنىٰ، وفي «المسند» عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ أن النبي ﷺ قال: «**إنِّي أعلمكم بالله وأتقاكم له قلبًا**». قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لأصحابه: «أنتم أكثر صلاة

(١) لطائف المعارف (ص٢٦٩).

وصيامًا من أصحاب محمد ﷺ، وهم كانوا خيرًا منكم» قالوا: «ولم؟» قال: «كانوا أزهد منكم في الدنيا وأرغب في الآخرة».

وقال بكر المزني: «ما سبقهم أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بكثرة صيام، ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صدره».

قال بعض العلماء المتقدمين: «الذي وقر في صدره هو حب الله، والنصيحة لخلقه»، وسُئلت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد وفاته عن عمله، فقالت: «والله ما كان بأكثر الناس صلاة، ولا بأكثر الناس صيامًا ولكن والله: ما رأيت أحدًا أخوف لله من عمر، لقد كان يذكر الله في فراشه فينتفض انتفاض العصفور من شدَّة الخوف، حتىٰ نقول: ليصبحن الناس ولا خليفة لهم». قال بعض السلف: «ما بلغ من بلغ عندنا بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بسخاوة النفوس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة»، وزاد بعضهم: «واحتقار أنفسهم»».

والقلب السَّليم هو الذي سلم من الشِّرك وإرادة السُّوء للخلق.

قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «كمال العبد أن لا يريد ولا يحب ولا يرضىٰ إلا ما أراده الله ورضيه وأحبه، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب، ولا يحب إلا ما يحبه الله؛ كالملائكة والأنبياء والصالحين، وهذا معنىٰ قولهم في

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢١٨، ٢١٩).

قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، قالوا: هو السليم مما سوىٰ الله، أو مما سوىٰ عبادة الله، أو مما سوىٰ إرادة الله، أو مما سوىٰ محبة الله؛ فالمعنىٰ واحد».

وبعمل القلب ونيَّته يُدرك المسلم أعلىٰ الدَّرجات عند الله، وبذلك كان إيمان أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أرجح من إيمان الأمَّة، كما قال الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فتألُّه القلب وعلمه ويقينه، وإراداته ونيَّاته، يتفاضل فيها المؤمنون تفاضلًا عظيمًا؛ فالسَّابقون الأوَّلون رسخ في قلوبهم التألُّهُ لله وحده؛ إجلالًا، وهيبة، ومخافة، ومحبَّةً، ورجاءً، وتعظيمًا، وتوكُّلًا، وبذلك سبقوا الخلق في كل فضيلة، في العلم والجهاد وحسن الخلق، والقيام بشعائر الإسلام وشرائعه، والدَّعوة إلىٰ الله علىٰ بصيرة، والقيام بحقِّ الخالق والمخلوق.

ومن بعدهم نالوا من الخير بحسب ما تألَّهت قلوبهم وجوارحهم لله، وبحسب ما قاموا به من حقِّ الخالق والمخلوق.

فالشَّأن في صيانة القلب وصلاحه، وفي توطين النَّفس علىٰ الإرادات الصَّالحة والخواطر النَّافعة، حتىٰ تربح أتمَّ الرِّبح وأعظمه، وبهذا سبق الأوَّلون من السَّلف من بعدهم، وكانت تتزاحم إرادات وخواطر الأعمال الصَّالحة في قلوبهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّما الكمال في امتلاء القلب والسرِّ من الخواطر والإرادات والفِكَر في تحصيل مراضي الربِّ تعالىٰ من العبد ومن الناس، والفكر في طرُق ذلك والتوصُّل إليه. فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفِكَرًا وإرادات

---

(١) الجواب الكافي (ص٣٦٢).

لذلك، كما أنَّ أنقصَ الناس أكثرُهم خواطر وفِكَرًا وإراداتٍ لحظوظه وهواه أين كانت، والله المستعان.

وهذا عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، كانت تتزاحم عليه الخواطر في مراضي الربِّ تعالىٰ، فربَّما استعملها في صلاته، فكان يجهِّز جيشَه وهو في الصلاة؛ فيكون قد جمع بين الجهاد والصلاة.

وهذا من باب تداخل العبادات في العبادة الواحدة، وهو باب عزيز شريف لا يعرفه إلا صادق الطلب، متضلِّع من العلم، عالي الهمة، بحيث يدخل في عبادة يظفر فيها بعبادات شتىٰ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

ومتىٰ ما أراد الله بك خيرًا؛ وفَّقك إلىٰ الاهتمام بأعمال القلب، فتُدرك من الحسنات ما لا يأتي عليه العدُّ والإحصاء، وفي حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا: «**نيَّة المؤمن خير من عمله**»[(١)].

قال الحافظ العلائي رَحِمَهُٱللَّهُ[(٢)]: «فُسِّر ذلك بأنَّ المؤمن يخلد في الجنَّة، وإن كانت مدَّة عمله الصَّالح متناهية؛ لأنَّ نيَّته كانت أنَّه لو بقي أبد الآباد؛ لاستمر علىٰ الإيمان».

والقلب هو منبع الخيرات، وأساس التألُّه لله عَزَّوَجَلَّ؛ فالرَّغبة إلىٰ الله والمحبَّة والخوف والرَّجاء له هي أساس العبوديَّة، ومحلُّها القلب، وتوجب عمل الجوارح.

---

(١) زوائد الأمالي والأجزاء (١/ ٥٦٣).

(٢) المجموع المذهب (١/ ٧٠).

وإذا لم يكن في القلب عبادة وتألُّه لله، فما ثمة إسلام؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «تحقيق «شهادة أن لا إله إلا الله»؛ فإنَّه ينفي عن قلبه ألوهية ما سوىٰ الحق، ويُثبت في قلبه ألوهية الحق؛ فيكون نافيًا لألوهية كل شيء من المخلوقات، مثبتًا لألوهية ربِّ العالمين رب الأرض والسموات، وذلك يتضمن اجتماع القلب علىٰ الله، وعلىٰ مفارقة ما سواه، فيكون مفرقًا في علمه وقصده، في شهادته وإرادته، في معرفته ومحبته بين الخالق والمخلوق، بحيث يكون عالمًا بالله تعالىٰ، ذاكرًا له، عارفًا به، وهو مع ذلك عالم بمباينته لخلقه وانفراده عنهم، وتوحده دونهم، ويكون محبًّا لله معظمًا له، عابدًا له، راجيًا له خائفًا منه، مواليًا فيه معاديًا فيه، مستعينًا به متوكلًا عليه، ممتنعًا عن عبادة غيره والتوكل عليه والاستعانة به، والخوف منه والرجاء له، والموالاة فيه والمعاداة فيه والطاعة لأمره، وأمثال ذلك مما هو من خصائص إلهية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ».

ومن الخيالات الباطلة والأوهام الخسيسة الغرور والعجب، ومتىٰ استرسل الإنسان لغروره وملكته؛ صار غروره اعتقادًا راسخًا فيه، فإذا امتلأ قلبه من هذا الخيال الباطل فقد تمَّت خسارته.

قال النُّعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٢]: «إنَّ للشَّيطان مَصَاليَ وفخوخًا، وإنَّ من مَصَالي الشَّيطان وفُخوخه البطر بأنعم الله، والفخر بعطاء الله، والكِبْر علىٰ عباد الله، واتِّباع الهوىٰ في غير ذات الله».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٢٥).

(٢) الأربعون المغنية (ص٦١٩).

وقال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «داء الكِبْر، الذي هو أشرُّ الأدواء وأخسُّها وأسقطها، وهو ردُّ الحقِّ، واحتقار الخلق، والتَّعاظم عليهم.

أخبر - الله - في عدَّة آيات أنَّ هذا ليس من صفات الأزكياء، ولا الأخيار من العباد. وأنه من صفات الجبابرة الذين لم يعرفوا ربَّهم، ولم يعرفوا حقيقة أنفسهم، وأنَّ قلوبهم امتلأت من هذا الخيال الباطل، وهو التَّعاظم علىٰ الحقِّ الذي يجب علىٰ جميع الخلق الدُّخول تحت رقّه، وهو غاية شرفهم. فعبوديَّة الله، والافتقار له، والخضوع له: أكمل خلعة خُلِعَت علىٰ العبد، وأفضل عطيَّة يُعطاها.

فالمتكبِّر خلع هذه الخلعة العالية، واستبدل بها الخلعة الخسيسة: الكبر، الذي هو خيال لا يبلغه العبد بالكليَّة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

وكذلك الكِبر علىٰ الخلق، واحتقارهم وازدراؤهم، لا ريب أنَّه أشرُّ الأخلاق، كما قال ﷺ: «**بحسب امرئ من الشَّرِّ: أن يحقر أخاه المسلم**»».

وإذا أردت أن تعرف أثر الخواطر والنيَّات والإرادات في أسباب دخول الجنَّة أو الحرمان منها؛ فتدبَّر قوله ﷺ: «**لا يدخل الجنَّة من في قلبه مثقال ذرَّة من كبر**»؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّ الكبر ينافي حقيقة العبودية، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ، أنَّه قال: «**يقول الله: العظمة إزاري، والكبرياء**

---

(١) الرِّياض النَّاضرة (ص١٥٠).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٩٦).

ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته»، فالعظمة والكبرياء من خصائص الربوبية».

والكبر كان سبب كفر الشَّيطان، والكبر والحسد سبب كفر بني إسرائيل، وجدوا نعت النبيِّ محمد ﷺ كما هو في التَّوراة، وكفروا به؛ لأنَّه من ذريَّة إسماعيل ولم يكن منهم.

فالقلب كسبه عظيم في الحسنات والسيِّئات، قال تعالىٰ: ﴿**وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٢٥].

والصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سبقوا من بعدهم بأعمال القلوب، فكانت قلوبهم أصدق وأخلص لله ممَّن بعدهم، وكانوا أعظم توكُّلًا علىٰ الله.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أصحاب محمد ﷺ أبرُّ هذه الأمَّة قلوبًا».

وبرُّ قلوب الصَّحابة كان عظيمًا بالتألُّه لله وحده لا شريك له، والسَّلامة من دغل الشِّرك والعجب والكبر وغائلة السُّوء للمسلمين، وكانوا أبرَّ الأمَّة قلوبًا في الرَّغبة إلىٰ ظهور دين الإسلام، وعلوِّ كلمة الله في كل شيء.

برُّ قلوب الصَّحابة كان عظيمًا في إخباتهم لله، ووجلهم من عظمة الله، ورجائهم لرحمة الله، وخوفهم من غضبه، وامتلاء قلوبهم من ذكر الله، والفرح بالله، والتبتُّل إليه، والأنس بعبوديته، والزَّكاء بنور الوحي، والبصيرة بهدي القرآن.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «هل يُميَّزُ المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كلِّ واحد منهما من الأعمال التي ميَّزت بينهما، وهل يمكن أحدًا الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه. وعبودية القلب أعظم من عبودية

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١١٤٨).

الجوارح، وأكبر، وأدوم؛ فهي واجبة في كلِّ وقت، ولهذا كان الإيمان واجب القلب علىٰ الدوام، والإسلام واجب الجوارح في بعض الأحيان».

وأعظم ما يُفسد التَّوحيد ويُحبط الأعمال؛ هو الشِّرك، وأخطره علىٰ المسلمين هو الرِّياء؛ فإنَّ المسلمين وإن كانوا لا يعبدون حجرًا ولا شجرًا، - من سلم من التبرك بهما - إلَّا أنَّ الرِّياء أخطر ما يكون إفسادًا للدِّين، والرِّياء منشؤه من خواطر وإرادات القلوب.

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أنَّ رسول الله** ﷺ **قال:** «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدَّجال؟ قالوا: بلىٰ. قال: الشِّرك الخفيُّ، يقوم الرَّجل فيصلِّي فيزيِّن صلاته؛ لما يرىٰ من نظر رجل**»، رواه أحمد.

قال العلَّامة عبد الرَّحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «قوله: «**الشِّرك الخفي**»، سمَّاه خفيًّا؛ لأنَّه عمل قلب، لا يعلمه إلَّا الله، ولأنَّ صاحبه يُظهر أن عمله لله، وقد قصد غيره أو شركه فيه بتزيين صلاته لأجله».

والشِّرك - خصوصًا الرِّياء - خشيه النبيُّ ﷺ علىٰ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فمن يأمنه بعدهم؟! قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «الشرك غالب علىٰ النفوس، وهو كما جاء في الحديث: «**وهو في هذه الأمة أخفىٰ من دبيب النمل**»، وفي حديث آخر: «قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله! كيف ننجو منه وهو أخفىٰ من دبيب النمل؟ فقال النبيُّ ﷺ لأبي بكر: **ألا أعلمك كلمة إذا قلتها**

---

(١) قُرَّة عيون الموحِّدين (ص١٨٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢١٤).

نجوت من دقِّه وجله؟ قل: اللهم إنِّي أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»، وكان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول في دعائه: اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا».

وعقيدة الموحِّدين بالله يقين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]، وواردات السُّوء التي تتسلَّط بها الشَّياطين علىٰ المؤمنين لإفساد توحيدهم؛ عوارض يدفعونها بالثَّبات علىٰ التَّوحيد بما استيقنوه من صحيح الاعتقاد، فتتجاوز القلب ولا تستقر به لا علمًا ولا اعتقادًا، وذلك من الصَّبر علىٰ التَّوحيد، والجهاد الذي يصقل القلوب.

قال تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحُجُرات: ٣].

والقلب أحوج ما ينبغي علىٰ المسلمين تعاهده بالحفظ وتجديد إيمانه، وتنمية أسباب قوَّته بالإخلاص لله، والعبوديَّة له، وتجريده من شوائب الرِّقِّ للهوىٰ والشَّيطان؛ فإنَّ دغل الهوىٰ والالتفات لغير الله من أعظم مفسدات الدِّين؛ فالواجب تنقية القلب من شوائب الشِّرك وفروعه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «القلب الذي لم يخلص لله؛ فإن فيه طلبا وإرادة وحبا مطلقا؛ فيهوىٰ ما يسنح له ويتشبث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مرَّ بعطفه أماله.

فتارة تجتذبه الصور المحرَّمة وغير المحرَّمة، فيبقىٰ أسيرًا عبدًا لمن لو اتخذه هو عبدًا له؛ لكان ذلك نقصًا وعيبًا وذمًّا.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢١٦).

وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة؛ فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق.

وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها؛ فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدًى من الله».

فحقيقة السَّعادة وأساسها بأن يكون القلب حنيفًا، مقبلًا على الله، معرضًا عمَّا سواه، وإلَّا كان مشركًا[١].

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «النَّاس وإن كانوا يقولون بألسنتهم: «لا إله إلا الله»، فقول العبد لها مخلصًا من قلبه له حقيقة أخرى، وبحسب تحقيق التَّوحيد تكمل طاعة الله».



(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢١٦، ٢١٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٦٠).

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٣ - وفي قول النبي ﷺ: «**لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها خلقًا آخر**»، رواه مسلم؛ فائدتان عظيمتان:

إحداهما: الإرشاد إلىٰ معاملة الزوجة والقريب والصاحب والمعامل، وكل من بينك وبينه علاقة واتصال، وأنه ينبغي أن توطِّن نفسك علىٰ أنه لا بُدَّ أن يكون فيه عيب أو نقص أو أمر تكرهه، فإذا وجدت ذلك؛ فقارن بين هذا وبين ما يجب عليك أو ينبغي لك من قوة الاتصال والإبقاء علىٰ المحبة، بتذكر ما فيه من المحاسن، والمقاصد الخاصة والعامة، وبهذا الإغضاء عن المساوئ وملاحظة المحاسن، تدوم الصحبة والاتصال، وتتم الراحة وتحصل لك.

الفائدة الثانية: وهي زوال الهم والقلق، وبقاء الصفاء، والمداومة علىٰ القيام بالحقوق الواجبة والمستحبة، وحصول الراحة بين الطرفين. ومن لم يسترشد بهذا الذي ذكره النبيُّ - ﷺ - بل عكس القضية، فلحظ المساوئ، وعمي عن المحاسن؛ فلابد أن يقلق، ولابد أن يتكدر ما بينه وبين من يتصل به من المحبة، وينقطع كثير من الحقوق التي علىٰ كلٍّ منهما المحافظة عليها[١].

الشَّرح:

حثَّ النَّبي ﷺ في حكم الزَّوج لزوجه علىٰ التقييم بالإنصاف والعدل، واعتبار المرء بمجموع محاسنه، فمن كثر خيره ومكارم أخلاقه ومحاسن شمائله؛ فهذا

(١) الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة (ص٢٦، ٢٧).

يحتمل منه ما يُكره من أخلاقه، ومع النُّصح والتَّواصي بالحقِّ ما يكره من الأخلاق يصير حسنًا، لا سيَّما إن كان الزَّوج معياره في اختيار الزَّوجة الدِّين؛ فإنَّ الدِّين يُقوِّم الأخلاق والعادات، والزَّوجة كذلك حذَّرها النبي ﷺ من كفران العشير، وهذا أولىٰ طبائع النساء بالمحاذرة، قال ﷺ: «**لو أحسنت إلىٰ إحداهن الدَّهْرَ كُلَّه، ثم رأت منك شيئًا؛ قالت: ما رأيت منك خيرًا قطُّ**».

وإذا جرت معاملة المسلمين بينهم بالنَّصيحة كما أمر النبيُّ ﷺ؛ اعتدلت أحوالهم، وصار المسلمون في خير وقوَّة؛ فالأسرة نواة المجتمع، متىٰ كانت قويَّة متماسكة كان المجتمع قويًّا.

قال الحافظ العلائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أما نصيحة عامة المسلمين - وهم من عدا ولاة الأمر والعلماء علىٰ هذا الاحتمال -: فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكف الأذىٰ عنهم، وستر عوراتهم، وسَدُّ خلاتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم، وتنبيه غافلهم، وتبصير جاهلهم، ورفد محتاجهم، وتوقير كبيرهم، ورحمة صغيرهم، وتخولهم بالموعظة الحسنة، وترك غشهم وحسدهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها».

ومتىٰ حصل من أحد الطَّرفين سوء معاملة؛ فالنَّصيحة بالمعروف واجبة له، وهي من أسباب نفي الغلِّ من القلوب، وهي من التَّواصي بالحقِّ؛ لتعتدل أحوال الجميع علىٰ مراضي الله.

---

(١) الأربعون المغنية (ص٤٩٥).

والزَّوجة سكن الزَّوج، فإذا كانت سكنىٰ مودَّة ورحمة؛ كان السَّكن سعيدًا، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: ٢١].

والقيام بالحقوق من الطَّرفين من أسباب استدامة الصِّلة بالمعروف.

ومتىٰ حصل إخلال بالحقوق؛ وجبت المسارعة بتدارك ذلك، وأداء الواجب والمستحب من الحقوق بطيب نفس.

وآصرة الصِّلة بين المسلمين التَّعاون علىٰ البرِّ والتَّقوىٰ، فيتعاون الزَّوجان والأخوان والشِّريكان والمتعاملان علىٰ العدل، وأداء حقِّ الآخر، وإعانته علىٰ أدائه، ولا يحل التربُّص بالآخر، وانتهاز الفرص للأذىٰ والظُّلم والعدوان.

فالمسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، فمن حصلت له ظروف منعته من القيام بالحقوق وأدائها؛ يُعان علىٰ أدائها، ولا تُنتهز الفرصة للاستطالة عليه وأذيَّته وظلمه.

والمعاملة بالمعروف للمسيء من ذوي القربىٰ هو ممَّا أمر الله به، وهو من الحكمة التي علَّمها الله أنبياءه، ومن تلقَّىٰ عنهم علم النبوَّة.

قال تعالىٰ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ [لقمان: ١٤]، ثم قال سبحانه: ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ [لقمان: ١٥].

والبرُّ بالوالدين وبذي القربىٰ والمسلمين؛ هو من الحقوق التي أمر الله بأدائها، فقال سبحانه: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

وبرُّ الوالدين علىٰ وجه الخصوص أفضل الأعمال، ففي الصَّحيحين عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله ﷺ: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: **الصلاة علىٰ وقتها**. قلت: ثم أيّ؟ قال: **برُّ الوالدين**. قلت: ثم أيّ؟ قال: **الجهاد في سبيل الله**».

علىٰ كل حال صبر القريب علىٰ أذىٰ قرابته حلم، لا يوجب استمرار المسيء في إساءته وأذاه وظلمه؛ فإنَّ هذا يورث الضَّغائن والشَّحناء، وهو إملاء من الله؛ فمن استمرَّ علىٰ ظلمه وأذاه ازداد إثمًا.

فالواجب علىٰ المسلمين كافَّة، وعلىٰ ذوي القربىٰ خاصَّة؛ إفشاءُ السَّلام، بترك أسباب الشَّحناء والبغضاء من الأذىٰ والظُّلم والغشِّ؛ قال النبيُّ ﷺ: «**أيها النَّاس! أفشوا السَّلام، وصِلُوا الأرحام، وأطعموا الطَّعام، وصَلُّوا بالليل والنَّاس نيام؛ تدخلوا الجنَّة بسلام**»، رواه أحمد من حديث عبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو حديث حسن.

ومن بُلي بقرابة يظلمونه ويؤذونه، فإنَّه إذا صبر؛ انعكس ظلم الظَّالم عليه، وكانت العاقبة للمظلوم، قال أحد الصَّحابة للنبي ﷺ: «إنَّ لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ؛ قال: **لئن كان كما تقول؛ فكأنَّما تُسفّهم الملّ**».

ومتىٰ احتسب الزَّوجان النيَّة في خدمة الآخر والقيام بحقوق الذُّريَّة؛ كان ذلك أسعد وأهنأ لهما، وأنشط لهما علىٰ الفعل، وكانوا في عبادة تستغرق اليوم واللَّيلة، وصار دهرهما كلُّه طاعة وحسنات تتوالىٰ وتزداد.

قال النبيُّ ﷺ لسعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حتىٰ ما تجعل في في امرأتك صدقة»، رواه البخاري.

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «تجري النية في الأمور المباحات والأمور الدنيوية، فإنَّ من قصد بكسبه وأعماله الدنيوية والعادية الاستعانة بذلك علىٰ القيام بحق الله، وقيامه بالواجبات والمستحَبَّات، واستصحب هذه النية الصالحة في أكله وشربه ونومه وراحاته ومكاسبه؛ انقلبت عاداته عبادات، وبارك الله للعبد في أعماله، وفتح له من أبواب الخير والرزق أمورًا لا يحتسبها، ولا تخطر له علىٰ بال».

ومتىٰ تعامل الطَّرفان بالرَّحمة وتراحموا؛ جعلهم الله في رحمة، فإنَّ الله يجازي بالإحسان إحسانًا، والله يرحم من عباده الرُّحماء، وإذا أراد الله بأهل بيتٍ الخيرَ؛ جعلهم يتعاملون برحمة ورفق.

وقول النبي ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا، فرفق بهم؛ فارفق به»، رواه البخاري؛ يعمُّ كل ولاية، ومنها ولاية الزَّوج لزوجه وذريَّته.

والحياة الزَّوجيَّة ليست مسيرة يوم، استدامتها يكون بالتَّواصي بالحقِّ والتَّواصي بالصَّبر؛ فتعتري الحياة الزَّوجيَّة أحوال من السرَّاء والضرَّاء ونقص الأموال والثَّمرات، فمتىٰ تعاون أهل البيت علىٰ النَّوائب بالمعروف، وبالتواصي بالحقِّ وبالصَّبر، وبتدبير أمورهم علىٰ أحسن ما يكون بحسب يسار حالهم؛ تولَّاهم الله، ويسَّر لهم الخير، وصارت عاقبة أمورهم يسرًا، ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ

---

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار (ص٢٧).

يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٦﴾ [الشَّرح: ٥، ٦].

والسَّعة في النَّفقة تكون مع اليسار، من غير إسراف ولا تبذير، ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ۝٧﴾ [الطلاق: ٧].

وقناعة أهل البيت من أسباب سعادتهم، وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أنَّ النبيّ ﷺ كان يدعو، فيقول: «**اللهم إنِّي أسألك الهدىٰ والتُّقىٰ، والعفاف والغنىٰ**»، رواه مسلم.

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**«العفاف والغنىٰ»** يتضمن العفاف عن الخلق، وعدم تعليق القلب بهم، والغنىٰ بالله وبرزقه، والقناعة بما فيه، وحصول ما يطمئن به القلب من الكفاية. وبذلك تتمُّ سعادة الحياة الدنيا، والراحة القلبية، وهي الحياة الطيبة.

فمن رُزق الهدىٰ والتُّقىٰ، والعفاف والغنىٰ؛ نال السعادتين، وحصل له كل مطلوب، ونجا من كل مرهوب. والله أعلم».

وأسباب ائتلاف قلوب المؤمنين: توحيد الله، وطاعته، وترك دواعي الفرقة من ضد ذلك، ومحاذرة أسباب فساد ذات البين من القيل والقال، وعدم اتِّباع المفسدين لذات البين. وهذه أسباب ائتلاف الجماعة، جماعة المسلمين، وكذلك جماعة الأسرة.

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ **قال**: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يرضىٰ لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا؛ فيرضىٰ لكم: أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا**

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص٢٦٠).

بحبل الله جميعًا، ولا تفرَّقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السُّؤال، وإضاعة المال»، رواه مسلم.

قال العلَّامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كثرة القيل والقال؛ فإنَّ ذلك من دواعي الكذب، وعدم التثبُّت، واعتقاد غير الحقِّ، ومن أسباب وقوع الفتن، وتنافر القلوب، ومن الاشتغال بالأمور الضارَّة عن الأمور النافعة، وقلَّ أن يسلم أحد من شيء من ذلك، إذا كانت رغبته في القيل والقال».

وقد أوصىٰ النبي ﷺ بالنِّساء خيرًا، فقال ﷺ: «**استوصوا بالنِّساء خيرًا؛ فإنَّهن عوان عندكم**».

وأوصىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بالقرابة خيرًا، وحثَّ علىٰ برِّهم أولًا، فقال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وثواب برِّ الأقارب أعظم وأكثر أجرًا، قال النبيُّ ﷺ: «**الصَّدقة علىٰ المسكين صدقة، وهي علىٰ ذي القرابة اثنتان: صدقة وصلة**»، رواه التِّرمذي.

وأولىٰ البرِّ وأهمُّه هو الحثُّ علىٰ الخير والتَّواصي به، ولم يزل هذا دأب الأنبياء والصَّالحين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥]، وكان الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذا استيقظ من الليل ليصلي؛ أيقظ أهله، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ﴾ [طه: ١٣٢]، رواه النسائي.

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص٢٦٣).

وتكافل المسلمين عمومًا، والأسر خصوصًا، وتوادُّهم وتراحمهم تصلح عليه الأمور، ويتيسَّر ما كان عسيرًا، وهذا شأن الجسد الواحد، قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، وقلَّ طعام عيالهم بالمدينة؛ جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بالسَّوِيَّة؛ فهم مني وأنا منهم**»، رواه البخاري ومسلم.



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٤- العاقل يعلم أن حياته الصحيحة حياة السعادة والطمأنينة، وأنها قصيرة جدًّا؛ فلا ينبغي له أن يقصرها بالهم والاسترسال مع الأكدار، فإن ذلك ضد الحياة الصحيحة؛ فيشح بحياته أن يذهب كثير منها نهبًا للهموم والأكدار، ولا فرق في هذا بين البر والفاجر، ولكنَّ المؤمن له من التحقُّق بهذا الوصف الحظ الأوفر، والنصيب النافع العاجل والآجل[1].

الشَّرح:

الهم والحزن من نزغات الشَّيطان التي يقذفها في قلوب المؤمنين؛ لتتكدَّر حياتهم عن السَّعادة والهناء والطمأنينة، فالشَّيطان حسد آدم، ولا يزال يحسد ذريَّته ويعاديهم.

والسَّعيد من أعرض عن نزغات الشَّيطان كلِّها، ومن جملتها مكدراته ووساوسه التي يحزن بها المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المجادلة: ١٠].

فالحازم السَّاعي في أسباب سعادته الدُّنيويَّة والأخرويَّة لا يترك عمره يفنىٰ في الحسرات.

والسَّاعي إلىٰ سعادته الدُّنيويَّة والأخروية لا يُفني عمره في الغفلة؛ فتضيع أوقاته فيما لا ينفعه، فإنَّ عمر الإنسان حقيقة هو ما عمل به فيما ينفعه في دينه ودنياه.

---

(١) الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة (ص٢٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «جميع المصالح إنَّما تنشأ من الوقت، وإن ضيعه لم يستدركه أبدًا».

وقال ابن القيم أيضًا[٢]: «وقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر أسرع من السحاب، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوبًا من حياته وإن عاش فيه طويلًا؛ فهو يعيش عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة؛ فموت هذا خيرٌ له من حياته. وإذا كان العبد - وهو في الصلاة - ليس له من صلاته إلا ما عقل منها؛ فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله».

والمسلم مأمور بعمارة وقته بعبادة الله وحده، والسَّعي في مصالحه الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، وبنفع أمَّته وإعزاز دينه، ومنهيٌّ عن إضاعة الوقت فيما يضرّ ولا ينفع، فقد روىٰ مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله يرضىٰ لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا: فيرضىٰ لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، ولا تفرَّقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السُّؤال، وإضاعة المال**».

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «ذكر ما كره الله

(١) الجواب الكافي [الترتيب الموضوعي] (ص٧٨).

(٢) الجواب الكافي [الترتيب الموضوعي] (ص٧٩).

(٣) بهجة قلوب الأبرار (ص٢٦٣).

لعباده، القيل والقال مما ينافي هذه الأمور التي يُحبُّها ويُنقصها، فمنها: كثرة القيل والقال؛ فإن ذلك من دواعي الكذب، وعدم التثبُّت، واعتقاد غير الحقِّ. ومن أسباب وقوع الفتن، وتنافر القلوب، ومن الاشتغال بالأمور الضارَّة عن الأمور النافعة».

ومن كان مشتغلًا بما ينفعه وينفع أمَّته؛ فهذا عنوان سعادته، ورضا الله عنه.

ومثل المؤمن كمثل النَّخلة، خيرها ونفعها مستمر لا ينقطع في كل الأحوال، وهذا شأن المؤمن مبارك ساعٍ في الخير لأمَّته ولنفسه، لا تضيع أوقاته عليه بما لا ينفعه وأمَّته، ولا بما يضرُّه وأمَّته، قال تعالىٰ في فرق ما بين المسلم الذي جعله الله سببًا للخير للنَّاس ولنفسه، ومن لا خير فيه لنفسه ولا للنَّاس: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٥، ٧٦].

فالسعيد من عمَّ نفعه بالخير بالإحسان إلىٰ نفسه من الطَّاعات والقُرب إلىٰ الله، وبالإحسان إلىٰ النَّاس بالخير[١].

وفي نعت الله لخواص عباده المؤمنين بأنَّهم ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] حثٌّ علىٰ اغتنام أوقات الرَّاحة بذكر الله، وأوقات العبادات باستباق الخيرات؛ فأوقات المسلم كلُّها فيما يعود عليه بالنَّفع وفيما

---

(١) الفوائد (ص١٥).

يرضي الله.

والأنس بذكر الله والطمأنينة بكفايته تُذهب حزن القلوب، وتشفيها من كل سوء، وتضمحل معها آثارها حتىٰ تتلاشىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

ذكر الله عبادة، وهو من أسباب سرور النَّفس واطمئنان القلب وراحة البال وانشراح الصدر، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وسعادتك تكون بالاستعانة بالله علىٰ الفرح بالله وبمناجاته والعمل بمرضاته، وبجمعية القلب علىٰ الإنابة إليه، وباشتغال النَّفس بما يحفظ عليها قوتها في العلم والإرادة النَّافعة، وكفِّها عن أسباب الهموم والغموم والأحزان.

ومن طرق الشَّيطان في إحزان المؤمنين؛ ما يلقيه علىٰ أرواحهم وهم نائمون من الأحلام والرؤىٰ الكاذبة، ففي الصَّحيحين من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «**الرُّؤيا من الله، والحلم من الشَّيطان، فإذا رأىٰ أحدكم شيئًا يكرهه؛ فلينفث حين يستيقظ ثلاث مرَّات، ويتعوَّذ من شرِّها؛ فإنَّها لا تضرُّه**».

قال المهلب رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «سمىٰ الرؤيا الكاذبة التي هي من حيز الأضغاث حُلمًا، وأضافها إلىٰ الشيطان؛ إذ كانت مخلوقة علىٰ شاكلة الشيطان وطبعه، وليعلم الناس مكائده فلا يحزنون لها ولا يتعذبون بها، وإنما سُميت ضغثًا؛ لأن فيها أشياء متضادة».

ومن أخذ بنصيحة النبيِّ ﷺ؛ لم تضرُّه أضغاث الأحلام، قال أبو قتادة

(١) شرح صحيح البخاري (٩/ ٥١٤).

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إن كنت لأرىٰ الرُّؤيا هي أثقل عليَّ من الجبل، فلمَّا سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدُّها شيئًا**».

وكانت طريقة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مواجهة التحدِّيات والشَّدائد؛ الفرح بالله، فقد بُورك له في علمه، وملأت مصنَّفاته وعلومه النَّافعة الدُّنيا رغم جهود خصومه في محاربتها.

فالفرح بالله هو سرور النَّفس، وسعادة القلب وطمأنينته بكفاية الله، فمن كانت هذه حاله؛ كانت لحظاته مسرَّات وأوقاته سعادات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **واصفًا حال شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «عَلِمَ الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرِّهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم علىٰ وجهه. وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض؛ أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه؛ فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الإقبال علىٰ الله تعالىٰ، والإنابة إليه، والرضىٰ به وعنه، وامتلاء القلب من محبته، واللَّهج بذكره، والفرح والسرور بمعرفته؛ ثواب عاجل، وعَيْشٌ لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة».

---

(١) الوابل الصَّيِّب (ص١٠٩، ١١٠).

(٢) الوابل الصَّيِّب (ص١٠٨).

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٥- ينبغي أيضًا إذا أصابه مكروه، أو خاف منه؛ أن يقارن بين بقية النِّعم الحاصلة له دينيَّة أو دنيويَّة، وبين ما أصابه من مكروه فعند المقارنة يتَّضح كثرة ما هو فيه من النِّعم، واضمحلال ما أصابه من المكاره(١).

الشَّرح:

ما يصيب الإنسان من المكاره: إما أن يكون مصيبة، أو فوات طاعة، أو الوقوع في معصية؛ فالمصائب واجب المسلم نحوها الصبر واحتساب الأجر، وسؤال الله الخلف، والدُّعاء بالعافية، وملاحظة سنَّة الله في ابتلاء خلقه بالمكاره من المصائب، وهو استخراج عبوديَّة خلقه في السَّرَّاء والضَّرَّاء، والمصائب سبيلها إلىٰ الاضمحلال؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشَّرح: ٥، ٦].

وما يُقدِّره الله من تغيُّر الأحوال لعباده هو من أسباب استخراج عبوديَّتهم له بالصَّبر وجهاد النَّفس في كل الأحوال(٢)، وكان خوف السَّلف من فتنة السَّرَّاء

---

(١) الوسائل المفيدة للحياة السعيدة (ص٢٨).

(٢) طريق الهجرتين (ص١٢٠).

أشد من فتنة الضرَّاء.

والمسلم إذا علم أنَّ مكثه في هذه الدُّنيا ساعة من نهار، واستحضر أنَّ الشدائد جزء يسير من تلك الساعة؛ كانت عبوديَّته لله بحسن الظنِّ به بتيسير أسباب اضمحلال المصائب سلوة له عن الجزع الذي يضرُّ ولا ينفع، وكان انتظاره لفرج الله عبادة، ويكون استبشاره بما يرجوه بعد ذلك من الصَّيرورة إلىٰ حال أكمل منه قبل الشدائد من أعظم أسباب الفرح بالله والالتجاء إليه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا ابتلىٰ الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن، فإن ردَّه ذلك الابتلاء والمحن إلىٰ ربه، وجمعه عليه وطرحه ببابه؛ فهو علامة سعادته وإرادة الخير به. والشدة بتراء، لا دوام لها وإن طالت، فتقلع عنه حين تُقلع وقد عُوض منها أجلّ عوض وأفضله، وهو رجوعه إلىٰ الله بعد أن كان شاردًا عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائيًا عنه، وانطراحه علىٰ بابه بعد أن كان معرضًا، وللوقوف علىٰ أبواب غيره متعرضًا. وكانت البلية في حق هذا عين النعمة، وإن ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه؛ فربما كان مكروه النفوس إلىٰ محبوبها سببًا ما مثله سبب، وقوله تعالىٰ في ذلك هو الشفاء والعصمة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

وإن لم يرده ذلك البلاء إليه، بل شرد قلبه عنه، وردَّه إلىٰ الخلق، وأنساه ذكر ربه والضراعة إليه والتذلل بين يديه، والتوبة والرجوع إليه؛ فهو علامة شقاوته

(١) طريق الهجرتين (ص١٦٣، ١٦٤).

وإرادة الشر به».

وحثَّ العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ استشعار نعم الله في كل حال، فالمسلم يصبح ويمسي في نعم لا تحصىٰ، ولن يبلغ جهده في أداء حقها وشكرها، ولكنَّه يُسدد ويقارب راجيًا رضا الله، بأن يضاعف حسناته أضعافًا كثيرة، ويغفر سيئاته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لا أحد أعظم إحسانًا من الله سبحانه؛ فإن إحسانه علىٰ عبده في كلِّ نفس ولحظة، وهو يتقلَّب في إحسانه في جميع أحواله، ولا سبيل له إلىٰ ضبط أجناس هذا الإحسان، فضلًا عن أنواعه أو عن أفراده. ويكفي أن من بعض أنواعه نعمة النفَس التي لا تكاد تخطر ببال العبد، وله عليه في كلِّ يوم وليلة فيه أربعة وعشرون ألف نعمة؛ فإنَّه يتنفَّس في اليوم والليلة أربعة وعشرين ألف نفس، وكل نفس نعمة منه سبحانه، فإذا كان أدنىٰ نعمة عليه في كلِّ يوم وليلة أربعة وعشرين ألف نعمة، فما الظن بما فوق ذلك وأعظم منه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

هذا إلىٰ ما يصرف عنه من المضرَّات وأنواع الأذىٰ التي تقصده، ولعلَّها توازن النعم في الكثرة، والعبد لا شعور له بأكثرها أصلًا، والله سبحانه يكلؤه منها بالليل والنهار؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، وسواء كان المعنىٰ: من يكلؤكم ويحفظكم منه إذا أراد بكم سوءًا ويكون ﴿يَكۡلَؤُكُم﴾ مضمَّنًا معنىٰ: «يجيركم وينجيكم من بأسه»، أو كانت

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٦٨٥).

«من» للبدلية، أي: من يكلؤكم بدل الرحمن سبحانه، أي: هو الذي يكلؤكم وحده، لا كالئ لكم غيره».

وقال[(١)]: «علىٰ كلا القولين فهو سبحانه منعِم عليهم بكلاءتهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده، لا حافظ لهم غيره. هذا مع غناه التامِّ عنهم وفقرهم التام؛ فإنه سبحانه غني عن خلقه من كل وجه، وهم فقراء محتاجون إليه من كل وجه».

ومتىٰ استشعر المسلم نعمة الله عليه بالحياة؛ فهو في ساحة العمل، وقد أمهله الله، وهذه نعمة عظيمة، توجب له الاستعتاب؛ فإن كان محسنًا ازداد إحسانًا، وإن كان مسيئًا أقبل إلىٰ ربه وأناب، ومتىٰ كان المسلم مع ذلك معافىٰ البدن؛ فإنَّه قد أُوتي أسباب السَّير إلىٰ الله والدَّار الآخرة، فليرغب إلىٰ الله بما يقرِّبه إليه.

ومعنىٰ هذه الوسيلة التي ذكرها العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ هو «الصبر والشُّكر»، وذلك هو حقيقة الدِّين كلِّه، وأوَّل الشُّكر استشعاره، وحقيقة الشُّكر أداء حقِّ الله الخالص.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ملخِّصًا أهم إحسان الله ونعمه وآلائه[(٢)]: «إنه سبحانه خلق لهم ما في السموات والأرض، وما في الدنيا والآخرة، ثم أهلَّهم وكرَّمهم، وأرسل إليهم رسله -عليهم الصلاة والسلام- وأنزل عليهم كتبه، وشرع لهم شرائعه، وأذن لهم في مناجاته كلَّ وقت أرادوا. وكتب لهم بكلِّ حسنة يعملونها

---

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٦٨٦).

(٢) طريق الهجرتين (٢/ ٦٨٧).

عشرة أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، وكتب لهم بالسيئة واحدة؛ فإن تابوا منها محاها وأثبت مكانها حسنة، وإذا بلغت ذنوب أحدهم عنان السماء ثم استغفره؛ غفر له، ولو لقيه بقراب الأرض خطايا، ثم لقيه بالتوحيد لا يشرك به شيئًا؛ لأتاه بقرابها مغفرةً».

ومن أراد ثواب وسعادة الدَّارين؛ فليصبح وليمسي والآخرة همُّه، وسبيل ذلك أن تنتظم أعماله وأحواله في اليوم والليلة في عبوديَّة الله ومراضيه.

عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من أصبح والدُّنْيا أكبرُ همِّه؛ جعل الله فقره بين عَيْنَيه، وشتَّت عليْه شمله، ولم يأته من الدُّنيا إلا ما قُدِّر له. ومن أصبح والآخرة أَكْبَرُ همِّه؛ جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شَمْله، وأَتَتْه الدُّنيا وهي راغمة، وكان الله بكل خير إليه أسْرَعَ**»؛ رواه أحمد وأبو داود، والتِّرمذي وحسَّنه.

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «أيُّها الناس! أصلحوا آخرتكم تصلح لكم دنياكم، وأصلحوا سرائركم تصلح لكم علانيتكم».

فصلاح الدُّنيا والآخرة متلازمان، وما استخلف الله بني آدم في الأرض إلا ليقيموها من وجوهها المباحة لصلاح الآخرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «الدُّنيا تخدم الدِّين، كما قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ابن آدم، أنت محتاج إلىٰ نصيبك من الدُّنيا، وأنت إلىٰ نصيبك

(١) تهذيب الكمال (٥/ ٣٧١).

(٢) السياسة الشَّرعيَّة (ص٢٤٢).

من الآخرة أحْوَج؛ فإنْ بدأت بنصيبك من الآخرة مَرَّ بنصيبك من الدُّنيا فانتظمته انتظامًا، وإن بدأت بنصيبك من الدُّنيا فاتك نصيبك من الآخرة، وأنت من الدُّنيا علىٰ خطر».

ومن كانت نيَّته في أعماله كلِّها لله رجاء ثواب الآخرة، وأيقن بثواب الله الدُّنيويِّ والأخرويِّ جزاء الأعمال الصَّالحة؛ آتاه الله ثواب الدُّنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤].

عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ، قال: «**إنَّ الكافر إذا عمل حسنة أُطعم بها طعمة من الدُّنيا، وأما المؤمن فإنَّ الله تعالىٰ يدَّخر له حسناته في الآخرة، ويعقبه رزقًا في الدُّنيا علىٰ طاعته**»، رواه مسلم.

قال العلامة محمد بن يحيىٰ بن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «في هذا الحديث من الفقه: أن الله تعالىٰ لا يضيع عمل عامل، فمن أحسن وهو غير موقن بالآخرة؛ فإن الله يطعمه في الدنيا طعمة تكون عوض إحسانه ذلك. وأما المؤمن فإنَّه يُجمع له بين الدنيا والآخرة، إلا أنه يقدم له سبحانه ما يعده في الآخرة؛ لأنه أشرف العناوين وأكرم الخزائن، فكان هو المقدم، ثم قوله بعد ذلك: «**ويعقبه رزقًا في الدنيا**»، وذلك يدل علىٰ مدح الرزق. وأما ما يتعلق بالكافر فإنه جعله طعمة له؛ لأن الكافر لم ينشأ ما نشأ منه إلا علىٰ فرع من فوق الأرض، فأما المؤمن فإنه نشأ منه إحسانه في الدنيا عن نظره إلىٰ الآخرة، فقدَّم إعداد الله تعالىٰ له ما أعدَّ في الآخرة ثم أتبعه بما رزقه في الدنيا؛ ليكون هذا الخير الذي له في الدنيا

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٥/ ٣٤٤، ٣٤٥).

ناشئًا من تلك الجهة، فلا يكون عليه عقوبة؛ لأن عطاء الآخرة كله هني العاقبة.

وفي هذا الحديث ما يدل علىٰ أنَّ المؤمن يُعطىٰ علىٰ نية الآخرة الدنيا والآخرة».

والمسلم يُدرك خيري الدُّنيا والآخرة بتصديق وعد الله، والثِّقة به؛ فالله لا يخلف وعده، وربَّما تخلَّف الموعود لوجود مانع ممَّن لم يأتِ بموجباته، أو ادَّخر الله لعبده ما هو أعظم من ذلك، أو دفع الله عنه من السُّوء ما هو من ثواب حسناته.

فثقة الموحِّدين بالله ووعده كنزهم الأعظم.

عن ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من قال حين يُمسي وإذا أصبح: رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا؛ كان حقًّا علىٰ الله أن يرضيه**»، رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وقال الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «خير الدُّنيا والآخرة في خمس خصال: غِنىٰ النَّفس، وكفِّ الأذىٰ، وكسب الحلال، ولباس التَّقوىٰ، والثقة بالله تعالىٰ علىٰ كلِّ حال».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أرجح المكاسب التوكُّل علىٰ الله، والثِّقة بكفايته، وحسن الظَّنِّ به».

فالسَّعيد من كانت عبوديَّته لله ورغبته فيما عنده يقين بثوابه الدُّنيوي والأخروي، قال النبيُّ ﷺ: «**ادْعُوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**»، رواه الترمذي من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) بستان العارفين، للحافظ النووي (ص١٥٩).

(٢) الوصية الصغرىٰ وشرحها، لمقيده (ص١٧٢).

قال التوربشتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لأنَّ الدَّاعي إذا لم يكن متحقِّقًا في الرَّجاء؛ لم يكن رجاؤه صادقًا، ولم يكن الدُّعاء خالصًا».

ومن أخذ بأسباب معاشه الدُّنيويِّ احتسابًا لأن يكون ذلك عونًا له علىٰ طاعة الله وعبوديَّته وشكره؛ فذلك العبد الصَّالح، قال النبيُّ ﷺ: «**نعم المال الصَّالح للعبد الصَّالح**»، وكان خير خلق الله محمد ﷺ إذا صلَّىٰ الفجر سأل الله: علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا، ورزقًا طيِّبًا. رواه الطَّيالسي من حديث أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، ومن أجيبت دعوته في ذلك فقد أدرك خيري الدُّنيا والآخرة.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أحسن العلماء علمًا من أحسن تقدير معاشه ومعاده تقديرًا لا يُفسد عليه واحد منهما بصلاح الآخر، فإن أعياه ذلك؛ رفض الأدنىٰ، وآثر الأعظم».



(١) قوت المغتذي علىٰ جامع الترمذي (٣/ ١١٣١).

(٢) المجالسة وجواهر العلم (٤/ ٤٥٩ - رقم ١٦٧٢).

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٦- ومن الأمور النافعة: أن تعرف أن أذية الناس لك وخصوصًا في الأقوال السيئة؛ لا تضرك، بل تضرهم، إلا إن أشغلت نفسك في الاهتمام بها، وسوَّغت لها أن تملك مشاعرك، فعند ذلك تضرُّك كما ضرَّتهم، فإن أنت لم تضع لها بالًا؛ لم تضرك شيئًا(١).

الشَّرح:

المسلم هو من سلم المسلمون من لسانه ويده.

والمسلم يؤذيه الكافرون والمنافقون، وأذاهم باعثه المخالفة في الدين.

قال تعالىٰ: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦].

والمسلم يؤذيه الحسدة من قومه، ويؤذيه من طبعه العدوان والأذىٰ والظلم للخلق.

وعُدَّة المسلم في دفعه شرَّ المؤذين؛ الاستعانة بالله، والصَّبر علىٰ سفه المؤذين، والإعراض عن لغوهم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الصبر والتَّقوىٰ تدفع شرَّ العدو

---

(١) الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة (ص٢٩).

(٢) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٦٩٠).

المظهر للعداوة، المؤذين بألسنتهم، والمؤذين بأيديهم، وشرّ العدو المبطن للعداوة، وهم المنافقون».

وقد أخبرنا الله بطبيعة الكافرين ومن تشبَّه بهم من المسلمين؛ لنأخذ أنفسنا بالصَّبر، وبترك الالتفات إلىٰ أذاهم، وأن نأخذ بعزم الأمور التي تنفعنا، وتكون هي زيادة في غيظ الكافرين وأشباههم.

قال تعالىٰ: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «في إخباره لعباده المؤمنين بذلك عدة فوائد:

منها: أن حكمته تعالىٰ تقتضي ذلك؛ ليتميز المؤمن الصادق من غيره.

ومنها: أنه تعالىٰ يُقدِّر عليهم هذه الأمور، لما يريده بهم من الخير؛ ليعلي درجاتهم، ويكفر من سيئاتهم، وليزداد بذلك إيمانهم، ويتم به إيقانهم؛ فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر ﴿قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ومنها: أنه أخبرهم بذلك؛ لتتوطن نفوسهم علىٰ وقوع ذلك، والصبر عليه إذا وقع؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه؛ فيهون عليهم حمله، وتخف عليهم مؤنته، ويلجئون إلىٰ الصبر والتقوىٰ».

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن (ص١٥٥).

ولا أريح لبال المسلم وأهنأ لعيشه من ترك الالتفات إلىٰ السّفلة المؤذين للمسلمين بانحطاطهم؛ فإنَّ في الإعراض عن الجاهلين راحة للبال، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لا تجعل للكلب عندك قدرًا أن ترد عليه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «اجعل الإعراض عنه من بعض شكر نعمة الله التي ساقها إليك، وأنعم بها عليك».

وانحطاط السّفلة بأذيَّة النَّاس بالسبِّ؛ هو من شعب نفاقهم الذي استروحوا إليه وفرحوا به؛ فإنَّ الفحش والبذاء من النِّفاق كما قال النبيُّ ﷺ.

وانحطاط السَّفلة هو نقصهم الذي بُلوا به، فصاروا ينظرون للنَّاس بعين نقصهم ويسبُّونهم بأدوائهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم: ١٠، ١١]، فاللماز هو المهين، كما قال تعالىٰ.

وقد نهىٰ النبيُّ ﷺ طلبة العلم والعلماء عن مماراة السُّفهاء؛ لأنَّ السَّفيه سفهه يزيده سفاهة ومجادلة في الباطل، ولو كان فيه دين وعقل ومروءة وحسن خلق؛ لكفَّ عن السَّفه علىٰ النَّاس والجدال بالباطل.

قال شبيب بن شيبة[(٣)]: «من سمع كلمة يكرهها فسكت؛ انقطع عنه ما يكره، وإن أجاب سمع أكثر مما يكره».

وقال الرَّبيع بن خثيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «النَّاس رجلان: مؤمن وجاهل؛ فأمَّا

(١، ٢) الصَّواعق المرسلة (٣/ ١١٥٨).

(٣) تهذيب الكمال (٣/ ٣٦٢).

(٤) سير السَّلف الصَّالحين (٣/ ٧٦٣).

المؤمن فلا تؤذه، وأمَّا الجاهل فلا تُجاهله».

وقول العلَّامة السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأقوال السيِّئة لا تضرُّك، بل تضرُّهم»؛ لأنَّهم بذلك يكتسبون الآثام، ويكون ذلك من أسباب زيغ أعمالهم، وربَّما ختم الله لهم بخاتمة سوء، كحال أولئك الذين يسبُّون العلماء.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

قال شيخنا العلامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا اتَّقىٰ الإنسان ربَّه، وقال قولًا سديدًا؛ حصل علىٰ فائدتين: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٧١]، فبالتَّقوىٰ صلاح الأعمال ومغفرة الذُّنوب، وبالقول السَّديد صلاح الأعمال ومغفرة الذُّنوب. وعُلم من هذه الآية أنَّ من لم يتَّق الله ويَقُلْ قولًا سديدًا؛ فإنَّه حريٌّ بأن لا يُصلح الله له أعماله، ولا يغفر له ذنبه».

فالظُّلم مرتعه وخيم، وأذيَّة النَّاس بالفحش والبذاء والاستطالة عليهم عدوانٌ يعود شرُّه وبالًا علىٰ الظَّالم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١].

وقد ارتاضت أخلاق سلف الأمَّة علىٰ الصَّبر والتَّقوىٰ من انحطاط السَّفلة؛ فأورثهم ذلك العز والفضل والخير.

قال عروة بن الزُّبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «رُبَّ كلمة ذل احتملتها أورثتني عزًّا طويلًا».

---

(١) تفسير سورة الأحزاب (ص٥٣٢).

(٢) محض المرام في فضائل الزُّبير بن العوَّام (ص١٨١).

ولو اضطررت إلىٰ خلطة الأشرار؛ ففارقهم بقلبك، وأعرض عنهم بالاشتغال بذكر الله وما ينفعك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «استأنس بغيبته ما أمكنك؛ فإنك لا يوحشك إلا حضوره عندك، فإذا ابتليت به فأعطه ظاهرك، وتَرَحَّلْ عنه بقلبك، وفارقه بسرِّك، ولا تشتغل به عما هو أولىٰ بك. واعلم أن الحسرة كلَّ الحسرة الاشتغالُ بمن لا يُجْدِي عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظك من الله عَزَّوَجَلَّ، وانقطاعك عنه، وضياع وقتك عليك، وشَتَات قلبك عليك، وضعف عزيمتك، وتفرُّق همِّك.

فإذا بُليت بهذا - ولا بد لك منه - فعامِل الله تعالىٰ فيه، واحتسب عليه ما أمكنك، وتقرَّب إلىٰ الله بمرضاته فيه، واجعل اجتماعك به مَتْجرًا لك، لا تجعله خسارة، وكن معه كرجل سائر في طريقه عَرَض له رجل وَقَفَهُ عن سيره؛ فاجْتَهِدْ أن تأخذه معك وتسير به، فتَحْمِلْه ولا يحملك، فإن أبىٰ ولم تَلْقَ في سيره مطمعًا؛ فلا تقف معه، بل اركب الدَّرْبَ، ودَعْهُ ولا تلتفت إليه؛ فإنَّه قاطع طريق، ولو كان من كان؛ فانْجُ بقلبك، وضِنَّ بيومك وليلتك».

واحرص أيُّها المسلم علىٰ إفشاء السَّلام، وخالق النَّاس بخلق حسن، والنَّاس - ولله الحمد - لا يزال فيهم الخير، يكرهون الفحش والبذاء وسوء الأخلاق، ولا يزالون يحرصون علىٰ المروءة ومكارم الأخلاق، فلا تنظر للنَّاس بعين عوراء، فتُبصر كل النَّاس بالسَّفلة من النَّاس.

---

(١) الوابل الصَّيِّب (ص١١١، ١١٢).

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ جمهور من تعاشرهم من الخلق إذا خالقتهم بالخلق الحسن؛ اطمأنت نفسك، وزالت عنك الهموم؛ لأنك تكتسب بذلك مودَّتهم، وتخمد عداوتهم، مع ما ترجوه من عظيم ثواب الله علىٰ هذه العشرة التي هي من أفضل العبادات؛ فإن العبد يبلغ بحسن خُلُقه درجة الصائم القائم، وحسن الخلق له خاصية في فرح النفس، لا يعرف ذلك حقَّ معرفته إلا المجربون.

فأين حال هذا ممن عاشر الناس بأسوأ الأخلاق؟! فخيره ممنوع، وشره غير مأمون».

❁ ❁ ❁

---

(١) مجموع مؤلفات العلامة عبد الرحمن السعدي (٦/ ١١١).

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٧- واعلم أن حياتك تبع لأفكارك، فإن كانت أفكارًا فيما يعود عليك نفعه في دين أو دنيا؛ فحياتك طيبة سعيدة، وإلا فالأمر بالعكس(١).

الشَّرْح:

المسلم أفكاره في تحقيق مقصود خلقه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، فأفكار المسلمين حول هذا تدور. والكافرون ضلَّ سعيهم في الحياة الدُّنيا، منهم من يعيش كالبهائم غاية أمره وتفكيره أن يلهو بمتاع الدُّنيا، فيعيش حياة البهائم أو شرًّا منها.

ومن الكافرين من ضلَّ اعتقاده وعمله وسعيه وفكره وأمره، وصار ملازمًا لكفره لا ينظر في تصحيح أفكاره وتنقيح عقائده، وأشد الكفَّار ضلالًا في فكره من صار فاسدًا مفسدًا، ساعيًا في إضلال الخلق في جهالة كفره وشركه وعلمانيَّته، صار فكره وجهده كلُّه في الدَّعوة إلىٰ الكفر والضَّلال البعيد.

فالحنفاء الموحِّدون انصرفت أفكارهم في تحقيق المقصود العظيم من خلقهم، وصارت نيَّاتهم كلُّها في عبوديَّة الله، في الأمور كلِّها، العبادات والمباحات، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

---

(١) الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة (ص٢٩).

فالمؤمنون أفكارهم وأعمالهم وسعيهم فيما يرضي الله، ويكون ذلك سببًا لسعادة الدَّارين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

والكافرون أفكارهم ضالَّة في الشِّرك والبدع واتِّباع أهوائهم، والصدّ عن سبيل الله، والفناء بالدُّنيا عن الآخرة.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ١].

وقد أجمل النبيُّ ﷺ بيان أفكار المؤمنين في جوابه لمن لم يستطع إدراك مفصل ذلك، فأخبر أن دندنته وأصحابه في العمل للجنَّة والنَّجاة من النَّار.

فأفكار المسلمين تدندن حول هذا، يسعون إلىٰ القيام بأسباب دخول الجنَّة والنَّجاة من النَّار بعبوديَّة الله وحده لا شريك له.

وقوله ﷺ: «كل النَّاس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها»، رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، فيه بيان مساعي أصناف الخلق بحسب أفكارهم؛ فالمؤمنون أفكارهم وسعيهم في عتق رقابهم من النَّار، والكافرون أفكارهم وسعيهم فيما يوبقهم في النَّار من الكفر والضَّلال.

والنَّاس يصدرون يوم القيامة أشتاتًا تبعًا لأعمالهم، قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

فظهر بذلك فرق ما بين أفكار وسعي الموحِّدين، وأفكار وسعي المشركين والكافرين.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾ [الليل: ١-١٠].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ هذا هو المقسم عليه، أي: إنَّ سعيكم أيها المكلَّفون لمتفاوت تفاوتًا كثيرًا، وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو وجه الله الأعلىٰ الباقي؟ فيبقىٰ السعي له ببقائه، وينتفع به صاحبه؟ أم هي غاية مضمحلة فانية، فيبطل السعي ببطلانها، ويضمحل باضمحلالها؟

وهذا كل عمل يُقصد به غير وجه الله تعالىٰ، بهذا الوصف، ولهذا فصَّل الله تعالىٰ العاملين، ووصف أعمالهم، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ﴾ أي ما أُمر به من العبادات المالية؛ كالزكوات، والكفارات، والنفقات، والصدقات، والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنية؛ كالصلاة، والصوم، ونحوهما.

والمركَّبة منهما؛ كالحج والعمرة ونحوهما ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ ما نُهي عنه، من المحرمات والمعاصي، علىٰ اختلاف أجناسها.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ **أي**: صدَّق بـ«لا إله إلا الله»، وما دلت عليه من جميع العقائد الدينية، وما ترتب عليها من الجزاء الأخروي.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٩٧٣).

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ **أي**: نسهل عليه أمره، ونجعله ميسرًا له كل خير، ميسرًا له ترك كل شر؛ لأنه أتىٰ بأسباب التيسير، فيسَّر الله له ذلك.

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بما أمر به، فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ عن الله، فترك عبوديته جانبًا، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلىٰ ربها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجَّه إليه.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ **أي**: بما أوجب الله علىٰ العباد التصديق به من العقائد الحسنة.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ **أي**: للحالة العسرة، والخصال الذميمة، بأن يكون ميسرًا للشرِّ أينما كان، ومقيضًا له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية».

وكلٌّ يحصد في الآخرة ثواب وحساب أفكاره ومساعيه وأعماله، قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ١٠﴾ [الغاشية: ٨-١٠].

فمن كانت أفكاره وأعماله في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ فأولئك هم الفائزون، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، هذا من نجاتهم أنَّهم لا يَمَسُّهم السُّوء، أي: لا يَمسُّهم شيء يسوؤهم، لا من عقاب، ولا من توبيخ، ولا غير ذلك، ولهذا إذا

(١) تفسير سورة الزُّمر (ص٤٢٦).

دخل أهل الجنَّة الجنَّة يُقال: يا أهل الجنَّة خلود فلا موت. ويقال: إنَّ لكم أن تنعموا، وإنَّ لكم أن تصحُّوا، وإنَّ لكم أن تَحيَوْا؛ يعني: فلا تموتوا، ولا تسقموا، ولا تبأسوا».

والكفَّار خسروا الدُّنيا والآخرة؛ لأنَّ سعيهم في الدُّنيا كان في ضلال، فكان عاقبة أمرهم خسرًا، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

قال شيخنا العلامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذا بيان لخسرانهم أنفسهم؛ لأنَّه خَسِرَ نفسه في الحقيقة، ووجه الخسران أنَّ حياته في الدُّنيا لم يستفد منها في الآخرة إطلاقًا؛ فخسر نفسه، خَسِرَ عمره كله راح هباءً منثورًا، فلو أنَّه مؤمن مخلص لاستفاد، لكان كلُّ حياته الدُّنيا ربحًا؛ لأنَّه سوف يُخَلَّد في الجنَّة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر؛ أمَّا الآن فسَيُخَلَّد في النَّار، هذه خسارة النَّفس».

والكافر خسران، وهو أعظم النَّاس غبنًا لنفسه؛ لأنَّ كل ما تمتَّع به من لذَّات الدُّنيا يُعاقب عليها في الآخرة؛ لأنَّه لم يؤدِّ حقَّها في الدُّنيا بعبوديَّة الله وشكره علىٰ نعمه.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّ الكُفَّار لا يتمتعون بنعمة في الدنيا إلا كانت عليهم نقمة؛ فاللُّقْمة إذا رفعها الكافر إلىٰ فمه يعاقب عليها؛

(١) تفسير سورة الزُّمر (ص١٣٤).

(٢) تفسير سورة الزُّمر (ص٥٠٧).

لأن الله تعالىٰ قال: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ [المائدة:٩٣] ، فمفهومه أنَّ من لم يكن كذلك فعليه جُناح فيما طَعِم، ويقول عَزَّوَجَلَّ في اللباس: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف:٣٢] فالكُفَّار ليست لهم في الدنيا، ولا خالصة لهم يوم القيامة، فهم يكتسون بغير حَقٍّ؛ لأنهم يتنعَّمون بنعمة الله تعالىٰ ويكفرون بالله تعالىٰ».

فالمسلم لا يعيث في الأرض فسادًا، وقد نهاه الله عن ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بالشِّرك، والبدع، والمعاصي».

والفساد لو قام به شرار الخلق فإن الله يتولَّىٰ دفع آثاره عن الأرض والخلق، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ [الرعد: ١٧]، فيضمحل الباطل ويتلاشىٰ الفساد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

ويدفع الله الفساد عن الأرض والخلق بمن يستعملهم من عباده، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وما بقاء الأمم والنَّاس إلا حيث كان الخير والصَّلاح هو الأغلب فيهم، فقد سألت زينب بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا رسول الله ﷺ: «أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: **نعم، إذا كثر الخبث**»، متَّفق عليه.

وشرُّ النَّاس وأشقاهم ممَّن تشقىٰ بهم الأرض والبلاد والعباد، المشرك الكافر المضار بأديان النَّاس ودنياهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٢-٢٠٦].

ومن المضارَّة بالنَّاس في دنياهم معاملتهم بالغشِّ والكذب والجور، وهذا شرُّه عظيم، وقد أهلك الله قوم شعيب بسبب تطفيفهم المكيال؛ فلا تأخذ نفسك بهديهم، وعامل الناس بالصدق والنصيحة والعدل.

قال العلامة المجدد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العدل واجب في جميع المعاملات بين الناس، وهو أن تؤدي ما عليك كاملًا كما تطلب حقَّك كاملًا، فمتىٰ بُنيت المعاملات علىٰ هذا الأصل؛ تحسنت المعاملات، وتمت الثقة والتبادل العادل بين المتعاملين، فاتَّسعت دائرة الأسباب والتِّجارات والصِّناعات والحِرَف النَّافعة، ووثق العاملون بعضهم ببعض، وقلَّت الخصومات والمشاجرات، وانحسم النزاع كلُّه أو معظمه، وكل ذلك بسبب العدل.

ومتىٰ كان الأمر بعكس هذه الحال، ورُفع من المعاملات رُوح العدل، وحلَّ محلَّه البخسُ والتطفيف، واستقصىٰ الإنسان علىٰ حقِّه، وإن أمكنه الزِّيادة فعل، وبخس الحق الذي عليه، وغش وطفَّف؛ فمنع ما عليه وأخذ ما له ﴿وَيۡلٞ

---

(١) الرياض الناضرة (ص٤٠).

لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ [المطففين: ١-٥]، وويل لهم مما يترتب علىٰ البخس والتطفيف من العقوبات الدنيوية التي أولها: نزع البركة، ومحق الرزق، وسوء المعاملة، وتوقف كثير من المعاملات والأسباب النافعة».

فالواجب علىٰ المسلم أن يكون صادقًا في معاملة الخلق، لا يغشُّهم، ولا يظلمهم، ولا يكذب عليهم، ومن كان صادقًا مع الله عَزَّوَجَلَّ صدق مع خلقه؛ لأنَّ الله أمره بمعاملتهم بالنَّصيحة.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «التَّرغيب في الصِّدْق، ولكن الصِّدْق مع الله عَزَّوَجَلَّ، ومع رسول الله ﷺ، ومع عباد الله.

فالصِّدْقُ مع الله بالإخلاص له، ومع الرَّسول باتِّباعه، ومع عباد الله بحسن المعاملة»

وشرُّ الأنام إفسادًا في الأرض الأمَّة المغضوب عليهم، ولذلك كثر خطاب الله لهم بالنَّهي عن الفساد، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٧٤﴾ [الأعراف: ٧٤].

وبسبب إفساد اليهود في الأرض، سلَّط الله عليهم عقوباته القدرية، فانتصر الله منهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قد جعل الله عامَّة ما أصاب بني

---

(١) تفسير سورة الزمر (ص٣٧).

(٢) الصارم المسلول (ص٤٥٤).

إسرائيل من الذلَّة والمسكنة والغضب حتىٰ سفك منهم من الدماء ما شاء الله، ونُهبت الأموال، وزال الملك عنهم، وسُبيت الذرية، وصاروا تحت أيدي غيرهم إلىٰ يوم القيامة؛ إنما هو بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيِّين بغير الحق».

فالنُّفوس الزكيَّة أفكارها عليَّة، تُفكِّر فيما يرضي ربَّها، وروحها متعلِّقة بالعرش.

والنُّفوس الرديَّة أفكارها اتِّباع الهوىٰ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «للقلب ستة مواطن يجول فيها، لا سابع لها؛ ثلاثة سافلة، وثلاثة عالية. فالسافلة: دنيا تتزيَّنُ له، ونفس تحدِّثُه، وعدوٌّ يوسوس له؛ فهذه مواطن الأرواح السافلة التي لا تزال تجول فيها. والثلاثة العالية: علم يتبيَّن له، وعقل يرشده، وإله يعبده، والقلوب جوَّالة في هذه المواطن».

وتواصىٰ النبيُّون عليهم الصلاة والسلام بالدَّعوة إلىٰ الإصلاح في الأرض والنَّهي عن الفساد، وهكذا أتباعهم المصلحون، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وهذه صفة المؤمنين جميعًا، منهجهم الذي يعتقدونه ويعملون به، ويؤثرونه، وحوله تدور أفكارهم وتكون أفعالهم الصلاح والإصلاح، والدَّعوة لكل خير.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر].

---

(١) الفوائد (ص١٤٤).

وكانت أفكار الفاروق عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في نصرة الإسلام، وإعزاز المسلمين، ونفع الخلق والإحسان إليهم، وإقامة الدِّين والعدل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «كان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لكونه أكمل إيمانًا وإخلاصًا وصدقًا ومعرفة وفراسة ونورًا؛ أبعد عن هوىٰ النَّفس، وأعلىٰ همَّة في إقامة دين الله، مقدمًا علىٰ سائر المسلمين غير أبي بكر، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أجمعين».

فالفكرة هي الموجبة للإرادة، والإرادة هي الباعثة للعمل، قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ[2]: «الفكر هو الذي ينقل من موت الغفلة إلىٰ حياة اليقظة، ومن المكاره إلىٰ المحابِّ، ومن الرغبة والحرص إلىٰ الزهد والقناعة، ومن سجن الدنيا إلىٰ فضاء الآخرة، ومن ضيق الجهل إلىٰ سعة العلم ورَحْبه، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلىٰ هذه الدار إلىٰ شفاء الإنابة إلىٰ الله والتجافي عن دار الغرور، ومن مصيبة العمىٰ والصَّمَم والبكم إلىٰ نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه، ومن أمراض الشبهات إلىٰ بَرْد اليقين وثَلَج الصَّدر.

وبالجملة فأصل كلِّ طاعة إنما هو الفكر، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكر؛ فإن الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة، فيبذر فيها حَبَّ الأفكار الرديَّة، فيتولَّدُ منه الإرادات والعُزوم، فيتولد منها العمل. فإذا صادف أرض القلب مشغولة ببَذْر الأفكار النافعة فيما خُلق له، وفيما أُمر به وفيم هيِّئ له وأُعِدَّ له من النعيم المقيم أو العذاب الأليم؛ لم يجد لبذره موضعًا».

---

(١) الفتاوىٰ العراقيَّة (٢/ ٦٢٣).

(٢) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٥٢٦، ٥٢٧).

ومن محاسن دين الإسلام نهيه عن إرادة السُّوء، وخطرات الضَّلال، فما أعظم محاسن دين الإسلام، وأكمل أحكامه، وعدل تشريعاته!

واعتبر بما عاقب الله به من نوىٰ أن يمنع الفقراء من فضل الله الذي آتاه، فتلف ماله.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [القلم: ١٧-٢٩].

وأعمال النَّاس تبع لأفكارهم، فتجد الكافر والمبتدع يأنس بمن يوافقه في ضلاله لمجرَّد توافق الاعتقادات والأعمال، والمؤمنون يتوافقون اتباعًا للحقِّ.

وهكذا الحال بالنِّسبة للأخلاق؛ فالبخلاء فرحون بالبخيل، والأسخياء يحبُّون المنفقين المحسنين.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كل نفس تميل إلىٰ ما يناسبها ويشاكلها، وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٤] أي: علىٰ ما يشاكله ويناسبه، فهو يعمل علىٰ طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته. وكل إنسان يجري علىٰ طريقته ومذهبه وعادته التي أَلِفَها وجُبل عليها، فالفاجر يعمل بما

(١) الفوائد (ص٢٥٩).

يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم، والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم ومحبته، والثناء عليه، والتودُّد إليه والحياء منه، والمراقبة له وتعظيمه وإجلاله».

ومن النَّاس من أفكاره في مصالح ومنافع خاصَّة نفسه، وهذا شأن كثير من الكفَّار، قال تعالىٰ: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وصنف من المسلمين كذلك أفكاره في طلب مصالحه خاصَّة، لا يهتمُّون لأمور المسلمين، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾، يدلُّ علىٰ أنانيَّتهم، وأنَّهم ليس لهم همٌّ إلا أنفسهم، والذي يليق بالمؤمن أن يكون همُّه في مثل هذه المواطن: نصرة الإسلام، وعزَّة الإسلام، وأن يبيع نفسه لله».

وقد بكَّت الله من قصر أفكاره علىٰ خاصة نفسه، ولم يهتم لأمر المسلمين، فقال سبحانه: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ [الفجر: ١٧، ١٨].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ وقوف العبد عند مراد نفسه فقط من ضعف الهمَّة».

ومن النَّاس من طبعه أذىٰ الخلق، يصبح ويمسي علىٰ أذىٰ الخلق وظلمهم والعدوان عليهم، وهذا ليس بخلق ولا دين المسلم؛ فالمسلم من سلم

---

(١) تفسير آل عمران (٢/ ٣٣٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٩٧٠).

المسلمون من لسانه ويده، متَّفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وأذىٰ الخلق شأن الكافر، فإنَّ أخصَّ وأخسَّ أوصافه ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [القلم: ١٢].

فالمضارَّة بالنَّاس وأذيَّتهم ظلم وعدوان، وهذا متوعَّد بمضرَّة الله له، جزاءً وفاقًا، ولا يظلم ربُّك أحدًا.

عن أبي صرمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**من ضارَّ؛ ضارَّ الله به، ومن شاقَّ؛ شاقَّ الله عليه**»، رواه التِّرمذي وقال: حسن غريب.

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «من ضارَّ مسلمًا ضرَّه الله، ومن مَكرَ به مكر الله به، ومن شقَّ عليه؛ شقَّ الله عليه».

وقال العلَّامة السَّعدي[2]: «ومن ضارَّه الله ترحَّل عنه الخير، وتوجَّه إليه الشرُّ، وذلك بما كسبت يداه».

وقال الإمام الشَّافعي رَحِمَهُٱللَّهُ[3]: «أنفع الذَّخائر التَّقوىٰ، وأضرُّها العدوان».

والمسلم هو الذي ينصح لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله ﷺ، وينصح للمسلمين فلا يضارُّ بهم، ولا يغشُّهم، ولا يظلمهم، ولا يكيدهم، ولا يمكر بهم.

قال أبو حاتم محمد بن حِبَّان رَحِمَهُٱللَّهُ[4]: «الواجب علىٰ العاقل لزوم

---

(١) بهجة قلوب الأبرار في شرح جوامع الأخبار (ص٦٥).

(٢) بهجة قلوب الأبرار في شرح جوامع الأخبار (ص٦٦).

(٣) مناقب الشَّافعي (٢/ ١٧١).

(٤) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص١٩٤).

النصيحة للمسلمين كافة، وترك الخيانة لهم بالإضمار والقول والفعل معًا، إذ المصطفىٰ ﷺ كان يشترط علىٰ من بايعه من أصحابه: «النصح لكل مسلم»).

وشرُّ المفسدين في الأرض قُطَّاع الطَّريق، وهم صنفان:

١- قُطَّاع الطريق إلىٰ الله.

٢- قُطَّاع سبل النَّاس وطرقهم في أوطانهم وأسفارهم.

والصِّنف الأوَّل شرُّ الأصناف، تجد أحدهم يُثبِّط عن طلب العلم النَّافع عن علماء السُّنَّة، فيقطع عليهم الطَّريق إلىٰ الله؛ لأنَّ العلم يُبصِّر المتعلِّم بصراط الله المستقيم، الذي من اهتدىٰ إليه وعمل به دخل الجنَّة، قال النبي ﷺ: «**من سلك طريقًا يلتمس به علمًا؛ سهَّل الله له طريقًا إلىٰ الجنَّة**»، رواه مسلم.

وقطَّاع الطَّريق إلىٰ الله منهم الجاهل الذي يريد أن يأنس بجهل النَّاس، ومنهم الحاسد للنَّاس عن إدراك الخير، ومنهم المبتدع، ومنهم المتعالم ليجتمع النَّاس حوله فيضلّهم، ومنهم العدو للإسلام، فإنَّ الأمم إنَّما تحيا بالعلم النَّافع والعمل الصَّالح.

ومن يقطع علىٰ النَّاس سبلهم وطرقهم فهو مضارٌّ بأمن النَّاس وأديانهم؛ لأنَّ النَّاس إذا لم يأمنوا ما استطاعوا إقامة شعائر دينهم، ولا السَّعي في مصالحهم الدُّنيويَّة.

وشرُّ قُطَّاع الطَّريق إلىٰ الله الذين نصبوا أنفسهم أندادًا لله، يضاهون الله في أحكامه، بدَّلوا شرع الله الذي كلُّه عدل بقوانين جائرة لمخلوقين.

فهؤلاء قطعوا الطَّريق علىٰ خلق الله عن العدل والتَّحاكم إلىٰ الشَّرع، وإذا

خُوطبوا بأحكام الله وشرعه راغموا بالقوانين البشرية استنكافًا وكبرًا وغرورًا وظلمًا، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

ومن النَّاس من أفكاره لا تتجاوز متاع الدُّنيا، ليله ونهاره في إشباع غرائزه بلا عبوديَّة لله ولا شكر لنعمه.

فالطَّواغيت الذين طغوا في رغبات شهواتهم المحرَّمة، ولم يؤدوا حق الله في عبوديتهم، عاشوا حياة بهيمية؛ سعوا في ملذات أبدانهم وأجسادهم، ولهوا بالشَّهوات عن الانقياد لأمر الله ونهيه، وعن طاعته؛ أولئك شرار الخلق، لم تتجاوز أفكارهم شهواتهم البهيمية.

قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هذا جزاء الطاغي المسترسل مع الشهوات البهيمية الداعية إلىٰ الطغيان، ثم قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]؛ فهذا جزاء من قدَّم خوف الله علىٰ رغباته المطلَقة الضارَّة، وراقب نفسه وكبحها عن جماحها في الهوىٰ المُردي؛ فإن الهوىٰ يدعو صاحبه إلىٰ ترك الواجبات والمستحبَّات طلبًا للراحة الحاضرة، وإيثارًا للكسل، وإلىٰ التجرؤ علىٰ المحرَّمات التي في النفس داعٍ قوي إليها.

---

(١) الرياض الناضرة (ص١٤٦).

فإذا لم يكبحه بخوف الله، وخشية العقوبة؛ استرسل به إلىٰ الطغيان، فلم يتورع عن محرَّم، ولم يقم بواجب، وهذا هو الهلاك الأبدي. فإذا خاف ربَّه وراقبه، وعلِم ما عليه من الواجبات، وما هو محتم عليه من ترك المحرمات، وجاهد نفسه وهواه علىٰ القيام بذلك؛ فقد أفلح وأنجح، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

فمتاع الدُّنيا وشهواتها وملذَّاتها غمرت قلوب الكافرين اللَّاهين بحظوظ أنفسهم عن حقّ الله ومعنىٰ ما خُلقوا له، فلم تتجاوز أفكارهم متاع الدُّنيا وزينتها، فصارت قلوبهم تعمه في ضلالها.

قال تعالىٰ: ﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣].

فمن جهل معنىٰ ما خُلق له؛ كانت أعماله تبعًا لجهله، قال العلامة عبد الرحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «يخبر تعالىٰ أنَّ قلوب المكذبين في غمرة من هذا، أي: وسط غمرة من الجهل والظلم والغفلة والإعراض».

وقال العلامة السعدي[(٢)]: «فلما كانت قلوبهم في غمرة منه، عملوا بحسب هذا الحال من الأعمال الكفرية».

❁ ❁ ❁

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٨٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٨٤).

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٨- **ومن أنفع الأمور لطرد الهم**: أن توطِّن نفسك على أن لا تطلب الشكر إلا من الله، فإذا أحسنت إلى من له حق عليك أو من ليس له حق؛ فاعلم أن هذا معاملة منك مع الله، فلا تبال بشكر من أنعمت عليه، كما قال تعالى في حق خواص خلقه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

ويتأكد هذا في معاملة الأهل والأولاد، ومن قوي اتصالك بهم[١].

الشَّرح:

الإحسان إلى الخلق هو من أبواب الخير التي يتقرَّب بها المسلم إلى ربِّه، ونفع النَّاس وإن كان فيه سدٌّ لخلَّتهم وقضاء لحاجاتهم، إلَّا أن عائدته إلى المحسن عظيمة من جهة تعبُّده لله، وتثقيل موازينه بالحسنات، ومن جهة إنفاق مال الله حيث أراد الله، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

فالمؤمن يتَّخذ من ماله وجاهه أسبابًا لثواب الدُّنيا والآخرة، والمحسن ينعم قلبه وتفرح نفسه بالبذل في الخيرات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المال إن لم ينفع صاحبه ضرَّه ولا بد، وكذلك العلم والملك والقدرة، كل ذلك إن لم ينفعه ضرَّه؛ فإن هذه الأمور وسائل

---

(١) الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة (ص٢٩، ٣٠).

(٢) عدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٣١٥).

لمقاصد يُتوسل بها إليها في الخير والشر، فإن عُطلت عن التوسل بها إلىٰ المقاصد والغايات المحمودة تُوسِّل بها إلىٰ أضدادها.

فأربح الناس من جعلها وسائل إلىٰ الله والدار الآخرة، وذلك الذي ينفعه في معاشه ومعاده، وأخسر الناس من توسَّل بها إلىٰ هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة، فخسر الدنيا والآخرة؛ فهذا لم يجعل الوسائل مقاصد، ولو جعلها كذلك لكان خاسرًا، لكنه جعلها وسائل إلىٰ ضد ما جُعلت له، فهو بمثابة من توسل بأسباب اللذَّة إلىٰ أعظم الآلام وأدومها».



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٩- اجعل الأمور النافعة نصب عينيك، واعمل علىٰ تحقيقها، ولا تلتفت إلىٰ الأمور الضارة لتلهو بذلك عن الأسباب الجالبة للهم والحزن، واستعن بالراحة وإجمام النفس علىٰ الأعمال المهمة[١].

الشَّرْح:

هذا توجيه لإشغال النَّفس بالأمور النَّافعة، والتلهِّي عن الأمور الضارَّة؛ لأنَّ النَّفس إذا لم تشغلها بطاعة الله شغلتك بمعصيته، وفيه توجيه لإجمام النَّفس بالمباحات ليعود لك نشاطك، فتقوم بالأعمال النَّافعة بقوَّة ونشاط.

ومن أفضل الأمور النَّافعة مدارسة القرآن وحفظه وتدبُّر معانيه والعمل به.

قال عبدة بن أبي لبابة الكوفي البَزَّاز: كنت في سبعين من أصحاب ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقرأت عليهم القرآن، ما رأيت منهم اثنين يختلفان، يحمدون الله علىٰ الخير ويستغفرون من الذنب[٢].

ومقصود العلَّامة السّعدي باللَّهو النَّافع عن الضَّار؛ هو الاشتغال بالطَّاعة عن المعصية، وذلك عبادة وليس بلهو، وإنَّما قصد بذلك استغلال الفراغ في الطَّاعة والأعمال النَّافعة، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشَّرح: ٧، ٨].

---

(١) الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة (ص٣٠).

(٢) تهذيب الكمال (٥/ ٢٦).

ونعت الله المؤمنين بأنَّ أوقاتهم معمورة بالطَّاعات، لا ينشغلون بالمباحات عن الواجبات، ولا يتركون الطَّاعات باللَّهو في أعمال الدُّنيا، قال تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٧، ٣٨].

قال العلامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصودهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه».

وأعظم الأمور وأنفعها في زكاء المسلم، وخيرها من بين الأعمال، وأرفعها في الدَّرجات، وأثقلها في موازين الحسنات؛ ذِكْرُ الله، ومن اشتغل بذلك كان ليله ونهاره كله طاعة وخير، واشتغل بمناجاة الله عن أن تنصرف أفكاره إلىٰ ما يضرُّه أو ما لا ينفعه.

وقد أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ بحال ملائكته من لزوم ذكره؛ لنكون من الذَّاكرين الله كثيرًا والذَّاكرات، قال سبحانه عن ملائكته: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وفي البشر من ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

والمسلم إذا احتسب شغله عبادة وإن كان عمله مباحًا، أو في تجارة؛ فإنَّ تجارته تكون بذلك من عبادة الله وطاعته، ومن كان هذا حاله فهو الموفَّق حيث كان عمله كلُّه في عبادة الله وطاعته.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٩٩).

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في الرَّابح**(١): «يجعل تجارته وولده من ذكر الله، بحيث يقصد بهذه التجارة الاستعانة علىٰ طاعة ربه، وعلىٰ بذل أمواله فيما يُرضي ربه. وكذلك بالنسبة للأولاد، يجعل اشتغاله بهم لتربيتهم والتأمل في نعمة الله عليه بهم، وما أشبه ذلك؛ هذه المرتبة العليا، وعلىٰ هذا يكون الرجل رابحًا بالطرفين في آن واحد».

ومن أعظم الأمور النَّافعة لك أيُّها المسلم الموجبة لسعادتك في الدَّارين، والموجبة لسلامتك من الآثام، ومن أسباب الغمِّ والحزن؛ تركُ الاشتغال بما لا يعنيك، وهذا من حسن إسلامك.

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»، رواه التِّرمذي.

وقال محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «التقيُّ عن الخطائين مشغول، وإنَّ أكثر النَّاس خطايا أكثرهم ذكرًا لخطايا النَّاس».

وقال شيخنا العلامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «إنَّ ترك الإنسان ما لا يهتم به، ولا تتعلق به أموره وحاجاته؛ من حسن إسلامه. وإن من اشتغل بما لا يعنيه؛ فإن إسلامه ليس بذاك الحسن، وهذا يقع كثيرًا لبعض الناس؛ فتجده يتكلم في أشياء لا تعنيه، أو يأتي لإنسان يسأله عن أشياء لا تعنيه، ويتدخل

---

(١) تفسير سورة النور (ص٢٥٨).

(٢) المجالسة وجواهر العلم (ص٣٣٩).

(٣) شرح الأربعين النَّوويَّة (ص١٩٢).

فيما لا يعنيه، وكل هذا يدلُّ علىٰ ضعف الإسلام. وإنه ينبغي للإنسان أن يتطلب محاسن إسلامه فيترك ما لا يعنيه ويستريح؛ لأنه إذا اشتغل بأمور لا تهمُّه ولا تعنيه فقد أتعب نفسه».

وأعظم الأمور الضَّارَّة التي تُذهب الحسنات، وتوقع في الآثام، وتهوي في النَّار؛ فضول الكلام، والكلام المحرَّم، وقد نصح السَّلف بالاحتراز عنه بالكلام الطيِّب النَّافع.

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا هممت بكلام السُّوء، فاجعل مكانه التَّسبيح».

وأنت أيُّها المسلم في عافية من الكلام بما لا ينفع، ومن القيل والقال الموجب للآثام؛ فإنَّ النّاس لا يجعلونك في حلٍّ من أذيَّتهم وغيبتهم خصوصًا إذا تكرَّر ذلك منك.

قال ابن عون: قال رجل لابن سيرين: قد اغتبتك فاجعلني في حلٍّ؛ قال: أكره أن أحلَّ ما حرَّم الله[(١)].

وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله كره لكم: قيل وقال، وكثرة السُّؤال، وإضاعة المال**».

قال العلَّامة أبو المظفَّر ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ومن قول الخير: الإبلاغ عن الله عَزَّوَجَلَّ، وقول نبيه ﷺ، وتعليم المسلمين، والأمر بالمعروف عن

---

(١) سير السَّلف الصَّالحين (٣/ ٩١٩).

(٢) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٦/ ١٧٤).

علم، وإنكار المنكر عن علم، والإصلاح بين الناس، وأن نقول التي هي أحسن، وأن نقول للناس حسنًا، ومن أفضل الكلمات: كلمة حق عند من يُخاف ويُرجىٰ في تأت وسداد».

وصفات وأخلاق وشمائل السَّلف عظيمة القدر، تدعو إلىٰ الأخذ من تلك الفضائل التي أوتوها بفضل الله ومنَّته وإعانته لهم، واستشعارهم لقدرها، فلذلك تحلُّوا بها.

قال الحسن بن عيسىٰ: اجتمع جماعة من أصحاب ابن المبارك، فقالوا: عدُّوا خصال ابن المبارك؛ فقالوا: جمع العلم، والفقه، والأدب، والنَّحو، واللُّغة، والزُّهد، والشَّجاعة، والشِّعر، والفصاحة، وقيام اللَّيل، والعِبادة، والحجّ، والغزو، والفروسيَّة، والقوَّة، وترك الكلام فيما لا يعنيه، والإنصاف، وقلَّة الخلاف علىٰ أصحابه[1].

تجمَّل أيُّها المسلم بمكارم الأخلاق من القول الطيِّب، واحذر أخلاق المنافقين من الفحش والبذاء.

واحذر أيُّها المسلم أخلاق السَّفلة.

قال أبو عاصم النَّبيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «لا يذكر النَّاس بما يكرهون إلَّا سفلة لا ترجع إلىٰ دين».

وشرُّ أنواع الكلام الدَّعوة إلىٰ الشِّرك وتبريره وتزيينه للعامَّة ونصرته،

(١) طبقات علماء الحديث (١/ ٤٠٤).

(٢) الفوائد لأبي علي الهمذاني (ص١٤٦).

والدَّعوة إلىٰ البدع، والجدال عنها بالباطل، كل ذلك من إفساد أديان النَّاس وتبديل الشَّريعة.

وفلسفة المتكلِّمين من شرِّ أنواع الكلام، وهي دهليز الكفر والإلحاد.

قال أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «النِّفاق كثرة الكلام في غير الكتاب والسُّنَّة».

والله عَزَّوَجَلَّ لم يخلقك أيُّها المسلم إلَّا لعبوديَّته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فلا يقطعك العجز والكسل عن توحيد الله، فلن يدخل أحد الجنَّة إلَّا بتوحيد الله وعبادته.

فاعبد الله واصطبر لعبادته، قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الاصطبار لعبادته تعالىٰ، وهو جهاد النَّفس، وتمرينها، وحملها علىٰ عبادة الله تعالىٰ».

وقال العلَّامة السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إذا امتثل العبد لأمر ربِّه بالاصطبار لعبادته، وحبس النفس وتوطينها علىٰ إحسان العبادة، خصوصًا أفضل العبادات وأعظمها، وهي الصلاة، كما أمر الله بالاصطبار عليها خصوصًا فقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]؛ استنار قلبه بالإيمان، وأشرق نور العرفان

---

(١) الحجَّة في بيان المحجَّة (٢/ ٥٣٤).

(٢) المواهب الربَّانيَّة من الآيات القرآنية (ص ١٠٦).

(٣) المواهب الربَّانيَّة من الآيات القرآنية (ص١٠٧، ١٠٨).

في ضميره، وذاق طعم الإيمان، وباشر حلاوته؛ فانجذب إلىٰ عبادة الله وإخلاص العمل له، وعلم أنَّ هذا هو الفلاح الدائم، والرِّبح المتضاعف الذي لا خسارة فيه، فصبَّر نفسه قليلًا ليستريح بأعظم اللذات طويلًا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

والكسل عن العمل وتثاقله يأتي من عدم الإخلاص لله وترك ذكره، أو ضعفه، وهذا الذي أقعد المنافقين عن العمل، فإنهم ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢] فثقلت عليهم الطَّاعات، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢]، والمسلمون المؤمنون قلوبهم مخبتة من ذكر الله الذي هو مادَّة حياة قلوبهم وصلاحها، فتنبعث جوارحهم إلىٰ فعل الطاعات ويسهل عليهم أداؤها، بل يجدون قُرَّة العين في عبوديَّة الله؛ فهو هناء قلوبهم، وسعادة أرواحهم، وبهجة نفوسهم.

ومن لم يذكر الله غفل عن مصالحه والعبادات التي تزكو بها نفسه، وتصلح حاله، وتسعد باله.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «غفل عن ذكر ربِّه، فانفرط عليه أمره وقلبه، فلا التفات له إلىٰ مصالحه وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه، بل هو مشتَّتُ القلب مُضيَّعُه، منفرط الأمر حيران لا يهتدي سبيلًا».

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٣٩).

وسعادة المسلم في الدَّارين تكون بالعلم النَّافع والعمل الصَّالح، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فلابُدَّ من العلم بالصِّراط المستقيم وهو شرع الله وأمره ونهيه، ولابُدَّ من اتِّباعه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كمال كلِّ إنسان إنما يتمُّ بهذين النوعين: هِمَّةٌ ترقِّيه، وعلم يبصِّره ويهديه؛ فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوتُ العبد من هاتين الجهتين، أو من إحداهما:

١-إما أن لا يكون له علم بها، فلا يتحرك في طلبها.

٢-أو يكون عالمًا بها ولا تنهض همته إليها.

فلا يزال في حضيض طبعه محبوسًا وقلبه عن كماله الذي خُلق له مصدودًا منكوسًا، قد أسام نفسه مع الأنعام راعيًا مع الهَمَل، واستطاب لُقَيْمات الراحة والبطالة، واستلان فراش العجز والكسل».

ودرجات الجنَّة تُنال بالعلم النَّافع والعمل الصَّالح، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥]، فمن لم يعمل فقد حرم نفسه الجنَّة، فسلعة الله غالية، وسلعة الله الجنَّة، فاسع إليها بالعمل الصَّالح.

وقول العلَّامة السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «استعن بالرَّاحة وإجمام النَّفس علىٰ الأعمال المهمَّة»؛ توجيه إلىٰ سلوك الوسطيَّة في السَّير إلىٰ الله، فتأخذ نفسك بالجدِّ وتعطي نفسك حظَّها من الرَّاحة لتجدِّد نشاطك، ولتدفع عن نفسك السآمة والملل، وليستمرَّ سيرك إلىٰ الله، فلا تترك التَّكاليف لطول الأمد كما

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ١٢٥).

حصل للكفَّار من أهل الكتاب.

فالمسلم فقيه نفسه، يأخذها إلىٰ أسباب سعادتها بعبوديَّة الله، ويرفق بنفسه فلا يجور عليها بالسَّير إلىٰ الله، بل يسير سيرًا يعينه علىٰ إتمام سفره؛ فيأخذ نفسه بالقوَّة والنَّشاط في أوقات العبادة، ويعطي نفسه أسباب قوَّتها بإراحتها في غير أوقات العبادة.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تسلك الحكمة مع نفسك، وتُراقبها في أعمالها، وتجتهد في تنمية وازع الرغبة إلىٰ الخير، وإضعاف الدواعي إلىٰ الشرِّ، وتُلاطفها ملاطفة الطفل في تحصيل الأمور المطلوبة منها وفي تنمية أخلاقها، وتُعطيها من الراحات والطيِّبات ما يسهُل عليها معه القيام بالطاعات، وتغتنم أوقات نشاطها، وتُريحها في فترات الكسل.

وإياك أن تجمح بك في الانهماك في اللذات التي تُشغل عن الأمور النافعة، ولكن جاهدها وحاسبها، واعرض عليها الموازنة بين الإخلاد إلىٰ الكسل وبين المطالب العالية التي تفوت بالكسل ولا تدركَ إلَّا بالعمل، وعرِّفها ما أمامها من النعيم لمن آمن وعمل صالحًا وسلك الصراط المستقيم، وقل لها: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات:٦١] ، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦] .

قل لها: يا نَفْسُ أيُّما أولىٰ: تقديم لذةٍ قليلة حشوها الأكدار، وَطَيُّها الغموم والهموم والخسار علىٰ لذاتٍ متواصلاتٍ كاملاتٍ بلا كدر ولا مُنغِّص في دار القرار؟

---

(١) الرياض الناضرة (ص٩٣، ٩٤).

وأيُّما أولىٰ: تحصيل لذة الإيمان، أو اللذات البهيمية التي مآلها الخيبة والحرمان؟

يا نفس: ابذُلي اليسير من القوة فيما يعود عليك بالخير والبركات، ولك مني أن أرضيك بما تحبين من اللذات المباحات، قومي بما عندك من الحقوق الواجبات والمستحبَّات؛ أَقُم لك بما تحبين من الراحات وتناول الطيبات.

يا نفس: قد أرشدك معلم الخير ﷺ إلىٰ أعمال نافعة عظيمة النفع يسيرة علىٰ النفس، فقال: «**استعينوا بالغدوة والرَّوحة وشيء من الدُّلْجَة، والقصد القصد تبلغوا**»».

والمسلم لابُدَّ أن يجاهد نفسه في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فيأخذها إلىٰ أسباب نجاتها من النَّار وفوزها بالجنَّة، ويجاهدها عن الكسل الذي يقطع عن العمل، قال النبيُّ ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله**»، رواه أحمد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا ورد علىٰ قلبه – المسلم - وارد الراحة والدعة والكسل والتقاعد عن مشقَّة الطاعات وتعبها، حتىٰ عبر بفكره الىٰ ما يترتب عليها من اللذات والخيرات والأفراح التي تغمر تلك الآلام التي في مباديها بالنسبة إلىٰ كمال عواقبها، وكلما غاص فكره في ذلك اشتدَّ طلبه لها، وسهل عليه معاناتها، واستقبلها بنشاط وقوَّةٍ وعزيمة».

وحقيقة الإسلام هو انقياد المسلم لأمر ربّه ونهيه، قال تعالىٰ: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٥٢٠).

وحظُّ المسلم من إسلامه بمقدار خضوعه لربِّ العالمين.

وأمَّا من لم يعمل لله عَزَّوَجَلَّ فهذا ليس بمسلم؛ فإنَّه لم يعبد الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن «الايمان والتوحيد» لابُدَّ فيهما من عمل القلب، كحب القلب؛ فلابد من إخلاص الدين لله، والدين لا يكون دينًا إلا بعمل، فإن الدِّين يتضمن الطاعة والعبادة، وقد أنزل الله عَزَّوَجَلَّ سورتي الإخلاص: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، إحداهما في توحيد القول والعلم، والثانية في توحيد العمل والإرادة».

والإسلام نعته النبيُّ ﷺ بأن «**تشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزَّكاة، وتصوم رمضان، وتحجَّ البيت**»، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ الإسلام المذكور هو من العمل، والعمل الظاهر هو موجب إيمان القلب ومقتضاه، فإذا حصل إيمان القلب حصل إيمان الجوارح ضرورة».

ومن صفات المؤمنين توحيد الله عَزَّوَجَلَّ واجتناب الشِّرك، والمسارعة في أداء الخيرات، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

هذه صفات المؤمنين، توحيد وعمل صالح، ومسارعة في الخيرات، قال

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٧٣، ٢٧٤).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٦٩).

العلامة المجدِّد عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٦١]، أي: في ميدان التَّسارع في أفعال الخير، همُّهم ما يقرِّبهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به، أو سنحت لهم الفرصة إليه؛ انتهزوه وبادروه».

والمسلمون لا يقطعون أنفسهم عن أسباب سعادتهم، فأعمالهم الصَّالحة هي أسباب سعادتهم الدُّنيويَّة والأخرويَّة، وهم قد أجابوا داعي الله ليجيرهم من عذاب النَّار، ويبوئهم منازل الأبرار في جنَّات النَّعيم.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ [آل عمران: ١٩٣-١٩٥].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «أجاب الله دعاءهم؛ دعاء العبادة، ودعاء الطَّلب، وقال: إنِّي لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثىٰ، فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملًا موفَّرًا، ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ أي: كلكم علىٰ حد سواء في الثَّواب والعقاب».

فالحزم لفعل الطَّاعات واستباق الخيرات هو الذي يأخذ بك إلىٰ أسباب الاستقامة والفوز بالجنَّة، والتَّسويف يقطعك عن كل خير.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٨٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص١٥٧).

وقد حذَّر النبيُّ ﷺ أمَّته عن التأخُّر في أداء الطَّاعات، وبيَّن أن اعتياد ذلك يقطع الإنسان عن الخيرات؛ فمن أقبل علىٰ الله أقبل الله عليه، ومن أعرض أعرض الله عنه.

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ رأىٰ في أصحابه تأخُّرًا، فقال لهم: «**تقدَّمُوا فأتَمُّوا بي، وليأتمَّ بكم من بعدكم، لا يزال قوم يتأخَّرون حتىٰ يؤخِّرهم الله**»، رواه مسلم.

قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «قوله ﷺ: «**لا يزال قوم يتأخَّرون**»، أي: عن الصفوف الأول حتىٰ يؤخِّرهم الله تعالىٰ عن رحمته أو عظيم فضله، ورفع المنزلة، وعن العلم، ونحو ذلك».

والصَّحابي الجليل كعب بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان مسارعًا في الخيرات، لا يُعرف عنه تثاقل عن الجهاد، نادىٰ منادي الجهاد للخروج إلىٰ تبوك للجهاد في سبيل الله، فتوانىٰ علىٰ غير المعهود عنه، وأخذ يسوِّف اليوم وغدًا يخرج ويسير مع أصحابه، فلا يزال يسوِّف حتىٰ فاتته غزوة تبوك، وقصَّ الله علينا أمره في سورة التَّوبة.

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ[2]: «إنَّ العزائم والهمم سريعة الانتقاض، قلَّما ثبتت، والله سبحانه يُعاقب من فتح له بابًا من الخير، فلم ينتهزه، بأن يحول بين قلبه وإرادته».

---

(١) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص٣٦٨).

(٢) زاد المعاد (ص٦١١).

وقيام الإنسان بما أمره الله من عبوديَّته؛ هو الذي يتحقَّق به إسلامه، فليس الإيمان بالتمنِّي ولا بالتحلِّي، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «يقول الله تعالىٰ آمرًا عباده المؤمنين به، المصدِّقين برسوله ﷺ؛ أن يأخذوا بجميع عرىٰ الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره، ما استطاعوا من ذلك».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّهم أُمروا كلُّهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام، وهي كثيرة جدًّا ما استطاعوا منها».

والتزام المسلم بأمر الله ونهيه يحفظ عليه دينه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في فوائد الآية**[(٣)]: «الإشارة إلىٰ عظيم ما يحصل في المستقبل، وأن الإنسان يخشىٰ عليه من الزلل إلا أن يثبته الله، لقوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثۡبِيتًا﴾؛ لأنَّ التثبيت علىٰ غير مواطن الزلل لا يُذكر، إنما يُذكر التثبيت في حال مواطن الزلل، ومعلوم أن الإنسان يرد عليه في حياته شبهات ويرد عليه شهوات؛ فالشبهات تدك العلم وتذهبه، والشهوات تدك الإرادة حتىٰ يصبح الإنسان لا يريد إلا ما يهواه فقط، وهذه آفة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٥٧، ٣٥٨).

(٣) تفسير سورة النساء (١/ ٤٩٢، ٤٩٣).

فالإنسان يحيط به شيئان: شبهة يزول بها العلم، وشهوة تزول بها الإرادة، فإذا لم يثبته الله بالعلم والإرادة الصادقة والعزيمة الجازمة؛ فإنه يهلك».

وقيام المسلم بالعمل لله بعبوديَّته؛ هو من شكره لله علىٰ نعمه التي لا تحصىٰ، والتي من أعظمها وأهمّها نعمة العافية التي هي سبب للقدرة علىٰ العبوديَّة.

وقد كان النبيُّ ﷺ يتعوَّذ بالله من العجز والكسل، رواه البخاري ومسلم من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «العجز والكسل قرينان: فإنَّ تخلُّف مصلحة العبد وكماله ولذَّته وسروره عنه إما أن يكون مصدره عدم القدرة؛ فهو العجز، أو يكون قادرًا عليه لكن تخلَّف لعدم إرادته؛ فهو الكسل، وصاحبه يُلام عليه ما لا يلام علىٰ العجز.

وقد يكون العجز ثمرة الكسل، فيلامُ عليه أيضًا، فكثيرًا ما يكسل المرء عن الشيء الذي هو قادر عليه، وتضْعُف عنه إرادته، فيفضي به إلىٰ العجز عنه».

وقد حثَّ النبيُّ ﷺ علىٰ المبادرة في فعل الطَّاعات خشية حصول العوارض المانعة من فعلها، فقال ﷺ: «**من أراد الحجَّ فليتعجَّل؛ فإنَّ أحدكم لا يدري ما يعرض له**»، رواه أبو داود.

وقد حثَّ النبيُّ ﷺ أمَّته علىٰ الحزم في فعل الأمور الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، وأمر بالمبادرة في فعلها والقيام بها؛ اغتنامًا لوقت الإمكان عن العجز.

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٣١٣).

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **أنَّ رسول الله** ﷺ **قال:** «**ما حقُّ امرئٍ مسلم له شيء يُوصي فيه، يبيت ليلتين، إلَّا ووصيَّته مكتوبة**»، رواه البخاري ومسلم.

قال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما مَرَّتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك، إلَّا وعندي وصيَّتي. رواه مسلم.

قال شيخ مشايخنا العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «ينبغي للإنسان أن يقتدي بابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فمن حين يسمع هذا الحديث، فليبادر إلىٰ امتثال الأمر، ويوصي؛ فإنَّ في ذلك فوائد عديدة:

منها: المبادرة إلىٰ امتثال أمر الله عَزَّوَجَلَّ وأمر رسوله ﷺ.

ومنها: أنَّه يتغانم الوقت قبل الفوات؛ فإنَّه لا يدري متىٰ يموت، ولعلَّه يموت بغتة، أو يصيبه أمر لا يقدر معه علىٰ الوصية.

ومنها: أنَّه لا يزال في عبادة من حين أن يكتبها إلىٰ أن يتوفَّاه الله تعالىٰ.

ومنها: أنَّه إذا أصابه المرض، لم يكن له همٌّ في الوصية، فيتفرَّغ إلىٰ ما يقرِّبه إلىٰ الله.

ومنها: أنَّ هذا من الحزم؛ لأنَّه استعد للأمر قبل وقوعه.

ومنها: أنَّه أحسن للوصيَّة، فإنَّه إذا كان في حال صحَّته وفراغه؛ كان أعرف بأحسن وجوه البرِّ منه إذا كان في حال المرض، وضعف النَّفس، واشتغال الخاطر».



---

(١) شرح عمدة الأحكام (٢/ ٩٨٤، ٩٨٥).

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢٠- ومن الأمور النافعة حسم الأعمال في الحال، والتفرغ للمستقبل؛ لأن الأعمال إذا لم تُحسم اجتمع عليك بقية الأعمال السابقة، وانضافت إليها الأعمال اللاحقة؛ فتشتد وطأتها، فإذا حسمت كل شيء بوقته أتيت الأمور المستقبلة بقوة تفكير وقوة عمل[١].

الشَّرْح:

المستقبل من أعمال الدُّنيا لضرورات الكسب والرِّزق لا يقطع عن العمل للمستقبل الأهم الآخرة، بل هو من أسباب العمل للآخرة.

والنَّفس فيها داعٍ للكسل، والكسل يقطع عن العمل الدُّنيويِّ والأخرويِّ، فالتهاون عن أداء الأعمال حرمان من الخير، وإذا صار هذا خلق المسلم وأفراد الأمَّة تأخَّروا عن إقامة دينهم ودنياهم.

وقد حثَّنا النبيُّ ﷺ علىٰ العمل وترك الكسل، فقال: «**احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز**»، رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الكسل هو أصل الخيبة والفشل، فالكسلان لا يدرك خيرًا، ولا ينال مكرمة، ولا يحظىٰ بدين ولا دنيا».

وحثَّ الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ علىٰ إنجاز الأعمال في الحال حيث يمكن، أخذًا

---

(١) الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة (ص٣٠).

(٢) بهجة قلوب الأبرار (ص٥٠).

بالحزم والقوَّة في أداء الأعمال، واغتنامًا للوقت في الزِّيادة من الخيرات، وحفظًا له من تضييعه بالكسل والتَّسويف الذي تتعطَّل به المصالح الدِّينيَّة والدُّنيويَّة.

قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصَّباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحَّتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»، رواه البخاري.

قال العلَّامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قول ابن عمر: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصَّباح»، أي: لا ينتظر بأعمال الليل الصَّباح، بل بادر بالعمل، وكذلك «إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء»، أي: لا تؤخر أعمال الصَّباح إلىٰ الليل».

أوصىٰ بعض الحكماء ابنه، فقال له: «يا بنيّ! إيَّاك والتَّسويف لما تهم به من فعل الخير، فإنَّ وقته إذا زال لم يعد إليك. واحذر طول الأمل فإنَّه هلاك الأمم، ولا تدفع الواجب بالباطل.

وكن في وقت الرحلة إلىٰ الآخرة تغتبط بالعاقبة»[2].

والحازم هو الذي يقوم بالأعمال الحاضرة، وقد أعدَّ نفسه لأعمال المستقبل، والعاجز هو من عطَّل الأعمال الحاضرة ممنِّيًا نفسه العمل للمستقبل.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «إن العبد المؤمل للآمال المستقبلة، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر؛ شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته علىٰ ما يستقبل من أموره، فأحرىٰ به أن يُخذل ولا يقوم بما هَمَّ به

(١) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٤/ ٢٤٧).

(٢) من أخبار السَّلف الصَّالح (ص٤٠٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٨٣٧).

ووطن نفسه عليه. فالذي ينبغي أن يجمع العبد همَّه وفكرته ونشاطه علىٰ وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعينًا بربه في ذلك؛ فهذا حريٌّ بالتوفيق والتسديد في جميع أموره».

والإنسان إذا أحسن تدبير وقته؛ أمكنه أداء حق الله والقيام بشؤونه الدُّنيويَّة، التي إذا احتسبها؛ كانت من أفضل أعماله.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا نظر العبد إلىٰ الأعمال الموظفة علىٰ العباد في اليوم والليلة المتنوعة من فرض ونفل، وصلاة وصيام وصدقة وغيرها، وأراد أن يقتديَ فيها بأكمل الخلق وإمامهم محمد ﷺ؛ رأىٰ ذلك غير شاقٍّ عليه، ولا مانع له عن مصالح دنياه، بل يتمكن معه من أداء الحقوق كلها: حقِّ الله وحقِّ النفس، وحقِّ الأهل والأصحاب، وحقِّ كل من له حق علىٰ الإنسان برفق وسهولة».

احرص أيُّها المسلم علىٰ العمل أوَّل النَّهار وآخره، فيكون أوَّل يومك طاعة، تصلِّي الفجر فتكون في ذمَّة الله وحفظه، ثم تلهج بذكر الله حتىٰ تطلع الشَّمس، ثم تُجم نفسك بتناول الطَّعام لتأخذ استعدادك للعمل في النَّهار، فإذا صلَّيت الظُّهر أتممت بقيَّة عملك، ثم رجعت إلىٰ دارك لتناول الغداء ولأخذ الرَّاحة بالقيلولة، ثم تصلِّي العصر ولا تزال تذكر الله حتىٰ تغرب الشَّمس، وإن

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص١٠٣).

كنت في دارك أو سوقك.

قال النبيُّ ﷺ: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»، رواه البخاري من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فيحبط عمل يومه؛ لأنَّ العصر آخر صلاة النَّهار.

وبعد غروب الشَّمس تصلِّي المغرب، وتلزم ذكر الله بين العشاءين؛ لأنَّه وقت غفلة، ولا تنم قبل العشاء لئلَّا تنام عن صلاة العشاء.

ولا تسمر بعد العشاء إلا في خير، واجعل من ليلك قسطًا للرَّاحة بالنَّوم، وقسطًا لمناجاة الله.

والتَّواني عن فعل الطَّاعات والمنافع الدُّنيويَّة عجز وكسل، وقد يكون ذلك عن عدم رغبة في أدائها، فاحذر أيُّها المسلم التَّسويف فإنَّه يُثبِّط العزائم، فينتهي الحال بالمسلم وقد فاته خير كثير، وربَّما لحقه بسبب ذلك حرمان من المصالح الدِّينيَّة والدُّنيويَّة.

ومن أعظم الأمور الباعثة علىٰ إنهاض العزائم والهمم النَّظر فيما تدركه من ثواب الدُّنيا والآخرة من أداء الأعمال الدِّينيَّة والدُّنيويَّة النَّافعة، فلا تُفرِّط فيما يعود عليك بالخير العاجل والآجل، والله عنده حسن الثَّواب.

فاحذر أيُّها المسلم من التَّثاقل عن الطَّاعات والأمور النَّافعة، واستبق الخيرات، والحزم المبادرة إلىٰ كل عمل نافع ديني ودنيوي.

والاستعانة بالله في كل أمر مطلوب فعله من أسباب أدائها، فيكون المسلم دائمًا مستعينًا بالله عابدًا له.

ومن اعتاد فعل الخيرات والمبادرة إلىٰ فعلها؛ صار ذلك صفةً راسخة له، لا

تتغيَّر، بل يكون ذلك سببًا لزيادة المسلم من كل خير وبرٍّ كل يوم، فهو يترقَّىٰ في درج الخير، ويزداد بذلك إيمانًا.

وقد أمرنا الله بالقيام بالأمور الدِّينيَّة بالقوَّة، فقال سبحانه: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [الأعراف: ١٧١]، وكذلك الأمور الدُّنيويَّة لا تقوم إلَّا بالجدِّ والعزم والصِّدق والقوَّة في أدائها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وجوب فرار المسلم من الكسل إلىٰ العمل(١): «يفرُّ من إجابة داعي الكسل إلىٰ داعي العمل، والتَّشمير بالجد والاجتهاد، و«الجد» هاهنا هو صدق العمل وإخلاصه من شوائب الفتور، ووعود التسويف والتهاون، وهو تحت السين وسوف وعسىٰ ولعل؛ فهي أضر شيء علىٰ العبد، وهي شجرة ثمرها الخسران والندامات».

وقال تعالىٰ ممتدحًا صفوة خلقه من أنبيائه ورسله - عليهم الصلاة والسلام -: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾ [ص: ٤٥].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: أولي القوة في طاعة الله، والمعرفة بالله(٢).

والعزم علىٰ الطَّاعات، والحزم في فعلها وأدائها؛ هو السَّبب في دخول الجنَّة ورفعة الدَّرجات، وبهذا سبق أولو العزم من الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام الخلق جميعًا من الأنبياء والرُّسل والنَّاس أجمعين.

---

(١) مدارج السَّالكين (١/ ٣٦٧).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٩٨١).

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «العزم الذي مدح الله به خيار خلقه، كقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآية [الأحقاف: ٣٥]؛ هو: قوة الإرادة، وجزمها علىٰ الاستمرار علىٰ أمر الله، والهمَّة التي لا تَني ولا تفتر في طلب رضوان الله وحسنِ معاملته، وتوطين النفس علىٰ عدم التقصير في شيء من حقوق الله».

وأيَّام الدُّنيا معدودات، فما أيسر العمل فيها، وما أجزل الثَّواب من الملك الوهَّاب.

وأنت أيُّها المسلم أدركت صيام رمضان كلَّ عام، أيَّامه معدودة، ما إن تنتهي حتىٰ تقول: ما أسرع مرور أيَّامه، وما أمتعها في عبادة الله! لم تجد لها مشقَّة، بل وجدت التَّيسير والإعانة من الله علىٰ العبادة فيه، ووجدت فيه إن صمت نهاره وقمت ليله أجزل الثَّواب بمغفرة الذُّنوب، وغنمت بليلة من لياليه ما هو خير من ثلاثة وثمانين عامًا من سواه، وفرحك يوم تلقىٰ ربَّك أعظم ثوابًا، وهكذا أوقات الطَّاعات في تعاقب الأيَّام، أوقات يسيرة في أيَّام معدودات، فاشتر الثَّواب الجزيل بالعمل القليل في الأيَّام المعدودات.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤].

والله هو الذي يجعلك تألف الطاعة، ومن أقبل علىٰ الله أقبل الله عليه بتيسيره لأسباب عبودية، ومن تعبَّد لله عَزَّوَجَلَّ بإخلاص له ومتابعة لرسوله ﷺ

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص٦١).

قرَّت عينه بالله وبالتألُّه له.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الصِّيام لا يكلِّف من وفَّقه الله، ولهذا حَثَّ علىٰ السُّحور وتأخيره، فكأنَّ الإنسان قدَّم غداءه وأخَّر عشاءه، فإذا تسحَّر مضىٰ معظم النَّهار أو كلُّه، ونفسه لا تطلب شيئًا، ولهذا إذا تمرَّن الإنسان عليه؛ لم يكلفه، حتىٰ إنَّ النَّاس في آخر رمضان لا يتكلَّفون منه، بل إذا طلع فقدوه؛ لإلفهم إيَّاه».

وعبوديَّة الله في أيَّام الدُّنيا المعدودات هي موجب دخول الجنَّة، وقد ذكَّرنا الله بخصوص ثواب الصِّيام، فقال سبحانه: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

والله عَزَّوَجَلَّ لم يشرع الشَّرائع ويأمر بالعبادات إلَّا ليزكِّينا، ويصطفينا لعبوديَّته، وليتمَّ نعمته علينا، لا ليجعلنا في ضيق ولا حرج ولا مشقَّة، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ وقال في خاتمة الآية: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: ٦].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ الله تعالىٰ - فيما شرعه لنا من الأحكام - لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقَّة ولا عسر،

---

(١) شرح عمدة الأحكام (٢/ ٦٠٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٢٤).

وإنَّما هو رحمة منه بعباده ليطهِّرهم، وليتم نعمته عليهم».

وتوجيه العلَّامة السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لحسم الأعمال للتفرُّغ للمستقبل؛ هو من دعوته لاستعمال الفراغ للعمل الصَّالح، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشَّرح: ٧، ٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ابن آدم! إنَّك بين مطيَّتين يوضعانك الليل إلىٰ النَّهار، والنَّهار إلىٰ اللَّيل، حتىٰ يسلمانك إلىٰ الآخرة، فمن أعظم منك يا ابن آدم خطرًا».

ونعمة الفراغ عظيمة، فالموفَّق من عمَّرها بطاعة الله، والمغبون من لم يعرف قيمة الوقت، ومن كان فراغه فيما يُسخط الله فهو الموبق لنفسه.

عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قال رسول الله** ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من النَّاس: الصحَّة والفراغ**»، رواه البخاري.

وقال إبراهيم بن شيبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «من حفظ الله له أوقاته، فلا يضيِّعُها بما لا رضًا لله فيه؛ حفظ الله عليه دينه ودنياه».

قال ابن بطَّال رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «معنىٰ الحديث: أن المرء لا يكون فارغًا حتىٰ

---

(١) من أخبار السلف الصالح (ص٤١٤).

(٢) من أخبار السلف الصالح (ص٤١٥).

(٣) فتح الباري (١١/ ٢٧٦، ٢٧٧).

يكون مكفيًّا صحيح البدن، فمن حصل له ذلك فليحرص علىٰ أن لا يغبن بأن يترك شكر الله علىٰ ما أنعم به عليه، ومن شكره امتثال أوامره واجتناب نواهيه، فمن فرَّط في ذلك فهو المغبون».

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون متفرغًا؛ لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة؛ فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة؛ فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون؛ لأن الفراغ يعقبه الشغل؛ والصحة يعقبها السقم ولو لم يكن إلا الهرم».

وقد جعل الله في أعمارنا استعتابًا، ليزداد المحسن من العمل الصَّالح والبرِّ والتَّقوىٰ، ولينته المسيء فيبادر إلىٰ أسباب فوزه بالجنَّة ونجاته من النَّار، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر: ٥].

والمسلم إذا اغتنم صحَّته وفراغه بالعلم النَّافع والعمل الصَّالح، فإنَّه إذا عرض له ما يقطعه عن العمل من مرض أو شغل؛ كُتب له ما كان يعمله، وإذا لم يكن له شغل في طاعة فماذا عسىٰ أن يُكتب له؟!

---

(١) فتح الباري (١١/ ٢٧٦، ٢٧٧).

عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**إذا مرض العبد أو سافر؛ كُتب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا**»، رواه البخاري.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُٱللَّهُ(١): «هذا من أكبر مِنَن الله علىٰ عباده المؤمنين: أن أعمالهم المستمرة المعتادة إذا قطعهم عنها مرض أو سفر؛ كتبت لهم كلها كاملة؛ لأن الله يعلم منهم أنه لولا ذلك المانع لفعلوها، فيعطيهم تعالىٰ بنيَّاتهم مثل أجور العاملين مع أجر المرض الخاص، ومع ما يحصل به من القيام بوظيفة الصبر، أو ما هو أكمل من ذلك من الرضا والشكر، ومن الخضوع لله والانكسار له».

والمسلم إذا كان في وقت العمل فلا يقطع نفسه عن الخير، بالعجز والكسل والتَّسويف؛ فإنَّه لا يدري متىٰ تنقطع عنه أسباب العمل، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله، إلَّا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»، رواه مسلم.

قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُٱللَّهُ(٢): «قال العلماء: معنىٰ الحديث: أنَّ عمل الميِّت ينقطع بموته، وينقطع تجدُّد الثَّواب له، إلَّا في هذه الأشياء الثَّلاثة، لكونه كان سببها؛ فإنَّ الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصَّدقة الجارية وهي الوقف».

---

(١) بهجة قلوب الأبرار وقُرَّة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار (ص١٠٩).

(٢) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص١٠٣٨).

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢١- وينبغي أن تتخيَّر من الأعمال النافعة الأهم فالأهم، وميّز بين ما تميل نفسك إليه وتشتد رغبتك فيه، فإن ضدَّه يحدث السآمة والملل والكدر، واستعن علىٰ ذلك بالفكر الصحيح والمشاورة، فما ندم من استشار. وادرس ما تريد فعله درسًا دقيقًا، فإذا تحققت المصلحة وعزمت؛ فتوكَّل علىٰ الله، إنَّ الله يحب المتوكلين.

والحمد لله ربِّ العالمين.

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم(١).

الشَّرح:

هذه الوسيلة هي أم الوسائل للخيرات، وهو التزوُّد من الأعمال النَّافعة، قال تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقول العلَّامة السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واستعن علىٰ ذلك بالفكر الصحيح»؛ فيه بيان أنَّ الفكر الصَّحيح هو الأساس لاختيار الأعمال النَّافعة.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «التَّفكُّر في الخير يدعو إلىٰ العمل به»(٢).

والفكر سبب لتمييز الخير من الشرِّ، ومعرفة الفاضل من المفضول، وسبب لتلمُّح عواقب الأمور(٣).

---

(١) الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة (ص٣٠، ٣١).

(٢) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٥١٨).

(٣) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٥١٩، ٥٢٠).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الفكر إذًا هو المبدأ، والمفتاح للخيرات كلِّها».

والفكرة نفسها عبادة، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ الفكر عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح».

وقال ابن القيم أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الخير والسعادة في خزانة مفتاحها التفكُّر؛ فإنه لا بد من تفكُّر وعلمٍ يكون نتيجته الفكر، وحال يحدثُ للقلب من ذلك العلم؛ فإنَّ كلَّ من علم شيئًا من المحبوب أو المكروه لا بد أن يبقىٰ لقلبه حالة وينصبغ بصبغة من علمه، وتلك الحال توجب له إرادة، وتلك الإرادة توجب وقوع العمل».

فخيرة خلق الله رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام أمرهم الله بملازمة طاعته وعبادته وذكره، فقال سبحانه لموسىٰ وهارون عليهما السلام: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢]، أي: لا تفترا عن ذكري.

فنحن أحرىٰ وأولىٰ بالاشتغال بالطاعة، والعمل بالأهم فالأهم من ذلك.

والمقصود عمارة يومك وليلتك بما هو خير لك في دينك ودنياك، رتب في ذهنك ما هو أنفع لك في عمله، مبادرًا إلىٰ أداء الأوجب والأنفع، من غير عجز ولا تواني، ولا إيثار للكسل علىٰ العمل، ولا تأخير لفضائل الأعمال بالتسويف.

قال بكر بن عبد الله المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ امرأةً من أهل اليمن كانت تقول إذا

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٥٢٦).

(٢) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٥١٩).

(٣) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٥٢٦).

أصبحت: يا نفس! اليوم يومك، لا يوم غيره. فتعمل في ذلك اليوم ما شاء الله أن تعمل، فإذا أمست قالت: يا نفس! الليلة ليلتك لا ليلة غيرها، فتعمل في تلك الليلة ما شاء الله أن تعمل حتىٰ تُصبح، فلم يزل ذلك دأبها حتىٰ مضت(١).

فاتَّخذ من العمل بالأهمِّ فالأهمِّ منهجًا لك في حياتك، فيكون ذلك سببًا لسعادتك وتثقيل موازينك، وإذا كان الإنسان في أموره الدُّنيويَّة يختار ويُقدِّم الأهمَّ والأنفع؛ فهو أولىٰ بذلك في أموره الدِّينيَّة.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزُّمَر: ١٨].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «المراد بالقول هنا القول الحسن، أما اللَّغْوُ أو السَّيِّئ؛ فإنَّ الله يقول: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥]، فإذا كانوا يُعْرِضون عن اللَّغو لأنَّه لا فائدة فيه، فالمُحَرَّم من باب أَوْلىٰ.

إذن: هؤلاء قوم عندهم حَزْم، عندهم شُحٌّ في الوقت، لا يستمعون إلا إلىٰ القول الحسن».

وإذا كان منهجك العمل بالأهمّ فالأهمّ، فارع للمسلمين حقوقهم في ذلك بأن لا تشغلهم بالمرجوح من الأعمال عن الأفضل، ولا تعطِّلهم عن عمارة أوقاتهم بالقيام بأهمِّ الأعمال وأولاها، وبذلك استعتب الله بعض الصَّحابة

---

(١) الزهد لأبي حاتم الرازي (ص٥٤).

(٢) تفسير سورة الزُّمر (ص١٤٦).

انبساطهم بالحديث مع رسول الله ﷺ فوق مقدار الحاجة حيث شغله ذلك عن الأهمِّ فالأهمِّ.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

علىٰ كل حال إذا كان للعالم وقت لإجمام النَّفس بالحديث وتناول الطَّعام مع خاصَّته في المباحات؛ فهذا من الطَّاعة، وهذا من عادة العلماء والعابدين: عمارة أوقاتهم كلِّها بالطَّاعة والأمور النَّافعة، وإجمام النَّفس عن كدِّ التَّعب؛ ليكون ذلك عونًا لهم علىٰ القيام بمصالحهم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة.

وسعيك في تدبير شئونك الخاصَّة ومن تعول تأخذ فيه بالأصلح والأنفع والذي هو خير ممَّا شرعه الله عَزَّوَجَلَّ من الأسباب، وتدبيرك شيء، والثِّقة بتدبير الله طمأنينة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من ترك الاختيار والتدبير في طلب زيادة دنيا أو جاه، أو في خوف نقصان، أو في التخلُّص من عدوٍّ توكلًا علىٰ الله، وثقة بتدبيره له وحسن اختياره له؛ فألقىٰ كنفه بين يديه، وسلَّم الأمر إليه، ورضي بما يقضيه له؛ استراح من الهموم والغموم والأحزان. ومن أبي إلا تدبيره لنفسه؛ وقع في النَّكد والنَّصَب، وسوء الحال والتعب؛ فلا عيش يصفو، ولا قلب يفرح، ولا عمل يزكو، ولا أمل يقوم، ولا راحة تدوم. والله سبحانه سهَّل لخلقه السبيل إليه، وحجبهم عنه بالتدبير، فمن رضي بتدبير الله له وسكن إلىٰ اختياره، وسلَّم

(١) الفوائد (ص١٤٤).

لحكمه؛ أزال ذلك الحجاب، فأفضىٰ القلب إلىٰ ربِّه، واطمأن إليه وسكن».

وقد علَّم النبيُّ ﷺ أمَّته حسن ترتيب الوقت عند تزاحم الأعمال، وأرشد إلىٰ الأخذ بالحزم والمبادرة إلىٰ فعل الأعمال حتىٰ تبرأ الذمَّة بفعلها، ويدرك المسلم ثوابها وفضائلها، فقد حثَّ من اشتغل بطلب العلم نهاره كله أن يصلِّي قيام الليل ويوتر قبل أن ينام، خشية أن يعيا عن القيام آخر الليل.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أوصاني خليل ﷺ بثلاث: بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضُّحىٰ، وأن أوتر قبل أن أرقد»، رواه البخاري ومسلم.

قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «الوتر تقديمه علىٰ النَّوم لمن خاف أن لا يستيقظ آخر الليل».

وقول العلَّامة السَّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «تتخيَّر من الأعمال النَّافعة الأهمَّ فالأهمَّ» حثٌّ علىٰ التزوُّد من التَّقوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وشعب البرِّ والتَّقوىٰ ثلاث وسبعون، يتشعَّب منها أنواع كثيرة من خصال الخير. والزِّيادة من أنواع شعب الإيمان زيادة في التَّقوىٰ، وهي من أسباب تزكية المسلم وحفظ دينه ورفعة درجته في الآخرة.

وخصال التَّقوىٰ متنوِّعة ويُنمِّي بعضها بعضًا، فيكون المسلم بذلك آخذًا بالأسباب المنمِّية لإسلامه واعتقاده وعمله وخلقه؛ فالعبادات البدنيَّة تزكِّي بدنه وروحه، والعبادات المالية تطهِّره من الشُّحِّ والبخل، والأعمال كلُّها من زكاء

---

(١) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص٥٠٠).

شجرة التَّوحيد المثمرة لكل عمل صالح.

والتزوُّد بالعمل الصَّالح هو مقصود الحياة؛ فهذا عيش السُّعداء، وكان من دعاء النبيِّ ﷺ: «**اللهم اجعل الحياة زيادة لي في كل خير**»، وهذا هو حقيقة بركة المسلم؛ فإنَّ البركة زيادة ونماء، وهذا لا يتناوله النَّهي عن التَّكاثر، فإنَّ زيادة الخير وتنميته بركة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «النُّفوس الشَّريفة العلويَّة ذات الهمم العالية إنَّما تكاثر بما يدوم عليها نفعه وتكمل به، وتزكو وتصير مفلحة».

وقال ابن القيم أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «التَّكاثر بأسباب السَّعادة الأخرويَّة تكاثر لا يزال يذكِّر بالله ولقائه، وعاقبته الكثرة الدَّائمة التي لا تزول ولا تفنىٰ».

ومن الأمور الباعثة علىٰ النَّشاط في الأعمال والموجبة للسَّعادة، والدَّافعة للسآمة والملل، خصوصًا الأعمال الوظيفيَّة الدنيوية؛ احتسابُ التَّعبُّد لله في فعلها، وشغل أوقات الفراغ والرَّاحة من أوقاتها بمناجاة الله وذكره؛ فإنَّه يجدِّد العزائم ويقوِّي الهمم علىٰ أداء العمل، ويدفع الملل.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «ينبغي للموظفين أن يستشعروا أنهم إذا جاءوا إلىٰ مكاتب الوظيفة أنَّهم في طاعة الله، وفي عبادة الله، وفي الإحسان إلىٰ عباد الله، حتىٰ يكون قيامهم بالوظيفة عبادة من العبادات.

فإذا جاء من أوَّل الدَّوام إلىٰ آخره؛ فهو في عبادة من أوَّل الدَّوام إلىٰ آخره،

(١، ٢) عُدَّة الصَّابرين وذخيرة الشَّاكرين (ص٣٧٠).

(٣) فتاوىٰ سؤال علىٰ الهاتف (١/ ٧٣٠).

بل إنَّ مَشيَه لهذه الوظيفة عبادة؛ فهذا معنىً يغفل عنه كثير من الموظَّفين، ولكنِّي أرجو الله تعالىٰ أن يفتح عليهم به حتَّىٰ يَنْوُوا هذه النِّيَّة الطيِّبَةَ الَّتي يحصلون بها علىٰ ثواب الدُّنْيا والآخرة».

وقال شيخنا العلامة المجدِّد محمد العثيمين(١): «وإذا تأتَّىٰ للإنسان أن يقرأ شيئًا من القرآن وهو في عمله، بحيث لا يكون عنده مراجعون، وليس في حاجة لمراجعة كتابات أو غيرها، بل هو فارغ مطلقًا، فما أحسن أن يستغل الفرصة بقراءة القرآن».

وتحذير العلامة السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من السآمة والملل والكدر جدير بالعناية بتوجيهه، فإنه متىٰ أدرك الإنسان الضَّجر قطعه عن العمل.

قال أبو جعفر الباقر رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إيَّاك والكسل والضَّجر، فإنَّهما مفتاح كل شر، إنَّك إن كسلت لم تؤدِّ حقًّا، وإذا ضجرت لم تصبر علىٰ حقٍّ».

والمؤمن إذا استعان بالله في أداء العبادات والأعمال النَّافعة، ربَّما وجد في أداء بعضها في أوَّل الأمر مشقَّة، فإذا داوم علىٰ فعلها واصطبر لعبادة الله في ذلك؛ صارت من أيسر ما يكون له في فعلها، ووجد قرَّة العين بالتعبُّد لله في فعلها.

والله عَزَّوَجَلَّ يشرح صدور عباده ويُقبل بقلوبهم إلىٰ مرضاته، فيحبِّب إليهم فعل الطَّاعات وييسِّرها عليهم، ثم يثيبهم عليها، إنَّ ربنا هو المتفضِّل بالإحسان أوَّله وآخره، وكلّه.

---

(١) فتاوىٰ سؤال علىٰ الهاتف (١/ ٧٣٠).

(٢) سير السَّلف الصَّالحين (٣/ ٩١٤).

قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

قال شيخنا العلامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ينشرح الصَّدر للإسلام، ويتقبل جميع شرائعه، إن أُمر بالشيء انشرح لقبوله والعمل به، وإن نُهي عن شيء انشرح لقبوله واجتنابه، وإن أُخبر عن شيء انشرح لقبوله وتصديقه».



---

(١) تفسير سورة الزُّمر (ص١٧٥).



الخاتمة

تلك هي الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة تناولتها بالشرح، وحرصت علىٰ شرحها من مجموع ما ذكره العلامة عبد الرحمن السّعدي في مؤلفاته، وأتممتها بشروحات تلميذه شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مع ذكر ما تدعو إليه الحاجة من الشرح والإبانة من كلام السلف وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتلميذه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والوسائل المفيدة هي توجيهات قدّمها العلامة السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ للبشريَّة جمعاء، ولأمَّة الإسلام خصوصًا، وهذا من زكاء نفسه الذي عُرف به في نفع الخلق ونصرة الحق.

كتب العلامة المجدِّد عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الوسائل المفيدة للحياة السعيدة بأدلَّتها من القرآن والسُّنَّة، لتكون نورًا يبصر به النَّاس أسباب سعادتهم، ومنهجًا يأخذون به في حياتهم الدُّنيا فتورثهم خيري الدُّنيا والآخرة.

مصنّف الوسائل المفيدة للحياة السَّعيدة هو من عناية العلامة السَّعدي بفقه واقع المسلمين ، ومن توجيهه للمسلمين لأسباب خيريتهم وسعادتهم.

مصنَّف الوسائل المفيدة للحياة السعيدة دالٌّ علىٰ منهج العلامة السعدي التَّربوي في توجيه الأمَّة للخير وأسباب السَّعادة.

أحمد الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ تيسيره أسباب شرح الوسائل المفيدة، فالله وحده هو

الموفّق للخير كلّه، وأسأله سبحانه أن يُنعم علىٰ المسلمين بالحياة الطيِّبة، وأن يهيئ لأمة الإسلام أسباب العزّ والسَّعادة.

والحمد لله رب العالمين.



دليل الموضوعات

الموضوع	الصفحة

